

الخطاب للإخلاق

وَأَبْنَاءُ الْبَدْوِيَّةِ

عِنْدَ

السَّيِّدِ خِيَالِ بْنِ عَلِيٍّ طَائِفِ الْحَمِي



العتبة العباسية المقدسة
مركز الدراسات والبحوث الإسلامية
مركز تراث الحلة

موبايل: 009647602320073

E-mail: hilla@alkafeel.net

الشريفي، رحيم كريم علي، مؤلف.

الخطاب الأخلاقي وأبعاده التداولية عند السيّد رضي الدين علي بن طاووس الحليّ (ت ٦٦٤هـ)
تأليف أ.د. رحيم كريم علي الشريفي، أ.م.د. حسين علي حسيني الفتلي؛ مراجعة وضبط مركز
تراث الحلة قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية. - الطبعة الأولى. - الحلة، العراق: العتبة
العباسية المقدسة، مركز تراث الحلة، ١٤٤٢هـ. = ٢٠٢١.

٢٧٢ صفحة؛ ٢٤ سم

يتضمن كشافات

يتضمن إرجاعات ببليوجرافية: صفحة ٢٤٧ - ٢٦٠.

١. ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر، ٥٨٩ - ٦٦٤ هجري. ٢. الاخلاق الإسلامية
(شيعة). ٣. التداولية. أ. الفتلي، حسين علي حسين، مؤلف. بالعتبة العباسية المقدسة. قسم شؤون
المعارف الإسلامية والإنسانية. مركز تراث الحلة، مصحح. ب. العنوان.

LCC: BP80.I26. S85 A33 2021

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

الكتاب: الخطاب الأخلاقي وأبعاده التداولية.

تأليف: أ.د. رحيم كريم علي الشريفي.

أ.م.د. حسين علي حسين الفتلي.

مراجعة وضبط: مركز تراث الحلة.

جهة الإصدار: العتبة العباسية المقدسة، قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية.

الطبعة: الأولى.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع.

سنة الطبع: ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٦٢١) لسنة ٢٠٢١م



مؤسسه پژوهشی و انتشارات - محور التراث الفكري

الخطاب الاخلاقي

ولبائهم التذليل

عند

السيد ضياء الدين علي بن طاهر الحلي

(ت ٦٦٤ هـ)

تأليف

أ.د. رحيم كريم علي الشريفي

أ.م.د. حسين علي حسين الفتي

مراجعة وضبط

مركز تراث الحلي

قسم شؤون العلماء والاعلام والانشاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَاهْدَاءُ

إلى أرض المقدّسات والأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين (العراق)،
علّنا نمتثلُ أمرَ الله ﷻ في الاقتداء بهم، والاهتداء بنورهم.

إلى الأرض التي ضمّت واحتضنت رفاتهم، وسُقيت بدمائهم، حلّة أمير
المؤمنين عليّ، وابنه الإمام الحسن المجتبي عليه السلام.

إلى الأرض التي أنجبت الأشاوس الذين رووا أرض الوطن بدمائهم
ردّاً على موجات الجهل والتكفير أبطالنا وشهداؤنا في القوات المسلّحة
العراقيّة...

المؤلّفان

كَلِمَةُ الزَّكَنِ

إلهي أذهلني عَنْ إِقَامَةِ شُكْرِكَ تَتَابُعُ طَوْلِكَ، وَأَعْجَزَنِي عَنْ إِحْصَاءِ ثَنَاتِكَ فَيَضُ
فَضْلِكَ، وَشَغَلَنِي عَنْ ذِكْرِ مَحَامِدِكَ تَرَادُفُ عَوَائِدِكَ، وَأَعْيَانِي عَنْ نَشْرِ عَوَارِفِكَ تَوَالِي
أَيَادِيكَ، وَهَذَا مَقَامٌ مَنِ اعْتَرَفَ بِسُبُوغِ النِّعْمَاءِ وَقَابَلَهَا بِالتَّقْصِيرِ، وَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ
بِالْإِهْمَالِ وَالتَّضْيِيعِ، وَأَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ الْبَرُّ الْكَرِيمُ، الَّذِي لَا يُحِبُّ قَاصِدِيهِ وَلَا
يَطْرُدُ عَنْ فَنَائِهِ أَمْلِيهِ، بِسَاحَتِكَ تَحُطُّ رِحَالُ الرَّاجِينَ، وَبِعَرْصَتِكَ تَقِفُ آمَالُ الْمُسْتَرْفِدِينَ،
وَأَلْه الطَّيِّينِ الطَّاهِرِينَ الْمُتَجَبِّينَ...

وبعد ..

فالخطاب: هو الكلام المقصود وغرضه الإفهام في أيِّ سياقٍ مُشكَّلٍ من عناصر
متميزة ومترابطة فيه امتداد طولي سواء أكانت لغةً أم شيئاً شبيهاً باللغة، ومشمتمل على
أكثر من جملة أولية، أو كُلِّ تَلَفُظٍ يَفْتَرَضُ مُتَكَلِّمًا وَمُسْتَمْعًا يحاول المتكلم التأثير على
السامع وتوجيهه بطريقة ما.

إنَّ مفهوم الخطاب من القضايا المُشكِلة في اللسانيات الحديثة؛ لتنوع مرجعيَّاته؛
إذ يتخذ تسنيته الاصطلاحي تبعاً للحقل الدلالي الذي ينتمي له، غير أنَّ ما يُؤسِّس
لمفهوم الخطاب هو العلوم التي أنشئ على أعتابها في الدراسات النفسية، والاجتماعية،
واللغوية...، وتستقي كلمة خطاب موضوعيتها من المادة التي تعالجها والسياق
الاجتماعي الذي ولدت فيه.

أما التداولية فمصطلح لسانيّ حديث يعود إلى الفيلسوف الأمريكي (شارل
موريس)، فهي لديه جزء من السيميائية تدرس العلاقات بين العلامة ومستعملها،

الخطاب الأخلاقي والبياني التداولية

فالتداولية تدرس اللغة وتحللها من خلال (التركيب، الدلالة، التداول)، فهي تُعنى بقضية التلاؤم بين التعبيرات الرمزية، والسياقات المرجعية، والحدثية، والبشرية.

ولهذا تعددت أنواعها، فظهرت لدينا التداولية الاجتماعية، واللغوية، والتطبيقية، والعامة، ولكل فرع تداولية تختص به.

وبحسبان ما سبق نعتقد أن التداولية ليست علمًا لغويًا محضًا بالمعنى التقليدي، بواسطتها يتاح لنا وصف البنى اللغوية، وتفسيرها، ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، بل هو علم يدرس الظاهرة في مجال الاستعمال، ويدمج مشاريع معرفية عدة في إطار التواصل اللساني وتفسيره بالنظر والتعشيق مع المعارف الأخرى.

ومن هنا تظهر لنا أهمية هذا الكتاب، ومن أسس عدة وهي:

- إن هذا الكتاب يدرس نصًا قديمًا، يشتمل على تراث أحد علماء الإمامية القدامى.

- إن هذا المؤلف يدرس جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية وهو (الأخلاق).

- زواج الباحثان بين الخطاب والتداولية (ولكن بأبعاد المنهج نفسه) دخولا إلى ما وراء اللغة من أنساق.

- درس الباحثان نصوصًا قديمة - شكّلت نصًا أخلاقيًا بامتياز - بمنهج حديث، فعند بعض التداوليين تدخل ضمن المحذور.

وقد أثبت الباحثان أن هذا الأمر ممكن (فقدّم النص لا يتعارض مع حداثة المنهج)؛ لتوافر الإمكانيات الهائلة التي تتعدى حدود الزمان والمكان.

وبالرجوع إلى النصوص ومؤلفها تكمن أهمية عالم من علماء مدرسة أهل البيت عليه السلام؛ إذ عاش في زمن التأسيس للعلوم العقلية والأخلاقية، في مدرسة الحلة العلمية آنذاك.

كَلِمَةُ الشُّكْرِ

وفي الختام لا يسعني إلا أن اتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل لسماحة السيّد المُفدّي (أحمد الصافي)، وإذ إنّ كلمات الشكر في بعض الأحيان عاجزة عن إتيان المقاصد فله درّه وعلى الله أجره. والشكر موصول للشيخ (عمار الهلاليّ) جزاه الله عني خيراً. والأخوة العاملون في وحدة التحقيق؛ لمراجعتهم الدقيقة والعميقة ومعالجتهم للنصوص المشكّلة والوقوف على أبرز النكات العلميّة والبحثيّة فجزاهم الله خير الجزاء، وجعله في صحيفه أعمالهم، وهم كلّ من: (السيّد حيدر وتوت الحسيني، والأخ الدكتور علي الأعرجي، والأخوين الباحثين الدكتور محمّد حليم الكروي، والدكتور عياد حمزة الويساوي)، والشكر موصول للأخ المخرج الطباعي أحمد رحيم المنصوري.

وكذلك لا بُدّ من الشكر لأناسٍ لبسوا القلوب على الدروع، فأقبلوا يتهافون على ذهاب الأنفس، الذين لبّوا نداء المرجعيّة الرشيدة وذهبوا لقتال داعش والتكفيريين وبذلوا النفس والنفيس، وحفظوا المقدّسات والحرّمات بدمائهم الزكية، أسأل الله تعالى أن يحشرهم مع الحسين (عليه السلام) ويجعلهم لنا شفعاء، إنّه سميعٌ مجيبٌ.

صادق الشيخ عبد النبي الخويلديّ

مدير مركز تراث الحلة

٢٩ رجب ١٤٤٢ هـ

المقدمة

الحمدُ لله الذي خَصَّ مُحَمَّدًا بالرسالة والنبوة، والاصطفاء، وأنار على يديه دروب البرية، وقادهم إلى المحجة البيضاء، وصلى الله ﷺ على المخاطب بالقرآن - صاحب المنظومة السنّية العليّة - نبينا مُحَمَّدًا ﷺ، وعلى آله موضوع العصمة والطهارة والرشاد، وعلى صحبه الكرام المخلصين.

أما بعد ..

فقد شكّل الإنتاج اللغويّ موضوعاً رحباً للدراسات العلميّة، إذ انتظمته مجموعة من العلوم منها: (علم الخطاب) الذي ينظر إليه على أساس أنّه عملية إجرائيّة تقتضي التفاعل المتبادل بين المتكلّم والسامع، أو بين المنشئ والمستمع، أو بين المرسل والمرسل إليه، على وَفَاقاً لضوابط مُعيّنة، ولكن يشترط بين هذين الركنين المعرفة الواعية بآليات الخطاب من أجل الوصول إلى الغايات المنشودة والمرجوة، ومن هذه الآليات (التداولية) بوصفها منهجاً لغوياً حديثاً ينظر إلى هذا التّاج على أساس أنّه فعلٌ كلاميٌّ، واستلزامٌ حواريّ وتقنيّةٌ حِجَاجِيّةٌ مبنيّة على مقاصد معينة بلحاظ الموقف الاجتماعيّ الذي يوضّحه ويفسّره.

وعند سَبَرِ غَوَرِ مَكْتَبَتِنَا الحِلِّيّة؛ لاستجلاء الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التداوليّة، فإنّنا سنرقب بمِرْقَاب التأمّل والتدبر، وبمِنْظَار الفحص والنشّط ما تركه لنا سعدُ السعود، وجمالُ المنشئين، ومهجةُ العارفين، وبهجةُ المخاطبين، وإقبالُ المرشدين السيّد رضيّ الدين عليّ بن طاووس الحليّ (ت ٦٦٤ هـ)؛ ليكون قبلتنا وعتبتنا في الكتابة عنه،

الخطب الأخلاقية والتدوّلية

فنجّد المباحث الدقّقة للمصطلحات الأخلاقية، فضلاً عن ذلك نلمح أسس هذا الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التدوّلية في ظلّ وصاياه وكلامه، وأدعيته ورسائله وغيرها. كان السيّد ابن طاووس مرشداً وموجّهاً، وذا رؤية واضحة المعالم في الخطاب الأخلاقيّ مجسّداً وكاشفاً عن الآليات التدوّلية التي تضبط خطابه الأخلاقيّ.

إنّ إحساسنا بخدمة التراث اللغويّ العربيّ عامّة، والتراث اللغويّ الحليّ خاصّة يدعونا إلى انتقاء هذا العلم الإماميّ؛ ليكون محطّ دراستنا ومحرّ بحثنا، واقتناص خطابه الأخلاقيّ ليصير الرّناج الواسع الذي نفّذ من خلاله لسّبر غور هذه الشخصية الأخلاقية الكبيرة، ولاسيّما أنّ تراثنا كان وما يزال بحاجة إلى الأيدي الأمانة التي تكشف النقاب عن شخصيات نحسب أنّها لم تحظَ بمُرَاقاةٍ عند الباحثين والدارسين، ومن أجل تبصرة القراء بالمسار الإبداعيّ، والمسارب المعرفيّة المتنوّعة التي سطرّها علماؤنا؛ ولاسيّما رضيّ الدين ابن طاووس الحليّ، الذي يُعدّ من علماء الإسلام المخلصين والمحقّقين والأخلاقيّين والتربويّين.

وما يسترعي الانتباه في هذا المجال أنّ نصوص ابن طاووس الأخلاقية - التي اشتملتها دراستنا - تعدّ من النصوص الأخلاقية القديمة؛ وتمثّل سبقاً علمياً ومظهرًا من مظاهر التميّز لـ(ابن طاووس) يستحقّ الإشادة به والتنويه عليه؛ الأمر الذي يجعل دراستنا جديدة في بابها، ونحسب أنّها الأولى في هذا الجانب.

إنّ الخطاب الأخلاقيّ وآلياته التدوّلية الذي أزمعنا الحديث عنه عند علم من أعلام الحلّة الفيحاء، جاء تلبيةً للدعوة إلى لزوم إعادة قراءة التراث بوسائل منهجية حديثة؛ من أجل استنباط الأسس المعرفيّة المتنوّعة التي بُني عليها الفكر الموروث، ومن ثمّ الإسهام الجادّ والمثمر في تفعيل التراث في الدراسات اللغوية الحديثة.

المقدمة

وقد اعتمدنا لنسج خيوط هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على الملمة أهم الخطابات الأخلاقية، ثم عرضها على مسائل الموضوع، ومناقشتها، وإثرائها بالإفادة من أقوال الباحثين، ممّن كتبوا في هذا المجال، فضلاً عن الأطاريح المقدمة في الخطاب والأخلاق، والتداول.

وجاءت الدراسة في أربعة فصول، يسبقها تمهيد وتعبقها خاتمة وثبتت بالمصادر والمراجع، أما التمهيد فعرضنا فيه حياة ابن طاووس و ودلالة الخطاب الاخلاقي، ثم بيننا مفهوم التداولية، وعني الفصل الأول، بجذور الخطاب الأخلاقي عند (ابن طاووس الحلي)، وخُصّصَ الفصل الثاني للحديث عن سمات الخطاب الأخلاقي، أما الفصل الثالث، فجاء بعنوان: الأفعال الكلامية في الخطاب الأخلاقي عند ابن طاووس الحلي، أما الفصل الرابع - وهو خاتمة فصول الدراسة - جاء بعنوان الاستلزام الحوارى والحجاج في الخطاب الأخلاقي عند ابن طاووس الحلي، وانطوت خاتمة الدراسة على جملة من النتائج، تتبعها توصيات نخال أنّ من الحق ذكرها.

ولا بُدّ من القول: إنّ مَنْ لا يَعْرِفُ حق الآخرين لا يَعْرِفُ حق الله ﷻ، فإنّنا نتقدّم بالشكر الجزيل لمركز تراث الحلة المبارك، لما يقومون به من أعمال جليلة ومهام كبيرة فجزاهم الله ﷻ خير جزاء المحسنين، زد على ذلك رعايتهم المسابقة العلمية الشريفة لأفضل مؤلّف بحق هذه المدينة المباركة (مدينة العلم والعلماء الحلة الفيحاء)، ونحن على يقين، ونقطع جازمين بأنّ الأقلام الشريفة والعقول النيرة ستقدّم بحوثاً ودراسات مشرقاً قلماً يجود بمثلها الزمن، كيف لا والحلة تضطّم على تراث عظيم، ومخزون فكري كبير، ومكنز أدبي أصيل لا يعلم سرّه إلا الله ﷻ والراسخون في العلم.

الخط الاخلاقي وبعائده التذليلية

وفي الختام ندعو العزيز القدير أن ينال عملنا هذا الموضع المحمود والموقع المأمول من أصحاب الحجا والعقول حتى يُضحي وَيَغْدُو ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، وعطاء وافراً يسهم في إغناء المنظومة الأخلاقية الإسلامية فكراً ومبدأً وثقافةً وسُلوكاً، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

المؤلفان

التمهيد

أولاً: لمحة من حياة رضي الدين علي ابن طاووس الحلي

اسمه ونسبه الشريف

هو السيّد النقيب رضي الدين أبو القاسم علي بن سعد الدين أبي إبراهيم موسى ابن جعفر ابن محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن أبي عبد الله محمّد الطاووس بن إسحاق ابن الحسن بن محمّد بن سليمان بن داوود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب عليه السلام^(١).

وأسرة آل طاووس الحسينيّة العلويّة تنحدر من السيّد أبي عبد الله محمّد الطاووس الذي يرجع هو ووالده في الأصل إلى مدينة سُورا، ثم انتقلت ذريته بعد ذلك إلى بغداد والحلّة، وقد أخرجت هذه الأسرة جملة من الأعلام في المائتين السابعة والثامنة للهجرة، فكانوا سادات وعلماء ونقباء، وقد انكبوا على الكتابة والتأليف في علوم الدين والفقه والشريعة والأنساب، وأشاعوا الوعي والفضيلة بين الناس، وكان أبرز أعلام هذه الأسرة رضي الدين علي بن موسى بن جعفر ابن طاووس، ولقب جدّ الأسرة بالطاووس لحسن وجهه وجماله وعدم مناسبة قدميه لحسن صورته قال فيهم صاحب عمدة الطالب: «وهم سادة وعلماء ونقباء معظمون، منهم... رضي الدين أبو القاسم علي الزاهد صاحب الكرامات نقيب النقباء، بالعراق»^(٢)، وتركت لنا هذه الأسرة العلويّة نتاجاً معرفياً غطّى جانباً كبيراً من المكتبة العربية.

(١) الكنى والألقاب: ١ / ٣٣٩.

(٢) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: ١٨٩، ١٩٠، وينظر: بحار الأنوار: ١٠٤ و ٤٤، الكنى

والألقاب: ٢ / ٤٣٩.

ولادته

ولد رضي الدين علي ابن طاووس قبل ظهر يوم الخميس منتصف محرم سنة (٥٨٩هـ) بالحلّة^(١)، التي كانت مقصدًا لرواد العلم، ودارًا للفقهاء والمعارف، إذ نبغ فيها رجال حملوا راية العلم زهاء أكثر من ثلاثة قرون ولمع في سماء مدرسة الحلّة فقهاء وعلماء وأدباء ما زالت آراؤهم تحظى بالعناية في أروقة المدارس العلميّة، وأضحت مدوناتهم مصادر أصيلة يرجع إليها الباحثون، وساعد على إرساء قواعد الحركة العلميّة في مدينة الحلّة وجود الأسر العلويّة كـ(آل طاووس)، و(آل طباطبا)، و(آل العميد)، و(آل الأعرجي) وغيرهم^(٢).

أقوال العلماء فيه

قال العلامة الحليّ في بعض إجازاته: وكان رضي الدين علي صاحب كرامات، حكى لي بعضهما، وروى لي والدي البعض الآخر، وقال في موضع آخر: إنّ السيّد رضي الدين كان أزهد أهل زمانه^(٣).

أشاد المحدث القمّي بصفاته قائلاً: «السّيّد الأجل الأورع الأزهد، قدوة العارفين... وكان رحمه الله من عظماء المعظمين لشعائر الله تعالى لا يذكر في أحد تصانيفه الاسم المبارك (الله) إلّا ويعقّبهُ بقوله جلّ جلاله... وكان رأيهُ في زكاة غلاته كما ذكره في كتاب (كشف المحجة)» أن يأخذ العشر منها ويعطي الفقراء الباقي منها^(٤).

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٤.

(٢) ينظر: أسرة آل طاووس ومساهماتها في الحركة العلميّة في الحلّة: ٢.

(٣) ينظر: منهاج الصّلاح في اختصار المصباح: ١/ ٣٤٠.

(٤) الكنى والألقاب: ١/ ٣٢٩.

التمهيد

وذكر البحرانيّ أنّه: صاحب المقامات والكرامات والمصنفات... ولم يزل على قدم الخير والآداب والعبادات والتنزّه عن الدنيّات إلى أن تُوفي^(١).

ورد في شعراء الحِلّة أنّ: «من مشاهير العلماء المؤلّفين، ومَن نال مكانة قدسيّة عند مختلف طبقات الإسلام»^(٢).

جاء في كتاب المدارس الأخلاقيّة في الفكر الإسلاميّ «وهو يعدّ من أشهر علماء الشيعة، على مرّ التاريخ في الزهد والتعبّد وطهارة النفس»^(٣).

روي عن أحد طلبة الحوزة العلميّة في النجف الأشرف أنّه سأل السيّد أبا القاسم الخوئيّ تَبْنِي عَنْهُ عن مدى صحة الحديث القائل: (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل) فقال السيّد للطالب: من أيّ مدينة أنت؟ أجاب الطالب: من مدينة الحِلّة فقال سمّاه، لو كان العلماء بمنزلة السيّد علي ابن طاووس لعرفنا كيف يكون علماء أمة محمّد ﷺ كأنبياء بني إسرائيل.

وقد أثنى عليه جمعٌ كثيرٌ من العلماء والمؤرخين، ونكتفي بهذا المقدار؛ رعاية للاختصار.

شيوخه وتلامذته

تتلمذ السيّد رضي الدين ابن طاووس على جملة من العلماء الأفاضل، وفي مقدمتهم والده السيّد الشريف موسى بن جعفر بن محمّد ابن أحمد بن الطاووس^(٤)، والشيخ محمّد بن نما، وجده الشيخ ورام بن أبي فراس المالكي^(٥) وهو جد رضي الدين من قبل

(١) لؤلؤة البحرين: ٢٣٦.

(٢) شعراء الحِلّة: ٤ / ٢٤٠.

(٣) المدارس الأخلاقيّة في الفكر الإسلاميّ: ٤٥٥.

(٤) فتح الأبواب: ١٣٧ و ١٨٧ و ٢٧١.

(٥) كشف المحجّة: ١٠٩.

الخط الأخلاقي ورعاية التذوق

أمه، وكان عالماً فقيهاً محدثاً، عُرف بالزهد والورع^(١)، له كتاب (تنبيه الخاطر ونزهة الناظر) المعروف بمجموعة ورّام وهو كتاب أخلاقي^(٢)، والشيخ الصالح حسين بن أحمد السوراوي، كان عالماً فاضلاً جليلاً نبيلاً^(٣)، أجاز ابن طاووس في جمادى الآخرة سنة (٦٠٧هـ)، إذ يقول في كتاب اليقين: «وأخبرني بذلك الشيخ الصالح حسين بن أحمد السوراوي أجازة في جمادى الآخرة سنة سبع وستمائة عن الشيخ السعيد محمد بن القاسم الطبري عن الشيخ المفيد أبي علي الحسن بن محمد الطوسي عن والده السعيد محمد بن الحسن الطوسي»^(٤).

ومن جملة مَنْ تتلمذ على يده وروى عنه: العلامة الحلي، وعلي بن عيسى الإربلي، وابن أخيه السيّد عبد الكريم.

وقصارى ما يمكن قوله في ظلّ عبارات الفخر والمدح والإطراء بحق السيّد ابن طاووس أنّه كان زاهداً عابداً عارفاً صاحب كرامات ساميات، ومقامات عاليات، وفيوضات شائحات، زد على ذلك أنّه كان بليغاً منشئاً أديباً شاعراً، وبتضافر هذه الخصال الحميدات، والملكات الباهرات، كان حقيقاً علينا أن نستجلي معلماً معرفياً من معالم ابن طاووس المتنوعات، وهو خطابه الأخلاقي الذي يمثل مفتاحاً لمعرفة المتنوعة التي انطوى عليها.

مؤلفاته

خلف ابن طاووس تراثاً علمياً ضخماً في مختلف المعارف والعلوم والفنون، فهو أكثر علماء أسرته نتاجاً معرفياً، فانطوى على خزانة عظيمة حوت على أكثر من ألف

(١) خاتمة المستدرک: ٣ / ٢١.

(٢) الذريعة: ٢٠ / ١٠٩.

(٣) أمل الآمل: ٢ / ٩٠.

(٤) اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام: ٢٠٨.

التمهيد

وخمسمائة كتاب^(١)، واستطاع أن يمتلك هذه الخزانة الغنية بالذخائر والنفائس ممّا لم يكن له وجود في خزانة أخرى ولشغفه وعنايته بها وضع لها فهرساً سمّاه: (الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزّانة)، قال: «إنّنا لما صنّفنا كتاب الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزّانة، ما كان ذلك يكفي في معرفته أسرار الكتب وجواهرها وجعلنا هذا تمامًا ومرآة يرى عين ناظرها كثير من تلك الفوائد ويتّصّف بها على شرف الموائد»^(٢)، ولا يخفى أنّ المكتبات وخزائن الكتب هي روضات أهل العلم وجنات أفكارهم ومحض استمتاعاتهم، فقد أصبحت محلاً لتحقيق المسائل والاطلاع على الدلائل وهذه المكتبات وخزائن الكتب لها السهم الأوفر، والقدح المعلّى في نشاط الحركة العلميّة والفكريّة في مدينة الحلّة، وقد انمازت مؤلّفاته بالدقة والأمانة العلميّة، وشغلت كتب الأدعية والوصايا مساحة واسعة في تراثه الفكريّ، ويظهر في ضوء وصاياه لولده أنّه حدّره من الاشتغال ببعض العلوم، ومن اللافت أنّ ابن طاووس الحلّيّ صرّح بأنّ كتبه في الأدعية لم يسبق إليها، قال: «وإذا أتمّ الله ﷻ هذه الكتب على ما أرجوه من فضله رجوت بأنّ كلّ كتاب منها لم يسبقني فيما أعلم أحدٌ إلى مثله، ويكون من ضرورات من يريد قبول العبادات والاستعداد للمعاد قبل الممات»^(٣)، وسنذكر أهمّ المصنّفات التي نحسب أنّ الخطاب الأخلاقيّ قد انتظم فيها مرّة، وأفادت منها دراستنا مرّة أخرى، مرتين إيّاها بحسب الأحرف الهجائية على النحو الآتي:

- الإقبال بالأعمال الحسنة.

- التحصين في أسرار ما زاد على كتاب اليقين.

(١) ينظر: الذريعة في تصانيف الشيعة: ٥٨/١.

(٢) سعد السعود: ٤٢١.

(٣) فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة: ٤٦.

الخطب الإخلاقيَّة والتَّعالِميَّة

- جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع.
 - الدروع الواقية من الأخطار فيما يعمل كلُّ شهرٍ على التكرار.
 - سعد السعود للنفوس.
 - فتح الأبواب بين ذوي الألباب ورب الأرباب.
 - فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة.
 - كشف المحجَّة لثمره المهجَّة.
 - محاسبة الملائكة الكرام آخر كلِّ يومٍ من الذنوب والآثام أو (محاسبة النفس).
 - مهج الدعوات ومنهج العناية.
 - اليقين باختصاص مولانا عليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام بإمرة المؤمنين.
- ومن الجدير بالذكر أنَّ ابن طاووس قد صرَّح بوفرة نتاجه العلميِّ، وزخارة منجزه الأدبيِّ قال: «وجمعتُ وصنَّفتُ مختصرات كثيرة، ما هي الآن على خاطري وأنشأت من المكاتبات والرسائل والخطب ما لو جمعته أو جمعه غيري كان عدَّة مجلدات ومذاكرات في المجالس في جواب المسائل بجوابات وإشارات وبمواعظ شافيات ما لو صنَّفها سامعوها كانت ما يعلمه الله جلَّ جلاله من مجلدات»^(١).

وفاته ومدفنه

توفي السيِّد رضي الدين علي ابن طاووس في بغداد بكرة الخامس من ذي القعدة عام (٦٦٤هـ)^(٢). وثمَّة خلاف في مكان دفنه وتربته، فالشيخ البحراني يذهب إلى أنَّ

(١) الإجازات المطبوع في بحار الأنوار: ١٠٧ / ٤٢.

(٢) بحار الأنوار: ١٠٧ / ٤٤.

التمهيد

قبره غير معروف الآن^(١)، وذهب المحدث النوري إلى أنه دُفن في الحلة، يقول: «في الحلة في خارج البلدة عالية في بستان تنسب إليه، ويزار قبره ويتبرك فيها، ولا يخفى بعده لو كان الوفاة ببغداد، والله العالم»^(٢)، ويرى السيّد حسن الصدر أن: «الذي يعرف بالحلة بقبر السيّد علي بن طاووس في البستان هو قبر ابنه السيّد علي بن السيّد علي المذكور فإنه يشترك معه في الاسم واللقب»^(٣)، والذي تسالم عليه أهل الحلة منذ القدم، وحتى الآن هو أن قبر السيّد رضي الدين علي بن طاووس في الحلة ويقع في جنوبها على الشارع المؤدي بين باب المشهد وغرفة التجارة، وهم يتبركون بزيارته.

والذي نذهب إليه، ونرجّحه ما ذكره ابن طاووس بقلمه الشريف من اختياره لقبره إلى جوار مرقد أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنه كان عارفاً وورعاً وعالمًا أن الدفن قرب أمير المؤمنين عليه السلام من دواعي نيل الشفاعة، فضلاً عن إحاطته بالروايات المستفيضة في فضل الدفن في الغري (وادي السلام)، وقد صرّح بذلك في وصيته إذ بين فيها أنه يريد أن يُدفن قرب قبر أمير المؤمنين عليه السلام وتحت قدمي والديه، قال: «وقد كنت مضيتُ بنفسِي وأشرتُ إلى مَنْ حفر لي قبراً، كما اخترته في جوار جدي ومولاي علي بن أبي طالب عليه السلام متضيّقاً ومستجيراً ووافداً وسائلاً وآملاً ومتوسلاً بكلّ ما توسّل به أحد من الخلائق إليه، وجعلته تحت قدمي والديّ رضوان الله عليه عليهما، لأنّي وجدتُ الله عليه يأمرني بخفض الجناح لهما ويوصيني بالإحسان فأردت أن يكون رأسي مهما بقيت في القبور تحت قدميهما^(٤). وقال المؤرخ ابن الفوطي في كتاب (الحوادث الجامعة) - الذي يعدّ أفضل من أرخ حوادث القرن السابع الهجري؛ بسبب ضبطه ودقته فضلاً عن معاصرته

(١) لؤلؤة البحرين: ٢٤.

(٢) خاتمة المستدرک: ٢ / ٤٥٩.

(٣) ينظر: نزّهة أهل الحرمين في عمارة المشهدين: ١٠٧.

(٤) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٧٣، ٧٤.

الخطب الأخلاقية والوعائى التدرؤلىة

له - «وفىها- أى سنة (٦٦٤هـ)- توفى السىء النقىب الطاهر رضى اللىن على ابن طاووس ومحل إلى مشهء جءه على بن أبى طالب، قىل: كان عمره نحو ثلاث وسبعىن سنة» ^(١)، تعمءه الله عآله برحمته الواسعة، وحرشه مع الأنبىاء والمرسلىن؛ والأئمة المعصومىن عآله.

ثانىاً: الخطاب الأخلاقى (تعرفىاً) بوصفه مركباً وصفياً

الخطاب فى اللغة:

(خَطَبَ) الخَاءُ وَالطَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْكَلَامُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، يُقَالُ خَاطَبُهُ يُخَاطَبُهُ خِطَابًا، وَالْخُطْبَةُ مِنْ ذَلِكَ... وَالْخُطْبَةُ: الْكَلَامُ الْمُخْطُوبُ بِهِ، وَيُقَالُ اخْتَطَبَ الْقَوْمُ فَلَانًا، إِذَا دَعَوْهُ إِلَى تَزْوِجِ صَاحِبَتِهِمْ، وَالْخُطْبُ: الْأَمْرُ يَقَعُ؛ وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ التَّخَاطُبِ وَالْمُرَاجَعَةِ ^(٢)، خطب فلان: أحسن الخطاب والخطاب هو المواجهة بالكلام ^(٣)، والخطاب مراجعة الكلام، وخاطبه بالكلام مخاطبةً وخطاباً وهما يتخاطبان ^(٤)؛ وقد وردت هذه المادة (خَطَبَ) وتصريفاتها فى القرآن الكرىم بصىغ متعددة اسماً وفعلاً، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، ولنا وقفة على قوله تعالى فى شأن داوود عآله، ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾، فالمراد من فصل الخطاب المقدرة الخطابية لنبي

(١) الحواء الجامعة: ٣٥٦.

(٢) معجم مقابىس اللغة: ١٩٨ / ٢.

(٣) أساس البلاغة: ١ / ١٦٧.

(٤) لسان العرب (مادة خَطَبَ): ١ / ٣٦١.

التمهيد

الله داود ﷺ في ضوء ملكته الكلامية القائمة على فتح الكلام وتشقيقه، واقناع المخاطبين وإفحام الخصوم وقهرهم^(١).

الخطاب في الاصطلاح:

تنوّعت تعريفات مفهوم الخطاب عند البيانين العرب، وكان لتباين الفكر والتفكير في المنظومات العقلية لمنتجي الخطاب الأثر البالغ في تلوّن نظرهم لمفهوم الخطاب، ويظهر أنّ التعريف في الاصطلاح لا يخرج عن المعنى اللغوي في عملية الإبلاغ والتوصيل، فضلاً عن تلمس الإقناع والإمتاع، فهو في أصل اللغة توجيه الكلام نحو المخاطب (بفتح الطاء)، ثم نقل الكلام الموجه نحوه للإفهام اصطلاحاً، وسنحاول ذكر أهم تعريفات الخطاب من أجل الوصول إلى مقاربة تأصيلية له، فقد عرّف الآمدي الخطاب بأنّه: «اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ»^(٢)، نافياً أن يكون الخطاب: «هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يَفْهَمُ الْمُسْتَمِعُ مِنْهُ شَيْئاً»^(٣)، وعرّفه بدر الدين الزركشي بأنّه: «الكلام المقصود منه إفهام من هو مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ؛ وَعَرَفَهُ قَوْمٌ بِأَنَّهُ مَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِفْهَامُ أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَنْ قَصَدَ إِفْهَامَهُ مُتَهَيِّئاً أَمْ لَا، قِيلَ: وَالْأَوَّلَى أَنْ يُفَسَّرَ بِمَدْلُولٍ مَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِفْهَامُ»^(٤)، ونلاحظ أنّ في تعريف الآمدي والزركشي إشارة إلى أركان الخطاب الثلاثة: (المخاطب، والمخاطب، والخطاب)، زد على ذلك وجود عملية تواصلية وإفهامية بين الطرفين، وهذا الفهم لأركان الخطاب ووظيفته الإبداعية الإبداعية فطن لها اللغويون المحدثون في ظلّ تعريفاتهم مستثمري أفكار القدماء، فقالوا بأنّ الخطاب هو: «كلّ تلفظ يفترض مُتَكَلِّماً ومُستمعاً وعند الأوّل هدف التأثير على

(١) ينظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: ٢٦ / ٣٧٦، وينظر: فهم الخطاب القرآني بين الإمامية والأشاعرة: ٢٢.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام: ٩٥ / ١.

(٣) م. ٩٥ / ١: ن.

(٤) البحر المحيط في أصول الفقه: ٩٨ / ١.

الخطب الإخلاقي وأبعاده التكوينية

الثاني بطريقة ما»^(١) وحُدِّد الخطاب - في أعمّ مفاهيمه - بأنه: كل قول يفترض مُتكلِّمًا وسامعًا مع توافر مقصد التأثير بوجه من الوجوه في هذا السامع^(٢)، وقالوا أيضًا هو: «مجموع خصوصي لتعابير تتحدّد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الأيديولوجي»^(٣). ومفردة (خطاب) لاتقف عند حدود الملفوظ من الكلام، وإنّما تشمل حتّى النص المكتوب فالخطاب «كلمة تستخدم على كلام متصل اتصالًا يمكنه من أن ينقل رسالة كلامية من المتكلم أو الكاتب، وليس كل خطاب نصًّا، وإن كان كل نص - بالضرورة - خطابًا»^(٤).

يقول طه عبد الرحمن: «الواقع أنّ مفهوم (الخطاب) يدلُّ على أمرٍ زائدٍ على ما يدلُّ عليه مفهوم (القول)، إذ لا يعني مجرد النطق بالفاظ معيّنة، وإنّما يعني توجيه هذه الألفاظ إلى الآخر، بوصفه قادرًا على أن يفهمها، ويتحمل مسؤوليتها والفهم منها، ولهذا فإنّ كيفية توصيل هذه الألفاظ إلى الآخرين، أو قلّ بالاصطلاح تبليغها تتطلب من المتكلم عناية تساوي بلّ تجاوز عنايته بالأحكام التي تتضمنها هذه الألفاظ واختلال هذه الكيفية يلزم منه اختلال الأحكام، في حين قد يختل الحكم المبلّغ، ولا تحتلّ كيفية تبليغه»^(٥).

الأخلاق في اللغة:

«خَلَقَ الْخَاءُ وَاللَّامُ وَالْقَافُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا تَقْدِيرُ الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ مَلَأَسَةُ الشَّيْءِ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَقَوْلُهُمْ: خَلَقْتُ الْأَدِيمَ لِلْسَّقَاءِ، إِذَا قَدَرْتَهُ... وَمِنْ الْبَابِ رَجُلٌ مُحْتَلَقٌ: تَامَ

(١) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة: ٦٥.

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن في خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٣٥.

(٣) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ١٤٢.

(٤) الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص: ٢٤.

(٥) الخطاب الإسلامي إلى أين؟ حوارات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبد الرحمن): ٢٥.

التمهيد

الْخُلُقِ. وَالْخُلُقُ: خُلُقُ الْكَذِبِ، وَهُوَ اخْتِلَافُهُ وَاخْتِرَاعُهُ وَتَقْدِيرُهُ فِي النَّفْسِ، وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي فَصَخْرَةُ خَلْقَاءَ، أَيْ مَلَسَاءَ... وَالْخُلُوقُ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ الْخِلَاقُ أَيْضًا، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا خُلِقَ مَلَسَ، وَيُقَالُ تَوَبُّ خَلْقٍ وَمَلَحَفَهُ خَلَقَ، يَسْتَوِي فِيهِ الْمَذْكَرُ وَالْمُؤَنَّثُ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْسَّهْمِ الْمُصْلَحِ مُخْلَقٌ؛ لِأَنَّهُ يَصِيرُ أَمْلَسَ»^(١).

والخُلُقُ والْخُلُقُ: «السَّجِيَّةُ. يُقَالُ: خَالِصِ الْمُؤْمِنَ وَخَالِقِ الْفَاجِرَ... الْخُلُقُ، بِضَمِّ اللَّامِ وَسُكُونِهَا: وَهُوَ الدِّينَ وَالطَّبْعَ وَالسَّجِيَّةَ، وَحَقِيقَتُهُ أَنَّهُ لِصُورَةِ الْإِنْسَانِ الْبَاطِنَةِ وَهِيَ نَفْسُهُ وَأَوْصَافُهَا وَمَعَانِيهَا الْمُخْتَصَّةُ بِهَا بِمَنْزِلَةِ الْخُلُقِ لِصُورَتِهِ الظَّاهِرَةِ وَأَوْصَافُهَا وَمَعَانِيهَا، وَلَهُمَا أَوْصَافٌ حَسَنَةٌ وَقَبِيحَةٌ، وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ»^(٢).

والذي يبدو في ضوء هذين النصين أَنَّ هناك فكرتين يتحدّد بهما معنى (الْخُلُقِ) وجمعه أخلاق، الأولى: الرسوخ بمعنى الثبات والدوام، والثانية: التلقائية، وهي الحياة الراسخة من غير تكلفٍ، والملاحظ أَنَّ (الخلق) بهذا المعنى غير السلوك، فهو ملكة أو هيئة في النفس تصدر عنها الأفعال، فهي منبع السلوك^(٣).

ويبدو أَنَّ العَلَامَةَ المصطفويّ قد ترسّم التحقيق المراد في موارد استعمال مادة (خلق)، فالأصل الواحد في هذه المادة: هو إيجاد شيء على كَيْفِيَّةٍ مخصوصة، وبها أوجبت إرادته، واقتضته الحكمة «والفرق بين الخلق والإيجاد والإحداث والإبداع، والتقدير، والجعل، والاختراع، والتكوين، أَنَّ النظر في الإيجاد إلى جهة إبداع الوجود فقط، وفي الإحداث إلى الإيجاد من جهة الحدوث وكونه حادثًا، وفي الإبداع إلى الإيجاد على كَيْفِيَّةٍ لم يسبقها غيرها، وفي الخلق إلى كون الإيجاد إلى كَيْفِيَّةٍ مخصوصة، وفي الاختراع إلى جهة الاشتقاق بسهولة، وفي التقدير إلى جهة التحديد وتعيين الحدود فقط، وفي التكوين

(١) مقاييس اللغة (مادة خَلَقَ): ٢ / ٢١٣.

(٢) لسان العرب (مادة خلق): ١٠ / ٨٦.

(٣) ينظر: العقل الأخلاقي العربي: ٣٣.

إلى الإيجاد ومن جهة حالة الكون والبقاء إجمالاً، وفي الجعل إلى جهة إحداث تعلق وارتباط، فهذه الخصوصية ملحوظة في موارد استعمال المادة، وليس مفهوم التقدير أو الملاسة أو البلى أو التهامية أو الطبيعية أو النصيب أو الاستواء من حيث هو من مصاديق الأصل الواحد، بل بلحاظ تحقق الإيجاد على خصوصية معينة^(١).

ويبدو أن أبا علي مسكويه (ت ٤٢١هـ) قد أشار من قبل إلى فضل صناعة الأخلاق قال: «فأما أن هذه الصناعة هي أفضل الصناعات كلها، أعني صناعة الأخلاق التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان بما هو إنسان (...) لما كان للجوهر الإنساني فعل خاص لا يشاركه فيه شيء من موجودات العالم (...) وكان الإنسان أشرف موجودات عالمنا ثم لم تصدر أفعاله عنه بحسب جوهره (...) وجب أن تكون الصناعة التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان - حتى تصدر عنه أفعاله - كلها تامة كاملة بحسب جوهره ورفعته عن رتبة الأخس التي يستحق بها المقت من الله ﷻ والحصول في العذاب الأليم، أشرف الصناعات كلها وأكرمها»^(٢).

ويرى د. محمد عابد الجابري في ضوء مناقشته النافعة للنصوص اللغوية المتصلة بتصرفات مادة (خ ل ق) أن للفظ (الخلق) أربعة استعمالات: القوة الغريزة والهيئة الموجودة في النفس، والحالة المكتسبة التي يصير بها الإنسان خليقاً أن يفعل شيئاً دون شيء، وأن يستعمل اسماً للفعل الصادر عن تلك الحالة، وقد يستعمل اسماً للهيئة، والفعل معاً، مثل: العفة والعدالة والشجاعة^(٣).

واعتنى القرآن الكريم بمكارم الأخلاق وذم مساوئها في آياته المتكررة وسوره المتتالية، إذ بلغت مجموع الآيات التي تحدثت عن

(١) التحقيق في كلمات القرآن: ٣/ ١٢٨.

(٢) تهذيب الأخلاق: ٣٦ - ٣٧.

(٣) ينظر: العقل الأخلاقي العربي: ٣٣.

التمهيد

الأخلاق صراحة أو إشارة أمراً أو نهياً ما يقرب من ربع العدد الإجمالي لآيات القرآن الكريم^(١).

ومن الدلالات التي لها ميسر بدراستنا، دلالة التحلي والالتصاق بالصفات الحسنة، والفضائل الحميدة، وتبلغ الكمال والتمام في الخلق العظيم، وهو يتجسد وبترشح للنبي محمد ﷺ بحكم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وهذا ما استشعره الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) قال: «الخلق: المرور في الفعل على عادة، فالخلق الكريم: الصبر على الحق وسعة البذل، وتدبير الأمور على مقتضى العقل وفي ذلك الرفق والأناة والحلم والمدارة»^(٢). قال الفخر الرازي (ت ٦٠٤هـ) «فكأنه أمرٌ بمجموع ما كان متفرقاً فيهم، ولما كان ذلك درجة عالية لم تيسر لأحد من الأنبياء قبله، لا جرماً وصف الله خلقه بأنه عظيم وفيه دققة أخرى، وهي قوله: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وكلمة (على) للاستعلاء فدلّ اللفظ على أنه مستعمل على هذه الأخلاق، ومستول عليها وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد، وكالأمير بالنسبة إلى المأمور»^(٣)، وقد تكرر هذا الأسلوب الاستعلائي في كلامه سبحانه في مقامات مختلفة، قال تعالى في صفة النبي ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ أَلْحَقٍ الْمِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

ويرى الشيرازي (الملا صدرا) أن شرط الفهم هو التخلق بالقرآن، وأن القرآن بحقيقته هو خلق النبي ﷺ، قال: «والقرآن بحسب حقيقته الأصلية خلق النبي ﷺ،

(١) ينظر: مقدمة في علم الأخلاق: ٥.

(٢) التبيان في تفسير القرآن: ٧٥ / ١٠.

(٣) التفسير الكبير مفاتيح الغيب: ٢٩ / ٧١.

الخط الاخلاقي وبعائده التداولية

وكل ما يفهمه المفسرون، ويصل إليه إدراكهم ظل من ظلاله القريبة والبعيدة، وشبح من أشباحه العالية والدانية»^(١).

الأخلاق في الاصطلاح:

الحُلُقُ والخلُق هو: «ملكة نفسانية تقتدر النفس معها على صدور الأفعال عنها بسهولة من غير تقدم رؤية»^(٢)، والخلُق: «ملكة في النفس تحصل من تكرّر الأفعال الصادرة من المرء على وجه يبلغ درجة يحصل منه الفعل بسهولة، كالكرم فإنه لا يكون خلُقًا للإنسان إلا بعد أن يتكرر منه فعل العطاء بغير بدل حتى يحصل منه الفعل بسهولة من غير تكلف»^(٣)، والأخلاق عند علماء المسلمين وغيرهم من الفلاسفة القدماء: ملكة تصدر بها الأفعال عن النفس تلقائيًا، من غير تفكير أو رؤية أو تكلف، وكل ما يصدر عنها عن النفس من سلوك ليس مطبوعًا فيها كغضب الحليم وكرم البخيل لا يعدّ خلقًا؛ والخلق ينقسم على فضائل، وعلى رذائل، وذلك أنّ النفس الإنسانية من حيث تعلّقها بالبدن وتديرها إياه تنطوي في نظر الحكماء على قوى ثلاث:

- القوة التي تعقل بها ما تحتاج اليه في تديره، وهي القوة العقلية المميزة.
- القوة التي تجذب بها ما ينفع البدن وما يلائمه من المآكل والمشارب، وتسمى القوة الشهوانية.
- القوة التي تدفع بها ما يضر البدن ويؤلمه فتحمله على المدافعة والإقدام وتسمى القوة

(١) تفسير القرآن الكريم: ١٧٨ / ٧.

(٢) ينظر: نهاية المرام في علم الكلام: ٢ / ٢٧٣، وينظر: جامع السعادات: ١ / ٢٦، وتهذيب الأخلاق: ٢٥، وإحياء علوم الدين: ٣ / ٥٣.

(٣) المنطق: ٣٤٤.

التمهيد

الغضبية؛ ولكل واحدٍ من هذه القوى وسط وطرفان، والفضيلة الخلقية هي التوسط بين الإفراط والتفريط^(١).

ولا يخفى التقارب الدلالي بين المعنى اللغوي للخلق، والمفهوم الاصطلاحي إذ كلاهما يلتقيان عند نقطة الإيجاد والإبداع، والاختراع التي تمثل ملكات نفسانية تمكن النفس من صدور الأفعال، وقوى تدفعها إلى تعجيل الأفعال أيضًا.

وأما علم الأخلاق، فهو: «هو روح الإنسان ونفسه الناطقة، من حيث قابليتها على الاتصاف بالصفات والخصائص الحسنة أو السيئة»^(٢).

ثالثاً: التداولية مفهوماً

الدال والواو واللام: يدلُّ على تحول شيء من مكان إلى مكان، قال أهل اللغة: اندال القوم، إذا تحولوا من مكان إلى مكان. ومن هذا الباب تداول القوم الشيء بينهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض، والدولة والدولة لغتان. ويقال بل الدولة في المال والدولة في الحرب، وإنما سميّا بذلك من قياس الباب؛ لأنه أمرٌ يتداولونه، فيتحول من هذا إلى ذلك، ومن ذلك إلى هذا^(٣).

وتداولنا الأمر: أخذناه بالدول، وقالوا: دواليك؛ أي مداولةً على الأمر، ودالت الأيام؛ أي دارت، والله يداولها بين الناس. وتداولته الأيدي؛ أي أخذته هذه مرّةً، وهذه مرّةً، والماشي يداول بين قدميه؛ أي يراوح بينهما^(٤).

(١) ينظر: كشف اصطلاحات الفنون: ١ / ٧٦٢ - ٧٦٣.

(٢) ينظر: جامع السعادات: ١ / ٦٠.

(٣) ينظر مقاييس اللغة (مادة دول): ٢ / ٣١٤.

(٤) ينظر لسان العرب (مادة دول): ١١ / ٢٥٢.

التداولية في الاصطلاح:

أقدم التعريفات التي قُدمت للتداولية هي لشارلز موريس عام ١٩٣٨م يرى فيه أنَّ التداولية فرعٌ من فروع السيميائية، إذ تعنى بدراسة علاقة العلامات بمفسريها، وهذا التحديد يوسّع من مجال التداولية لتشمل العلامات اللغوية وغير اللغوية^(١)؛ غير أنَّ التداولية لم تصبح مجالاً يعتدُّ به في الدرس اللغوي إلا في العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة هم: (أوستن، وسيرل، وكرايس)^(٢).

وهي فرعٌ لسانيٌّ يعني بدراسة التّواصل بين المتكلّم والمتلقّي، أو بمعنى آخر يُعنى بدراسة الرّموز التي يستعملها المتكلّم في عملية التّواصل، والعوامل المؤثّرة في اختيار رموز معيّنة دون أخرى، والعلاقة بين الكلام وسياق حاله، وأثر العلاقة بين المتكلّم والمخاطب في الكلام^(٣)؛ والتداولية تعني بالرباط الأساس للتواصل في اللغة الطبيعية، كما تعنى بالمتكلّم والسامع وبالسّياق اللغويّ، والسّياق الخارج لغويّ، وجاهزيّة المساهمة في الفعل التّواصلي^(٤) وهي تقارب اللغة بوصفها ظاهرة خطائية، وتواصلية، واجتماعية في الوقت نفسه، وتنضاف إلى علم الدّلالة؛ لتعيد المنزلة للمظاهر التي لا تهتمّ بها الدّلالة، أي وصف الوضعيّة التداوليّة وشروط نجاح التّواصل^(٥) ومصطلح (التداول = التداولية) جاء على صيغة (تفاعل = تفاعلية) وهذا البناء يردّ للدّلالة على المشاركة^(٦)، أي: المشاركة بين المتكلّم والمتلقّي.

(١) ينظر المقاربة التداولية: ٨٠.

(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٩٠، والمقاربة التداولية: ٨٠.

(٣) ينظر: معجم المصطلحات اللغوية: ٣٩٠.

(٤) ينظر: التداولية اليوم: ٢٩.

(٥) ينظر: التخييل وبناء الأنساق التداولية (نحو مقاربة تداولية): ٢٤.

(٦) ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ٤ / ٢٦٤.

التمهيد

فالتداولية فرعٌ من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم، أو هو دراسة معنى المتكلم؛ فمثلاً حين يقول شخص: أنا عطشان فقد يعني أريد كوب ماء وليس من اللزوم أن يكون إخباراً بأنه عطشان؛ فالتكلم كثيراً ما يعني أكثر مما تقوله كلماته؛ فالتداولية تبحث في كيفية اكتشاف السامع لمقاصد المتكلم^(١).

إنَّ التأمل في تعاريف التداولية التي سُقنا بعضاً منها وبمِرْقَاب الفحص والتدبر نحسب أن: دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ هو تعريفٌ وافٍ كافٍ؛ لأنَّ المعنى ليس شيئاً متأسلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالتكلم وحده ولا السامع وحده، وإنما يتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياقٍ محدّدٍ.

التداولية في القرآن الكريم:

وردت التداولية بمعناها اللغوي في عددٍ من الآيات القرآنية الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، أي: إلقاء الأموال إلى الحكام، ويقال: أدلى فلان بحجته إذا أقامها، وهو من قولهم: أدليت الدلو في البئر إذا أرسلتها، ودلوها إذا أخرجتها، فمعنى قولهم أدلى بحجته: أرسلها، وأتى بها على صحة، وفي تشبيه الخصومة بإرسال الدلو في البئر وجهان أحدهما: إنَّه تعلّق بسبب الحكم، كتعلّق الدلو بالسبب الذي هو الحبل الثاني: إنَّه يمضي فيه من غير تثبيت، كمضي الدلو في الإرسال من غير تثبيت، وقوله تعالى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا فَحْشٌ ذُرِّيٌّ وَمَنْ هُنَّ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وهو أن لا يكون المال دولة بين الرؤساء وحدهم أي يتداولونه في ما بينهم دون الفقراء^(٢)، وقوله تعالى:

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٤.

(٢) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١ / ٣٣٣.

الخطاب الأخلاقي والبياني التداولية

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذَوُّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، (نُذَوُّهَا)، أي: نصر فيها بين الناس، ندبل تارة لهؤلاء، وتارة لهؤلاء^(١).

إنَّ المتأمل في الآيات المباركات يلمس منها أنَّ (التداول) يأتي بمعنى التحول وعدم الثبوت، فهي لا تختلف كثيرًا عن المعنى اللغوي؛ إذ يفهم منها انتقال الملك، والتعاقب والتناوب على أمرٍ ما، إذ تنتقل من المتكلم إلى السامع في سياقٍ ما، يمكن أن يفهم أو يؤول إلى معاني عدة، فالمعنى غير ثابتٍ ومتحولٍ وغير مستقرٍّ بين باثته (منتجه) ومتلقيه (مستقبله).

والحقُّ أنَّ الإفادة من المنهج التداولي الحديث في تحليل أنواع الخطاب المختلفة تقود إلى الوعي بالذات في ضوء فهم أمثل للتراث، ومن هنا فإنَّ الحديث عن علاقة التداوليات بتحليل الخطاب يتطلب الإطالة على أصول التداولية في الفكر اللساني الحديث^(٢).

لقد ارتبط الفكر اللساني الحديث والمعاصر بهذا التوجُّه الذي اشتهر في الثقافة المعاصرة بـ (البراغماتية) في ضوء ثلثة من الأعمال العلمية تصدرتها دراسات الفيلسوف المغربي (طه عبد الرحمن) ثم تعددت الرؤى من شارح للنظريات التداولية، ومن داعٍ إلى استثمارها في دراسة اللغة العربية وما ينجز بوساطتها من خطابات تعبر عن الفكر الحضاري العام، ومن ساعٍ إلى تأصيل التداول اللغوي في منظومتنا التراثية بلحاظ أسبقية المنظرين العرب إلى إدراك أغراض الخطاب، والوظيفة التداولية للغة في الحياة العامة^(٣).

(١) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١ / ٣٣٣.

(٢) ينظر: الخطاب الأدبي ورهانات التأويل (قراءات نصية تداولية حجاجية): ٦٧.

(٣) ينظر: م. ن. ٦٧.

التمهيد

ويرى د. مُحَمَّد عابد الجابري أنّ الخطاب الدينيّ: هو خطابٌ بيانيّ هدفه جعل المعنى مفهومًا لدى مطلق النّاس بأستعمال الآليّات اللّغويّة البيانيّة المختلفة، فإنّ تكرار ورود عبارتين مثل: حسن الخلق، وسوء الخلق معطوفًا عليها ما يدخل عادة في مفهومها كالورع بالنّسبة للأولى، والبخل بالنّسبة للثانية دليل على أنّ المجال التّداوليّ العربيّ السّابق على ظهور المصطلح العلميّ كان يميز بين الخلق وبين خصال خلقية معيّنة مثل الورع، والبخل.

إنّ الإفادة من المنهج التّداوليّ في سير الخطاب والإحاطة بأغراضه، فضلًا عن ذلك الكشف عن استعمالات الخطاب باستشراف تداوليّته في البيئة التي انتجتّه، حفز الباحثين على إنجاز هذه الدّراسة الواصفة التّحليليّة التي لا تخلو من أنماط تعليمية حديثة، نخالّ- بسبب قلة البحوث المنهجية في العربية بخصوص التداولية مقارنة بالجم الغفير من الدراسات الغربيّة - أنّنا معنيّون بالسّير بخطى حثيثة من أجل مقارنة الدّرس اللسانيّ التّداوليّ الحديث^(١).

(١) ينظر: العقل الأخلاقيّ العربيّ: ٣٤.



الفصل الأوّل

جذور الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس
الحليّ

الفصل الأول

المبحث الأول

القرآن في الخطاب الأخلاقي لابن طاووس

لا يخفى أن الخطاب القرآني خطابٌ فصلٌ يسمو على الخطابات جميعها، فهو الناطق الذي لا يعيا لسانه، والناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلّا قام عنه بزيادةٍ أو نقصان، زيادةٍ في هدى، أو نقصانٍ من عمى^(١).

وأجمل بوصف الإمام زين العابدين القرآن الكريم في صحيفته السجادية في دعائه عند ختم القرآن بقوله: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُورًا، وجعلته مهيمناً على كلِّ كتاب أنزلته، وفَضَّلْتَهُ على كلِّ حديثٍ فَصَّصْتَهُ، وفرقاً فَرَقْتَ به بين حلالِكَ وحَرَامِكَ وقرآنًا أَعْرَبْتَ به عن شرائع أحكامك، وكتاباً فَصَّلْتَهُ لعبادك تَفْصِيلاً، ووحياً أَنْزَلْتَهُ على نبيك مُحَمَّدٍ صَلَوَاتِكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنْزِيلاً»^(٢)، وقد اعترف أئمة البيان من مشركي مكة إبان نزول الوحي بين ظهرائهم بسمو هذا الخطاب وهيمته.

تأمل وصف الوليد بن المغيرة القرآن: «والله لقد سَمِعْتُ من مُحَمَّدٍ كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق»^(٣)، إنَّ هذه السلطة البيانية العالية للنص القرآني رفعةً وظهوراً قد

(١) ينظر: نهج البلاغة: ٣٤٥.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٣٩، ١٤٠.

(٣) سيرة ابن هشام: ١ / ٢٧٠.

الخطاب الأخلاقي والبياني في القرآن الكريم

أسقطت سلطة العرب البيانية، فقد أعجز القرآن الكريم العرب بمزايا ظهرت لهم في نظمه، فتأملوا هذه النظم في كل سورة وآية، فلم يجدوا فيه كلمة ينوبها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى، أو أخلق، بل وجدوا اتساقاً ونسقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور^(١).

إنّ التأكيد على المنظومة الأخلاقية القرآنية العظيمة والمتحدة الأجزاء تؤدي إلى التقدم والانفتاح، والتطور الشامل والمتعدد الأبعاد، إنّ مثل هذه الجهود المبذولة بحثاً عن المفاهيم القرآنية الواسعة تكشف الميادين والحقول الخصبة لتحرك إنتاج العلم الديني وفاعليته، إذ يصبح الدين والعلم الديني على إثرها منبعاً زلالاً جاريًا متواصلًا متجددًا باستمرار^(٢). وعمد البيانون بمختلف مرجعياتهم إلى تغلغل النص القرآني في بواطن نتاجاتهم الإبداعية، والفكرية ليكون مرجعية تعين المتلقي على تفهم خلفية النص المرسل، كما تعين المرسل على نسج نصّه بصور مستجيبة عند القارئ المسلم^(٣).

نخلص من هذا إلى أنّ النص القرآني ذو أثر مستمرّ وفاعل في النصوص والخطابات والمقولات، والنظريات المتداولة منذ نزوله حتّى زمننا الحاضر، فهو يُشكل حضوراً دلالياً، ومركزاً فاعلاً في مدوناتنا التداولية.

ومهما يكن من أمر فقد كان النص القرآني هو المصدر الأوّل الذي سدّد حُطى السيّد ابن طاووس وحدّد سيرته الثقافية، فقد اتصل بالقرآن الكريم منذ صغره، وانكب على حفظه، وتدبّره وفهم دلالاته ومعانيه، لذا فقد أنكر على من قدّم على كلام الله سبحانه كلاماً آخر ولاسيما ما يتعلق بأصول العربية والاستشهاد لها، ونرى أنّ ابن طاووس - بحسب ما وقفنا عليه من آراء القدماء - هو أوّل من تنبه إلى أنّ القرآن

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٨.

(٢) ينظر: فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في إنتاج المعرفة الدينية: ٥٧.

(٣) ينظر: تأصيل النص: ١٦٨.

الفصل الأول

الكريم والسنة المحمديّة هما الحكم على قواعد النحو والخطابات الكلاميّة، ولا يمكن جعلها حكماً على الكتاب والسنة، وهي التفاتة تنمّ على عقليته الجبّارة، وفهمه الثاقب في فهم العملية اللغويّة وتصوّرها من جهة، وإحاطته بالأسلوب القرآني والأسلوب الحديثي من جهة أخرى، قال: «إنّه قد صار ما في أيدي كثير من الذين يدعون العلم، علم اللغة العربية أصلاً وعبارةً عندهم لما في القرآن والسنة المحمديّة ﷺ وهو غلط من ذوي الألباب، فلقد كان الأليق بالصواب أن يجعلوا كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ وخاصته ومتقدمي الصحابة من ذوي الطباع العربية المشهور بفصاحته أصلاً وعبارةً لما يرد عليهم من اللغات، ويبطلون ما يخالفه أو يجعلونه وجهاً آخر على وجه التأويلات، وأمّا ما قد بلغ الأمر إليه أن كلام بدويّ جاهل بما ينطق به وشعره الذي لا حكم له هو الحجة وبه تُعرف المحجة؛ فشيء عجيب لا يرضى به كامل لبّيب»^(١) ومن هنا فإننا يجب أن نُؤثر الاستعمال القرآني والخطاب الإلهي بوصفه نظماً كلامياً عالياً على الاستعمالات كافة؛ لأننا كما يقول الدكتور صبحي الصالح: «نجعل القرآن حكماً على قواعد اللغة والنحو، ولا نجعل تلك القواعد حكماً على القرآن، فما استمد النحاة قواعدهم إلّا من القرآن بالدرجة الأولى»^(٢)، وهذا الفهم لكلام الله ﷻ انعكس على خطابه الأخلاقي من جهة وعلى سلوكه وتصرفاته من جهة أخرى.

ومن ذلك حثّه على التزام التأدب مع الله، والابتعاد عن التأويل البعيد في دأب القرآن ونظمه، وفي تعليقه واستشهاده على رأي الفراء القائل بأنّ (أو) بمعنى بل في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، يقول ابن طاووس: «هذا تأويل كأنه شاك في صحة التفسير وفي صحته في العربية فهلاً ذكر له وجهاً أو كان

(١) كشف المحجة لثمرّة المهجة: ١٣٤.

(٢) ينظر: مباحث في علوم القرآن: ١٦٣.

الخطبة الاخلاقيّة وبعائده التذكّرات

ترك الآية بالكلية، ولا يوهم بهذا الشك الطعن على المفسرين وإنّها مخالفة للعربية؛ وهلا قال كما قال جديّ أبو جعفر الطوسي في التأدب مع الله في تأويل هذه الآية في معنى أو ثلاثة أقوال: أن يكون بمعنى الواو وتقديره إلى مائة ألف وزيادة إليهم، والثاني: أن يكون معنى بل على ما قال ابن عباس، والثالث: أن يكون بمعنى الإيهام على المخاطبين، فإنّه قال أرسلناه إلى القريتين... فهذه وجوه تصون عن الذي ذكره الفراء وإن كان يمكن أن يكون أو يزيدون على معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] فيكون معناه أنّهم يزيدون على مائة ألف أو يزيدون^(١).

ومن استشهاده القرآني أيضاً في خطابه الأخلاقيّ قوله: «وأراد بعض شيوخي أنني أدرّس وأعلّم الناس وأفتيهم وأسلك سبيل الرؤساء المتقدمين فوجدت الله ﷻ يقول في القرآن الشريف لجدك محمد ﷺ صاحب المقام المنيف ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، فرأيت أن هذا تهديد من ربّ العالمين، فكرهت وخفت من الدخول في الفتوى، حذراً من أن يكون فيها تقوّل عليه، وطلب رئاسة لا أريد بها التقرب إليه، فاعتزلت عن أوائل هذا الحال قبل التلبس بما فيها من الأهوال^(٢).

ومن استشهاده بالقرآن الكريم فيما يتصل بالأخلاق ما ذكره في وصيته لابنه بأنّ المعرفة بالله لا تكون إلّا من الله وبالله وأنّه ﷻ هو الذي هدى للإيمان بمقتضى القرآن، وأنّه هو صاحب المنة في التعريف وأنّه لولا فضله ورحمته ما زكى من أحد في التكليف، مُستشهداً بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، ثم يقول أيضاً مُستشهداً بكلام الله ﷻ: «هل ترى يا ولدي محمد أنّه يجوز لمسلم أن يطعن بعد هذه الدلالة المشار إليها ويستترها عمّن هو يحتاج إلى التنبيه

(١) سعد السعود: ٦١٠.

(٢) كشف المحجة في ثمرة المهجة: ١٣٤.

الفصل الأول

عليها ويعلم من ولد على الفطرة ولا يعرفه المنّة عليه في تلك الهداية التي منّ الله عليها ثم يتلو ويسمع ويعلم أنّ الله ﷻ يقول لسيد المرسلين ﷺ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١] ^(١).

ومن استشهاده بكلام الله ﷻ في رفق خطابيه الأخلاقيّ بعدم إساءة الظن بالله ﷻ ولا سيما في أداء الفرائض من أجل التجريب سواء ترتّب عليها ثواباً أم لم يترتّب، قوله: «ثم لا تكن في صوم الحاجة وصلاتها كالمجرب الذي بظنه هل هذا الصوم والصلاة يكفي في قضائها أم لا فإنّ الإنسان ما يجرب إلّا على من يسوء ظنه به وقد عرفت أنّ الله ﷻ قال: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ أَسْوَأُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦] ولكن كن على ثقة كاملة من رحمة الله ﷻ الشاملة ومن كمال جوده وإنجاز وعوده أبلغ ممّا تكون لو قصدت حاتم الجواد في طلب قيراط منه مع ما تسمعه عنه من الكرم والإرفاد فإنّك تقطع على التحقيق أنّه يعطيك القيراط لو طلبته لك بكلّ طريق واعلم أنّ حاجتك عند الله (تعالى) ﷻ أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، أهون وأقلّ من قيراط عند حاتم الذي وثقت بقصده، فإنّك من ترك الثقة بقصد الله ﷻ ورفده» ^(٢)، وهذا كلام شريف يستقي من نميره الحكماء، فإنّ القدر المشترك بين هؤلاء سوء الظن بالله ﷻ؛ لأنّ المصلّي أو الصائم يقول في نفسه: أجرب هاتين الشيعرتين عسى أن أنال رضا الله ﷻ، وكلّ هذه الأمور ترجع إلى سوء الظن بالله، ولو أحسن الظنّ الإنسان بالله يقيناً صادقاً لعلم أنّ الله مقدّر له عمله.

ومن المقبوسات القرآنية المباركة التي وظّفها ابن طاووس الحليّ في خطابه

(١) كشف المحجة في ثمرة المهجة: ١١.

(٢) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٢٠٧.

الخطب الأخلاقية في رباعية التذلّ وليلة

الأخلاقيّ الذي كشف فيه عن نفسه الشاكرة الصابرة التي آلت على ذاتها التواضع لله ﷻ وللعباد وفرض عليها ألا ترتضي شكر العباد على صنيعه من أقوال وأفعال، وما دبّجه ودشّنه بعلمه الشريف في كتبه الأخلاقية الكثيرة والمتنوعة، فالشكر - كما يرى - مسوق إلى الله ﷻ، قال: «إذا انتفعت بشيء من تلك الأقوال والأعمال فاقتصر على الشكر لله ﷻ وتعظيم ذلك الجلال ولا تشتغل عنه بذكرى، ولا شكري فيكون ذلك اشتغالا منك بالمملوك عن المالك ومخاطرة منك في المسالك، وتعرضا للمهالك فإنه ﷻ قال: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]، وقال: ﷻ ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾^(١)، [النحل: ٥٣]، زد على ذلك معرفته بأحوال النفس الإنسانية (خيورها وشرورها) في ظل الخطابات القرآنية التي كشفت عنها والتي تمكّن ابن طاووس الحليّ من تكشفها واستجلائها، وسنسوق جملة من الخطابات الأخلاقية الطاووسية التي كشفت عن نوازع النفس المتلجلجة غير الصبورة والشكورة، منها^(٢):

أ. اختار قوم من رعايا الألباب مساعدة جنود الجهل رغبة في عاجل الدار دار الفناء والذهاب، فزالت عنهم لذاتهم وحياتهم وكانت كالسراب قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَمَرَابِقٍ يَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، وانتهى أمرهم إلى دوام دار العذاب.

ب. إنّ في العباد من يجحد الحقّ لعناده، مع علمه بالحجة والبرهان، في قوله ﷻ - زيد كلامه المقدّس شرفاً وسمواً - : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة: ٥٥.

(٢) ينظر: اليقين: ٨٧، ٨٨.

الفصل الأول

ج. كشف ﷺ بلفظ كتابه الواضح المبين جحود بعض أهل الذمة ما عرفوه من صدق خاتم النبيين، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

د. كشف الحق ﷺ قوماً يؤمنون عمّن عاين العذاب ووعد بالرجوع إلى الصواب، ثم يحدد ما عاين ويكفر بما آمن وهم يوقنون، في قوله ﷺ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذُ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ نَارُ نَزْدٌ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧) بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

هـ. وصف الله ﷻ بعضاً من عباده بسبب تبهتهم، وخوفهم يوم يحاسبون في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣) أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

وبرهن ابن طاووس إحاطته بالمعرفة القرآنية، والسر في ذلك أن منشأ العلم ومناطه هو التجرد، فلما تزداد النفس تجرداً تزداد إيماناً و يقيناً، ولا ريب في أن من لم ترتفع عن نفسه أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصل لها التجرد الذي هو مناط حقيقة اليقين، فلا بد من المجاهدة العظيمة في التزكية والتحلية حتى تنفتح أبواب الهداية وتتضح سبل المعرفة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] (١)، قال ابن طاووس مبرهنًا إحاطته بالمعرفة القرآنية: «كذلك ما نطق به القرآن الشريف من أنه مُريد وكاره وسميع وبصير وأنه يغضب ويرضى ويسخط، وكلُّ صفةٍ ورد بها كتاب الله من كتبه الشريفة أو صحَّ نقلها عن الأنبياء والأوصياء والأولياء العارفين بصفاته المقدسة المنيفة فإنها لا تشبه

(١) ينظر: جامع السعادات: ١ / ٤٧.

الخطب الأخلاقي والبعاءة التداوئية

صفاتنا ولا صفات المحدثات»^(١)، وقد استفهم مستنكرًا حال الذين أصابهم الشكُّ والريبُ بعد التشريف، والتكشيف في كتاب الله ﷻ للمعرفة القرآنية، قال: «فهل بعد هذا التشريف والتكشيف شكٌّ عند من آمن بالله والقرآن الشريف، إنَّ كشف الدلائل لا يمنع من الضلال الهائل ومن جحود ربِّ العالمين ومخالفة سيّد المرسلين، ويكفي عند أهل العقل والفضل أن الله ﷻ كشف عن المعرفة بمقدس ذاته وصفاته بجميع ما اختص به من مقدوراته وكمال دلالته»^(٢).

ومّا تجدر الإشارة إليه أن ابن طاووس قد نقل من الكتب المقدّسة، كالنوراة والإنجيل، فقال الطهراني: «نقل هذه الأناجيل دون ذكر أسماء الإنجيليين وعلّق على منقولاتهم وقد بان لي من المقابلة بين هذه النصوص وبين الأناجيل أن نحو ثمانين صفحات منقولة من (إنجيل متى) بنصوصها مع استثناء قليل مكثفًا بالمضمون والمآل، ولم ينقل من إنجيل (لوقا) إلا نحو سطرين فيها آية بنصها، وباقيها نقل بالمعنى، كما أورد من إنجيل (يوحنا) نحو صفحتين بنصوصها أمّا إنجيل (مرقس)، فإنه لم يذكر منه شيئاً»^(٣).

ونقطع جازمين أن مصباح الهدى (القرآن الكريم) قد زهر في الخطاب الأخلاقي الطاووسي وارتوى من عذب فرائده، ويكفي التأمل مندوحة أن يقف على دعائه المعروف ب(دعاء العبرات)، ليرى الاستشعار والاستشراق، بكتاب الله ﷻ القرآن الكريم، وقد تنوّعت تقنيات الاقتباسات (أنماط القرآنية وأنساقها)^(٤) في هذا الدعاء

(١) كشف المحجّة في ثمرة المهجة: ١١.

(٢) اليقين باختصاص مولانا علي ﷺ بإمرة المؤمنين، والتحصيل لأسرار ما زاد من أخبار اليقين: ١١٩.

(٣) طبقات أعلام الشيعة: ١١٧.

(٤) القرآنية: مصطلح حديث ابتكره الدكتور مشتاق عباس معن، مفرقًا إيّاه عن الاقتباس، =

الفصل الأول

المبارك، وسنعرض لها فيما يأتي:

أولاً: القرآنية المباشرة (النصية)

قال ابن طاووس: «فقلت على لسان سيّد المرسلين فيما تضمنه القرآن المصون ولا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»^(١)، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال: «وبالمراحم والمكارم التي أنكرت بها على القانطين فقلت (جلّ جلالك): وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ»^(٢)، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال: «وبالمراحم والمكارم التي وصلت إلى إبليس وفرعون، ومن علمت أنّه مصرّ على ما يسخطك عليه إلى أن يحضر في القيامة بين يديك، وبالمراحم والمكارم التي أدركت بها إبليس في الساعة التي بسط بها كفّ سؤاله وقصدك بآماله في حال غضبك عليه وبعده منك، وإعراضك عنه وإعراضه عنك، وقال: اجعلني من المنظرين فوسعته رحمتك يا أرحم الراحمين، وقلت فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ»^(٣)، إشارة إلى

= والتضمين، والتناص، والتناص القرآني، بوصفه أقرب لقضية التأثير والتأثر في الدرس الأدبي من جهة، وجمالية المصطلح من جهة أخرى، فهو كما يقول: آلية من الآليات التي يتوسل بها المبدع في تشكيل الإبداعية من جهتي الرؤى، والأنساق بنية وإيقاعاً بحسب سياق القرآن الكريم، وهذا ما عمدت له الدراسة؛ لأننا نرى قبول هذا المصطلح، واستعماله بوصفه الأقرب تداولياً وتقنيّة وملائمة في الدرس القرآني من غيره. ينظر: تأصيل النص قراءة في إيديولوجيا التناص: ١٦٩، ١٧٠ والقرآنية في نهج البلاغة: ١١.

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٧.

(٢) م. ن: ٣٢٨.

(٣) م. ن: ٣٢٨.

الخطب الإخلاقي وأبعاد التلاوة

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝٣٧﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨]، وقال «وَكَلِّهِمْ إِلَىٰ حَوْلِهِمْ وَقُوتِهِمْ، وَأَبْرِئِهِمْ مِنْ حَوْلِكَ وَقُوتِكَ، وَخُذْهُمْ بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ ضَحَىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ»^(١)، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧] وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَمِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَحَىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨].

ثانيًا: القرآنيّة غير المباشرة (غير النصيّة)

من الأنماط القرآنية التي وظّفها ابن طاووس الحليّ في دعاء العبرات، القرآنيّة غير المباشرة (غير النصيّة)، منها قوله: «سؤاله وبالمراحم والمكارم التي اقتضت الابتداء بالنوال قبل السؤال وبعد السؤال وعند السؤال وبالمراحم والمكارم التي أنكرت بها الآيسين... وبالمراحم والمكارم التي أخرت بها عقوبة الكافرين والمشرّكين والمتمردين والمشرّدين والمنافقين والفاسقين»^(٢).

ولا يخفى أنّ ابن طاووس قد أقسم بالمراحم والمكارم، استشرافاً بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقَوًا رَيَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿يَمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٧].

وقال ابن طاووس: «رب يا غوث المستغيثين ويا مجيب دعوة المضطرين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين»^(٣) استشرافاً واستيحاءً بقوله تعالى: ﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال ابن طاووس: «وتقودهم طوعاً وكرهاً إلى مصلحته ومصلحتنا واجمين

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٣٠.

(٢) م. ن: ٣٢٦، ٣٢٧.

(٣) م. ن: ٣٢٩.

الفصل الأول

نادمين مغلولين مخذولين مكسورين مقهورين، وعرفنا قدر النعمة علينا بتعجيل إجابتك وتكميل رحمتك، وأوزعنا شكر ذلك بحولك وقوتك يا خير الناصرين ويا صاحب الوعود بإجابة الداعين، ومن مدح نفسه المقدسة بصرف السوء عن المظلومين، واحفظ فينا وصيتك ووصية سيد المرسلين وعترته الطاهرين، واحفظنا بما حفظت به كنز أصحاب الجدار لأجل مَنْ حفظته به من سلفهم الصالحين، فقد عرضنا حاجتنا على أبوابك بيد بوابك ونحن الضعفاء المترقبون لما أنت أهله من جوابك، وأنت أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، والحمد لله كما أنت أهله يا رب العالمين^(١)، فقد استثمر ابن طاووس قوله تعالى: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: ١٩]

ثالثاً: القرآنية المتضمنة (المعاني والدلالات)

في ظل استقراء تراث ابن طاووس وأدبه، ولا سيما دعاء العبرات نجد نفثات من دلالات القرآن الكريم والمعاني المصطفيات من روح الله ﷺ ظاهرة على خطابه الأخلاقي، رحم الله ابن طاووس لقد كان في خطابه الأخلاقي حركة الغواص الرائد الذي لا يقف على السطح، ولا يستقر عند القاع، فمعانيه القرآنية تقطر وتفيض، والقرآن الكريم «من جهة الأدب غاية الجمال، ومن جهة الفضيلة غاية الخير، ومن جهة الفلسفة غاية الحق»^(٢).

قال ابن طاووس معبراً عن هذا التعالق والتواشج بكلام الله ﷻ: «وها أنا ذا أمتثل مقدس مراسمك في التعرض لما وعدت من مراحمك واثقاً بشهادة العقول أن الكريم الجواد إذا أذن في السؤال، ووعد بالقبول، فإنه ينزه كماله عن التوقف في المسؤول به، وهو قادر على بلوغ المأمول»^(٣).

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٣١.

(٢) وحي الرسالة: ٤٤٢.

(٣) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٦، ٣٢٧.

الخطب الإلهية في رعاية التكاليف

تأمل معنا استشرافه لحادثة هداية سحرة فرعون، بوساطة اللطف الإلهي، فشملتهم الهداية الربانية، والعاقبة الإلهية الرحيمية، قال ابن طاووس: «وبالمراحم والمكارم التي ابتدأت بها سحرة فرعون وما عرفوك ولا طلبوك ولا تعرضوا لرحمتك ولا تعرضوا لإجابتك»^(١)، استيحاء من قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١٢١، ١٢٢]، واستشازًا واستشرافًا لهداية أهل مكة ممن شملتهم الرحمة الإلهية، والعناية الربانية في تخلصهم من الكفر والضلال إلى التوحيد والسعادة والهداية والعاقبة الحسنة، قال ابن طاووس: «وبالمراحم والمكارم التي ابتدأت بها أمم الأنبياء وأمة الله ﷺ وقد كانوا على عظيم من الكفر والطغيان والعصيان واستحقاق العذاب والهوان»^(٢)، استشرافًا لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [هود: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَنَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقد استوحى رمزية الدعاء والاستغفار في إنقاذ أقوام الأنبياء كما في هداية قوم إدريس، ويونس عليه السلام، قال ابن طاووس: «بسعاداتهم وبالمراحم والمكارم التي أجبت بها قوم إدريس وقوم يونس، ومن كان على نحو سوء أعمالهم وقد غضبت عليهم أنبياءهم وتوعدوهم بما يستحقونه من نكالهم وأشرفوا على الهلاك وعجزوا عن الاستدراك فرحت شكواهم وكشفت بلواهم»^(٣) وهو استيحاء من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً أَمَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا أَمْنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وكذلك رمزية اللقاء بين يوسف عليه السلام وأبيه يعقوب عليه السلام بعد اليأس من اللقيا، وفي ذلك إشارة إلى أن الدعاء والاستغفار يهدمان القضاء والقدر هذما، قال ابن طاووس:

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٧.

(٢) م. ن: ٣٢٧.

(٣) م. ن: ٣٢٧.

الفصل الأول

«وبالمراحم والمكارم التي جمعت بها شمل يوسف ويعقوب»^(١) وهو استشراف لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وتتعالى هذه الدلالات والمعاني القرآنية، وتشرق في خطابه الأخلاقي، كما هو الحال في قوله: «وبالمراحم والمكارم التي كشفت بها كربات أيوب»^(٢)، وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَحُذِّبِيكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

وخلاص يونس عليه السلام من الحوت واليم، قال: «وبالمراحم والمكارم التي خلّصت بها يونس بن متى من بطن حوته ويمه»^(٤)، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وجمع موسى عليه السلام بأمه، قال: «وبالمراحم والمكارم التي جمعت بها شمل موسى بأمه»^(٥)، استشرافاً بقوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠]، ونصرت عيسى على قومه، قال:

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٧.

(٢) م. ن: ٣٢٨.

(٣) م. ن: ٣٢٨.

(٤) م. ن: ٣٢٨.

الخطب الإلهي والعبادة التذليلية

«وبالمراحم والمكارم التي نصرت بها عيسى على قومه»^(١)، استشاراً واستشراً لقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْنَاعِ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

ويتعالى الاستيحاء القرآني في قوله: (وبالمراحم والمكارم التي نصرت بها محمدًا وعليًا على أحزاب الكفار، ووقيتهما من الأخطار وجعلتهما علمًا لك إلى دار القرار)^(٢)، استيحاءً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْزِي اللَّهُ الْبَتَّةَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحریم: ٨].

ويتجلى الفيض الإلهي ويشرق في هذا الدعاء الروحاني العرفاني، قال «احفظ فينا وصيتك، ووصية سيّد المرسلين وعترته الطاهرين، واحفظنا بما حفظت به كنز أصحاب الجدار لأجل من حفظته به من سلفهم الصالحين فقد عرضنا حاجتنا على أبوابك بيد بوابك ونحن الضعفاء المترقبون لما أنت أهله من جوابك، وأنت أرحم الراحمين»^(٣).

تبارك الله ﷻ ما أبلغ حكمه، وأجل شأنه تجلّت معارفه، وفاضت نعمائه في هذا الدعاء المبارك، فظهرت دلالاته جلية في هذا القرب الإلهي المتصل، تأمل إشاراتنا إلى الكنز الذي حفظه الله ليتيمين كان أبوهما صالحًا، قال ابن طاووس: «واحفظنا بما حفظت به كنز أصحاب الجدار؛ لأجل من حفظته به من سلفهم الصالحين»^(٤)، إشارة إلى قوله ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٨.

(٢) م. ن: ٣٢٨.

(٣) م. ن: ٣٣١.

(٤) م. ن: ٣٣٢.

الفصل الأول

وقد كان من المنطقيّ في هذا السياق أن تصور القرآن الكريم في الأطروحات العقائدية العنيفة التي شغلت الناس آنذاك، فالإسلام في ضوء النصّ الديني كان يقدم نفسه بوصفه الحقّ الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ وذلك لأنّه بإيجاز شديد هو اليقين الموحى به من ربّ العالمين، لا الاجتهاد الذي أدى إليه فكرُ المتفكرين، وقد قدّم القرآن بوصفه لاهوتاً عربياً حقيقياً، أو هو التجلي الأخير لهذا اللاهوت حلولاً مجوّدة لكلّ ما كان اليهود والنصارى يختلفون فيه من مشكلات عقائدية، وقد قدّم القرآن حلولاً بأنّ أرسى بناء التصورات الأساسيّة للالوهية والنبوة، وهو ما ورد في آي القرآن الكريم على نحو قصصيّ آسر في بلاغته^(١).

فليت شعري أكان في حدود الإمكان أن يرتطم المسلمون بالهون، ويرضوا بالدون لو أنّهم اتخذوا من أحكام ربّهم منهاجاً، ومن كلام رسولهم علاجاً، ومن حياة أئمة الهدى والرشاد من أهل البيت عليهم السلام، والسابقين الأولين من رجالهم قوة وقدرة^(٢).

ومن هنا فإنّ ابن طاووس الحليّ في ظل ذوبانه في كتاب الله تعالى حفظاً وتدبراً وفهماً قد وعى وصف القرآن لما قدّمه من سير الأنبياء بأنّه (أحسن القصص) مستعملاً في ذلك (أفعل التفضيل)، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وفي ذلك إشارة لازمة بحسب (مفهوم الموافقة) أي قصص أخرى أقلّ حسناً، وأضعف بياناً.

وقبل أن نغادر هذا المطلب، يخطر لنا أمرٌ حول رؤية ابن طاووس الحليّ للنص القرآنيّ بوصفه مصوّناً من الزيادة والنقصان كما يقتضيه العقل والشرع^(٣).

(١) اللاهوت الدينيّ وأصول العنف الديني: ١٣٩، ١٤٠.

(٢) ينظر: وحي الرسالة فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع: ١ / ١٣٦.

(٣) ينظر: سعد السعود: ٤٦٧.

الخطاب الخالدي وأبعاده التداولية

فقد برهن بالأدلة القاطعة العقلية والعقلية أنّ القرآن مصون من التحريف، والزيادة والنقصان، وما قيل: إنّ الرافضة تدّعي نقصان القرآن وتبديله وتغيره هو محض افتراء، وسوء فهم يُردّ على المدّعين، وقد ردّ على الجبائي في مقالة برهانية طاووسية قلما يوجد الزمان بمثلهما في ردّ الشبهة التي حكيت على أتباع أهل البيت عليهم السلام وقد اتخذها بعض المؤلفين مثلبة عليهم، على الرغم من أنّ أعلام الشيعة أنكروها بجد وإخلاص قرناً بعد قرن^(١).

وقد ذكر ابن طاووس الحلي أكثر من سبعة وجوه في ردّ هذه الفرية ذكرها في تفسيره (سعد السعود)^(٢).

ويؤيد قول ابن طاووس الحلي بتهامة القرآن، وعدم وقوع التحريف فيه زيادة ونقصاً، نقده اللادع، وعته القادح على أبي علي الجبائي في أنّه أزد في تفسيره ما لا يدلّ اللفظ عليه، ولا المعنى عليه، فما بالك في الزيادة وغيرها في الآيات الكريئات، قال الجبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، «فإنّنا عنيّ به أنّ مرّ أهل دينك، وأهل بيتك بالصلاة التي تعبّدكم الله بها واصطبر على أدائها والقيام بها»^(٣)، قال ابن طاووس راداً عليه: «ألا تعجب من رجل مسلم يُصنّف كتاباً يعرف أنّه يقف عليه مَنْ يطلع عليه على مرور الأوقات يعمّه مثل هذه التعصبات، والمحالات بالله تعالى، هل ترى في الآية وأمر أهل دينك في ظاهرها، أو معناها، أو حوّلها أو ما يجذّ هذا تعصباً قبيحاً لا يليق بذوي الألباب المصدّقين بيوم الحساب؟، أترأه لو اقتصر على أنّه يأمر أهله عليهم السلام بالصلاة أسوة بسائر مَنْ

(١) ينظر: النص الخالدي لمؤلفي: ١٣.

(٢) ينظر: سعد السعود: ٢٩١ - ٢٩٣.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣٧ / ٧.

الفصل الأول

بعث إليه، ما الذي كان ينخرم؟، وينفذ على الجبائي حتّى يَبْلُغَ به الحال إلى أن يزيد في القرآن ما لا يدلُّ اللفظ ولا المعنى عليه»^(١).

و لا يخفى أنّ ابن طاووس بلحاظ ما سقناه من قبل من أشدّ المدافعين عن سلامة كتاب الله ﷺ من التحريف والتبديل وإنّ فرية التحريف جاءت من غير الإمامية.

(١) سعد السعود: ٤٢٠.

الفصل الأول

المبحث الثاني

أقوال الرسول ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام

أسس الرسول ﷺ مدينة فاضلة قادها بحكمة وإرادة، شهد له الكتاب المنزّل أنّه كان ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ودعا أصحابه وأتباعه ومريديه إلى أن يتخذوا من سيرته أسوة حسنة، فكان القانون والأخلاق سيّان في هذه المدينة ولنقل توأمين، فبدأت الدعوة المباركة تؤتي ثمارها، فتحوّلت من مجتمع اللادولة إلى مجتمع الدولة^(١).

وهذا ما فطن إليه الشيخ محمد مهدي النراقي من قبل، قال: «وقد كان السلف من الحكماء يبالغون في نشرها وتدوينها، وجمعها وتبيينها، على ما أدت إليه قوة أنظارهم، وأدركوه بقرائحهم وأفكارهم، ولما جاءت الشريعة النبويّة - على صадعها ألف صلاة وتحية - حثّت على تحسين الأخلاق وتهذيبها، وبيّنت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل في جنبها ما قرّره أساطين الحكمة والعرفان، وغيرهم من أهل الملل والأديان»^(٢).

وقد حصل انقلاب في القيم، ولنضرب مثلاً على ذلك بعد وفاة المصطفى ﷺ فلم تمضِ إلّا عشرون سنة بعد وفاته ﷺ حتّى فاضت الدنيا بتراكم الثروات والعطاءات في أيدي فئة قليلة من رجال قريش خاصة، فحصل انقلاب في السلوك والمظاهر في العمران والمساكن والملابس والمأكل، ومن هنا وجدنا الحكومة العلوية المثالية بإمامها علي بن أبي طالب عليه السلام تؤسس منهجاً اجتماعياً ثورياً إصلاحياً قلّم نجد مثله في تاريخنا، فقد صُعّص الإمام علي عليه السلام قانونية الاحتكار المالي العام عند كبار الصحابة، وجثم

(١) العقل الأخلاقي العربي: ٦١.

(٢) جامع السعادات: ٣١.

الخطب الأخلاقي وأبعاده التكوينية

على صدور الأغنياء المترفين منهم مطبقاً عليهم القانون العلوي الاجتماعي الإسلامي العظيم (من أين لك هذا؟) تطبيقاً عملياً لا هوادة فيه ولا فتور ولا تراخ، قائلاً: «والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الإماء لرددته فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيّق»^(١).

اغترف ابن طاووس من ندير معين تراث أهل البيت عليهم السلام إذ أفاد من مروياتهم في خطابه الأخلاقي، لأنهم يمثلون معدن الحكمة، ومعدل الإيمان ومكنز العطاء، وقد اتخذهم قدوة له، ف«الأئمة كانوا يحرصون بكل ما يملكون من قوة وبيان على أن يجعلوا من أصحابهم وشيعتهم، ومن يتصل بهم دعاة حق وخير يمثلون الإسلام، ويجسدون تعاليمه بأفعالهم قبل أقوالهم، كما كانوا يحرصون على تنزيه الإسلام من التشويه والافتراء»^(٢).

قال ابن طاووس في بيان قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٣) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِتَعْنِيهِ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿الفتح: ١، ٢﴾ «ومن أعجب تأويلات البلخي تجويزه أن يكون للنبي صلى الله عليه وآله ذنوباً في الجاهلية، وأفضل مقامات نبوته في أيام الجاهلية لمجاهدته مع وحدته وانفراده بنفسه ومهجته في الدعوة إلى تعظيم الجلالة الإلهية وقيامه بأمر يعجز عنه غيره من أهل القوة البشرية؛ لأن كل من يطلب مغالبة الخلائق من المغارب والمشارق يقتضي العقل وأن لا يظهر ذلك من يكاتب ويراسل... أعواناً وأنصاراً...»^(٤)، فقال ابن طاووس راداً عليه: «وأما لفظ (ما تقدم من الذنب وما تأخر) فالذي نقلناه من طريق أهل بيت النبوة أن المراد منه ليغفر لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر عند أهل مكة وقريش... ودار الثواب»^(٥).

(١) نهج البلاغة: ٧٦٩.

(٢) موسوعة المصطفى والعترة عليهم السلام: ١٤ / ٢٦٦.

(٣) سعد السعود: ٤٩٠، ٤٩١.

(٤) م. ن: ٤٩٢، ٤٩٣.

الفصل الأول

ولا يخفى أن ابن طاووس قد شغل تقنية السياق الروائي عن أهل البيت عليهم السلام التي تنطوي على سرد وظيفي من أجل تكشف عصمة النبي صلى الله عليه وآله من الذنوب والمعاصي ليس قبل البعثة وبعدها، بل في عالم الخلق والإيجاد أيضاً، فانطواء النبي الأعظم صلى الله عليه وآله على جماع القيم الأخلاقية والمعالن التربوية جعلته أن يكون مصداقاً عظيماً من مصاديق الاصطفاء الإلهي والاختيار الرباني.

ومن الحقيق ذكره أن ابن طاووس قد شغل تقنية السياق؛ لأنه يرى أنها أوضح وأحوط في العقل والنقل، فضلاً عن كونها ذات أثر في فهم النص القرآني والكشف عن دلالته، وقد صرح بهذا الفهم العميق في تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلِفُونَ ﴿[النبا: ١ - ٣] قال ابن طاووس: «كان ينبغي أن يرجع إلى القرآن الشريف في تسمية النبأ العظيم، وقد قال الله تعالى صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأُ عَظِيمٍ﴾ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿[ص: ٦٧، ٦٨] ولعل مفهوم هذه الآية أن يكون النبأ العظيم حديث محمد صلى الله عليه وآله أخبر به صلى الله عليه وآله سؤال الملائكة الأعلى؛ لأن تفسير بعضه ببعض أوضح وأحوط في العقل والنقل» (١).

ويبدو أن المضامين العاليات، والحقائق الباهرات التي اضطم عليها دعاء الزيارة الجامعة لأئمة أهل البيت عليهم السلام المروي عن الإمام علي الهادي عليه السلام قد وعاءها، واستلهمها، وجعلها نصب عينيه، وفي ما يأتي فقرات من هذه الزيارة: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النَّبُوَّةِ، وَمَوْضِعِ الرِّسَالَةِ، وَتُخْتَلَفَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَهَبَطِ الْوَحْيِ، وَمَعْدِنِ الرَّحْمَةِ، وَخُزَانِ الْعِلْمِ، وَتُنتَهَى الْحِلْمِ، وَأُصُولِ الْكَرَمِ» (٢)، وقال في موضع آخر «وَأَشْهَدُ أَنَّكُمْ الْأَيُّمَةُ الرَّاشِدُونَ، الْمَهْدِيُّونَ الْمُعْصَمُونَ الْمُكْرَمُونَ الْمُتَقَرَّبُونَ الْمُتَّقُونَ الصَّادِقُونَ الْمُصْطَفَوْنَ الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ، الْقَوَامُونَ بِأَمْرِهِ، الْعَامِلُونَ بِإِرَادَتِهِ، الْفَائِزُونَ بِكَرَامَتِهِ، اصْطَفَاكُمْ بِعِلْمِهِ، وَارْتَضَاكُمْ

(١) سعد السعود: ٤٩٤، ٤٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ٩٩ / ١٢٩.

الخطب الإخلاقي وأبعاد التكاليف

لِعَيْنِهِ، وَاخْتَارَكُمْ لِسِرِّهِ، وَاجْتَبَاكُمْ بِقُدْرَتِهِ، وَأَعَزَّكُمْ بِهَدَاهُ، وَخَصَّكُمْ بِبُرْهَانِهِ، وَانْتَجَبَكُمْ لِنُورِهِ، وَطَهَّرَكُمْ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَذْهَبَ عَنْكُمْ الرَّجْسَ وَطَهَّرَكُمْ تَطْهِيرًا، فَعَظَّمْتُمْ جَلَالَهُ، وَأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ، وَبَجَّدْتُمْ كَرَمَهُ، وَأَدْمَنْتُمْ ذِكْرَهُ، وَوَكَّدْتُمْ مِثْقَاهُ، وَأَحْكَمْتُمْ عَقْدَ طَاعَتِهِ، وَنَصَحْتُمْ لَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَدَعَوْتُمْ إِلَى سَبِيلِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَبَذَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي مَرْضَاتِهِ، وَصَبَرْتُمْ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ فِي جَنَبِهِ، وَأَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ، وَأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(١).

وصرح ابن طاووس أن علوم أئمة أهل البيت صلوات الله عليهم كانت آية الله ﷺ فيهم، ومعجزة دالة على إمامتهم؛ لأنهم لم يعرف لهم أستاذ يترددون إليه ولا يشتغلون عليه، ولا رآهم شيعتهم ولا أعداؤهم أنهم يقرؤون تلك العلوم على آبائهم على عادة المتعلمين، ولا على صفات المدرسين، ولا عُرف لهم كتاب مُصَنَّف اشتغلوا فيه، ولا تأليفًا دروا حفظ معانيه ولم يعرف عنهم إلا إذا مات الحي منهم، قام الباقي بعده من ولده الذي أوصى إليه بالإمامة مقامه في علمه وكلما يحتاج إليه من الخصائص والكرامة^(٢)، ويرى أن الله ﷺ تولى بلطفه وعطفه تهذيب اختيار أهل البيت ﷺ فهم القدوة في الأقوال والأفعال، والكاشفون عن مراد الله ﷺ، قال في مقدمة فلاح السائل ونجاح المسائل: «إن اختيارات العباد غير المعصومين لا تقوم بها الحجة البالغة عليهم لسلطان العالمين وإنها لا تكفيهم في أمور الدنيا وحفظ الدين، وأنه لا بد من رئيس يتولى الله ﷺ بلطفه وعطفه تهذيب اختياره وتأديب أسرارهِ وتكميل صفاته ويكون هو ﷺ من وراء حركات ذلك المعصوم وسكناته يمدّها بالعنايات الباطنة والظاهرة ويرعاها بالهدايا المتناظرة كما كان من وراء تدبير الأنبياء والمرسلين ومن وراء تدبير من جعله رسولاً من الملائكة والمقرّين، وهذا واضح لا يخفى على ذوي الألباب ويكون ذلك

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٩٩ / ١٢٩.

(٢) ينظر: كشف المحجة لثمره المهجة: ٩٠.

الفصل الأول

المعصوم هو الحجة لسلطان يوم الحساب»^(١)، فهم الراسخون في العلم، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرّمهم وأدخلنا وأخرجهم، بنا يُستعطى الهدى وبنا يُستجلى العمى»^(٢) ولما رأى عليه السلام أن القلوب لا تستوعب علمه، والعقول لا تفقه كنه معرفته، قال قولته المشهورة الخالدة: «أيها الناس سلّوني قبل أن تفقدوني، أسألوني عن طرق السماء، فإنّي أعرف بها من طرق الأرض»^(٣)، ويرى الشيخ محمّد السند أن هنالك أمومتين، أمومة الله ﷻ، وأمومة الراسخين في العلم الذين هم النبي ﷺ، والعترّة الطاهرة إذ بيّن القرآن الكريم أن قطب القرآن والمحور المركزي الذي يستدير عليه مُحكم الكتاب هي ولاية أهل البيت عليهم السلام وأمومتهم»^(٤).

وفي ظلّ استشراف سيرة أفعال الرسول ﷺ، وأقوالهم نرى أنهم قد وضعوا لنا منهاجاً متكاملاً لبناء الإنسان وإعداده بصورة صحيحة سليمة، ومن ثمّ إعداد أرقى مؤسسة إنسانية وهي بناء الأسرة ثمّ المجتمع البشري السليم، وأنّ هذا المنهاج أو البرنامج ليس بصعب المنال أو صعب التطبيق، فكلّ ما نحتاجه - نحن البشر - في بادئ الأمر، هو ترويض النفس الأمّارة بالسوء، ومن ثمّ الإبحار في بحر الأخلاق والفضائل الحسنة رويداً رويداً حتّى نتكامل ونصل إلى مرحلة الرقيّ والنموّ، وننهض بواقعنا الصحيح، ونستحقّ قول الله ﷻ: (خير أمة)، ولا نكون كالأمم السابقة التي فقدت روحها عندما فقدت التعاليم الأخلاقيّة، فأخزاها الله ﷻ، وألبسها العار»^(٥).

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٤٢.

(٢) نهج البلاغة: ٢ / ١٩٢.

(٣) م. ن. ٢ / ٢٦١.

(٤) تفسير أمومة الولاية والمحكمات للقرآن الكريم: ٣٦.

(٥) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام): ١٢، ١٣.

الخطبة الاخيرة في ربيعة التذكية

وقد كشف ابن طاووس^(١) أن أهل البيت عليهم السلام قد اختاروا نصره العقل وجنوده بخلع سُعوده، واستبصروا به عند ظلم الجهالة، وتحصنوا به من الضلالة، ورأوا في مرآته ما احتمله حالهم من معرفة مالك الجلالة، ومسالك صاحب الرسالة، فظفروا بالسعادة والمكانة فيما كان ويكون، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، قال ابن طاووس: «يُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْمَكْلَفِينَ لَمَّا كَانُوا حَامِلِينَ لِأَثْقَالِ الْأَوْزَارِ حَامِلِينَ لِأَثْقَالِ الْحِسَابِ وَحَامِلِينَ لِأَثْقَالِ التَّكْلِيفِ جَازَ أَنْ يَسْمُوا أَثْقَالًا لِلْأَرْضِ فَإِنَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْأَرْضَ تَتَّقِلُ الْعَصَاةَ لِلَّهِ تَعَالَى مَجَازًا؛ لِأَنَّهَا مَحْمُولَةٌ بِاللَّهِ، وَاللَّهُ الْحَامِلُ لَهَا وَلَهُمْ، وَهُوَ يَبْغِضُهُمْ وَيَمْقُتُهُمْ وَكُلُّ مَقْمُوتٍ ثَقِيلٌ»^(٢).

ومن اقتباساته من كلام الأئمة المعصومين عليهم السلام، ما جاء في دعائه المعروف بدعاء العبرات: «وَأَنْ تَنْصَرْنَا عَلَى كُلِّ مَنْ يُؤْذِنَا، أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يُؤْذِنَا نَصْرًا أَنْتَ أَهْلُهُ، وَأَنْ تَذَلَّهَ لَنَا ذُلًّا هُمْ أَهْلُهُ، وَأَنْ تُدِيلَنَا مِنْهُمْ إِدَالَةً أَنْتَ أَهْلُهَا، وَأَنْ تَزِيحَهُمَ بَانْتِصَارِنَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْآثَامِ الَّتِي فَضَحَهُمْ عِنْدَكَ جَهْلُهَا، وَذُلُّهَا وَتَرِيحُنَا أَنْ يَشْغَلُونَا عَنِ الْإِشْتَغَالِ بِمِرَاقِبَتِكَ الَّتِي جَهِلُوا أَمْرَهَا وَصَغُرُوا قَدْرَهَا، وَأَنْ تَلْمَحَ أَهْلَ الْإِسَاءَةِ إِلَى مَنْ يَرِيدُ ذِكْرَهُ قَبْلَ ذِكْرِنَا وَتَعْظِيمَ قَدْرِهِ عَلَى قَدْرِنَا، وَأَهْلَ الْإِسَاءَةِ إِلَيْنَا وَالبَغَاةَ عَلَيْهِ وَعَلَيْنَا، وَذَوِي التَّحِيلِ فِي ضَرَرِهِ وَضُرَرِنَا، وَالتَّوَصَّلَ فِي كَدْرِهِ وَكَدْرِنَا، لِمَحَّةٍ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ تَرْفَعُ بِهَا حُلْمَكَ عَنْهُمْ وَتَعْجَلُ النِّقْمَةَ مِنْهُمْ وَتَسْتَأْصِلُ شَافَتَهُمْ، وَتَقْطَعُ مَدَّتَهُمْ وَتَسْرِعُ نَكْبَتَهُمْ، وَمَصِيبَتَهُمْ، وَأَدْنَى فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ فِي قَطْعِ أَعْمَارِهِمْ وَخَرَابِ دِيَارِهِمْ وَتَغْفِيَةِ آثَارِهِمْ وَتَعْجِيلِ بَوَارِهِمْ وَدِمَارِهِمْ وَأَخْذِهِمْ بِالْمَثَلَاتِ وَالنَّكَبَاتِ وَالْآفَاتِ وَالْعَاثَاتِ وَالْمُصِيبَاتِ الْهَائِلَاتِ الذَّاهِلَاتِ

(١) اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة أمير المؤمنين: ٨٦.

(٢) سعد السعود: ٢٥٨.

الفصل الأول

القاتلات المستأصلات المحيطات بهم من سائر الجهات، حتَّى تجعل تعجيل دمارهم وقطع أعمارهم وخيبة آمالهم وهدم آجالهم عظة للمتعظين وعبرة للمعتبرين وآية باقية على الشهور والسنين وعَجَل سلبهم»^(١)، وفي ذلك إشارة إلى دعاء الإمام السجاد عليه السلام المشهور بـ(دعاء الثغور): «اللَّهُم أَفْلِلْ بِذَلِكَ عَدُوَّهُمْ، وَأَقْلِمْ عَنْهُمْ أَظْفَارَهُمْ، وَفَرِّقْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَسْلِحَتِهِمْ، وَأَخْلَعْ وَثَائِقَ أَفْئِدَتِهِمْ، وَبَاعِدْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَزْوَدَتِهِمْ، وَحَيِّرْهُمْ فِي سُبُلِهِمْ، وَضَلِّلْهُمْ عَنْ وَجْهِهِمْ، واقْطَعْ عَنْهُمْ المَدَدَ، وانْقُصْ مِنْهُمْ العَدَدَ، وَاْمَلَأْ أَفْئِدَتَهُمُ الرُّعْبَ، واقْبِضْ أَيْدِيَهُمُ عَنِ البَسْطِ، واخْزِمِ أَلْسِنَتَهُمُ عَنِ النُّطْقِ، وَشَرِّدْ بِهِمُ مِنْ خَلْفَتِهِمْ، وَنَكِّلْ بِهِمُ مِنْ وَرَائِهِمْ، واقْطَعْ بِخَزِيمِ أَطْمَاعٍ مِنْ بَعْدِهِمْ، اللَّهُمَّ عَقِّمِ أَرْحَامَ نَسَائِهِمْ، وَبَيِّسْ أَصْلَابَ رِجَالِهِمْ، واقْطَعْ نَسْلَ دَوَابِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ، لَا تَأْذَنْ لِسَائِهِمْ فِي قَطْرٍ، وَلَا لَأَرْضِهِمْ فِي نَبَاتٍ»^(٢).

(١) مهج الدعوات: ٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) الصحيفة السجادية: ١٠٣، ١٠٤.

الفصل الأول

المبحث الثالث

أقوال العلماء الذين سبقوه

أولاً: الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)

أفاد ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ من الشيخ الطوسيّ، فكان كثيراً ما ينقل عنه مستعملاً لفظة (جدي) احتراماً وتبجيلاً، فاستمد منه كثيراً من النصوص في أغلب كتبه، ولاسيما في كتبه: (سعد السعود، وكشف المحجّة، والإقبال بالأعمال، وفلاح السائل، وجمال الاسبوع، ومهج الدعوات، والدروع الواقية)، قال ابن طاووس: «لما رأيت فوائد الخلوة والمناجاة وما فيها من مراده لعبده من العز والجاه والظفر بالنجاة والسعادات في الحياة وبعد الوفاة وجدت في المصباح الكبير الذي صنّفه جدي لبعض أمهاتي أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ رحمته الله شيئاً عظيماً من الخير الكثير»^(١).

ولمّا كان الدعاء والمناجاة تشغل حيزاً واسعاً في تراث ابن طاووس نجد إشارات كثيرات وإحالات واسعات لأبي جعفر الطوسيّ، جاء في مقدمة تحقيق (الدروع الواقية) لـ(ابن طاووس): «وهذا الكتاب الذي ضمّنه مؤلفه رحمته الله بجملة واسعة من الآداب الإسلامية المختلفة، والأدعية والأحراز المختصة بأيام الشهر مرتبة ضمن جملة من الفصول المختصة، أراد منه أن يكون من تنمات كتاب (مصباح المتهجد) لشيخ الطائفة الطوسيّ رحمته الله الواقع في عشرة أجزاء حيث أسماها رحمته الله بـ(المهمات والتمتات)، والتي منها: كتاب (الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يتعلق مرة بالسنة) المختص بأعمال السنة،

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٤٦.

الخطب الأخلاقية وأعمال التذليل

كتاب (الدروع الواقية) في أعمال الشهر، وكتاب (جمال الاسبوع) في أعمال أيام الاسبوع، وكتاب (فلاح السائل) في أعمال اليوم والليلة^(١)، ونصّ على أنّه قد ألهم بفضل الله ﷻ تأليف كتاب (فلاح السائل ونجاح المسائل) في عمل اليوم والليلة من كتاب (مهمات في صلاح المتعبد وتتمات المصباح المتهدد) للشيخ الطوسي^(٢).

ونرصد أنّ ابن طاووس قد ضمّن كتابه عبادات السّنة المطهرة، فضلاً عن ذلك أضاف إليها الأدعية المختارة، مستلهمًا ذلك من كتاب (مِصباح المتهدد) الذي جاء فيه «سألتم أئدكم الله أن أجمع عبادات السّنة، ما يتكرّر منها، وما لا يتكرّر، وأضيف إليها الأدعية المختارة عند كلّ عبادة على وجه الاختصار، دون التّطويل والإسهاب (...)، فإنّ كثيرًا من أصحابنا ينشط للعمل دون التفقه وبلوغ الغاية فيه، وفيهم من يقصد التفقه، وفيهم من يجمع بين الأمرين، فيكون لكلّ طائفة منهم شيء يعتمدونه ويرجعون إليه وينالون بغيتهم منه، وأنا مجيبكم إلى ذلك مستعينًا بالله ومتوكلاً عليه، بعد أن أذكر فصلاً يتضمّن ذكر العبادات وكيفية أقسامها وبيان ما يتكرّر منها وما لا يتكرّر وما يقف منها على شرط، وما لا يقف، ليعلم الغرض بالكتاب، والله الموفق للصواب»^(٣).

وقد تنوّعت إشارات ابن طاووس الحليّ في خطابه الأخلاقيّ إلى الشيخ الطوسيّ، وسنذكر بعضاً منها:

أ. الرواية عنه بطرائق عدّة، قال: «ثم رويْتُ بعدة طرق عن جدي أبي جعفر الطوسيّ كلّ ما رواه محمّد بن يعقوب الكلينيّ، وكلّ ما رواه أبو جعفر محمّد بن بابويه، وكلّ ما رواه السعيد المفيد محمّد بن محمّد النعمان، وكلّ ما رواه السيّد المعظم المرتضى

(١) الدروع الواقية مقدمة التحقيق: ١١، ١٢.

(٢) ينظر: الدروع الواقية: ٣٣.

(٣) مصباح المتهدد: ٢٠.

الفصل الأول

وغيرهم ممن تضمنت الفهرست وكتاب أسماء الرجال وغيرهما رواية جدي أبي جعفر الطوسي عنهم رضوان الله عليه عليهم وضاعف إحسانه إليهم»^(١).

ب. الرواية عنه بالإسناد تصريحًا، «بإسنادي إلى جدي السعيد أبي جعفر الطوسي رضوان الله عليه، قال: روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ دهمه أمر من سلطان، أو مَنْ عدو حاسد فليصم يوم الأربعاء والخميس والجمعة... وليقل في دعائه: (أي رباه، أي سيّده... يا حيّ يا قيوم، يا حيّا لا يموت، لحيّ لا إله إلا أنت، بمحمّد يا الله، بعليّ يا الله...)»، وكذلك قوله: «فمن ذلك ما أرويه بإسنادي إلى جدّي أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي... عن مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: مَنْ اختلف إلى المسجد، أصاب إحدى الثمان: أخًا مستفادًا في الله، أو علمًا مستطرفًا، أو آية محكمة، أو سمع كلمة تدلّه على الهدى، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردّه عن ردّي، أو يترك ذنبًا خشيةً أو حياءً»^(٢)، ومنه روايته عن الشيخ الطوسي في فضل الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة «فمن الدعاء في الساعة التي يستجاب فيها، الدعاء ما أرويه بإسنادي إلى جدّي أبي جعفر الطوسي قال: «يروى عن النبي صلى الله عليه وآله في الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة يقول: سبحانه لا إله إلا أنت يا حنان يا منان يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، ثم يدعو بما يليق بالتوفيق»^(٣).

ج. النقل عنه مباشرة من دون ذكر إسناد أو إشارة إلى لفظة طرق، قال: «قال جدي السعيد أبو جعفر الطوسي رضوان الله عليه ويستحب أن يدعو لإخوانه المؤمنين في سجوده، ويقول أيضًا: اللهم ربّ الفجر والليالي العشر، والشفع والوتر والليل إذا يسر وربّ كلّ شيء وإله كلّ شيء، وخالق كلّ شيء وملّيك كلّ شيء صلّ على محمّد وآله،

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٥٣.

(٢) م. ن: ١٨١، وينظر: كشف المحجة لثمرة المهجة: ٨٣، ٨٤.

(٣) جمال الاسبوع بكمال العمل المشروع: ٢١٧.

الخطب الإخلاقي وأبعاد التذلل

وأفعل بي وبفلان ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة ثم ارفع رأسك وقل: اللهم اعط محمدًا وآل محمد السعادة في الرشد وإيمان اليسر وفضيلة في النعم وهناءة في العلم حتى تشرفهم على كل شريف، الحمد لله ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة لم يخذلني عند شديدة، ولم يفضحني بسريرة، فلسيدي الحمد كثيرًا^(١)، ومن النقل مباشرة، ما ذكره من فضل صلاة ركعتين بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، قال: «وهذه الصلاة ذكرها جدي أبو جعفر الطوسي رضوان الله عليه في عمل يوم الجمعة في المصباح الكبير، ولم يذكر إسنادها على عادته في الاختصار أو لغير ذلك من الأعذار إلا أنه ذكر في الركعة الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي وقل أعوذ برب الفلق خمسًا وعشرين مرة، ولعله أقرب إلى الصواب وذكر باقي الرواية كما ذكرناه في الصفة والثواب»^(٢).

د. الرواية عنه بالنقل، جاء في فضل هدية الصلاة، وتفصيل إهدائها في كل يوم من أيام الأسبوع: «أخبرنا الشيخ عربي بن مسافر العبادي، عن محمد بن أبي القاسم الطبري، عن الشيخ المفيد أبي علي، عن والده جدي السعيد أبي جعفر الطوسي، قال: حدثني السعيد أبو جعفر الطوسي في مصباحه الكبير هذا لفظه: صلاة الهدية ثمان ركعات، روى عنهم عليه السلام أنه يصلي العبد في يوم الجمعة ثمان ركعات: أربعًا تُهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأربعًا تُهدى إلى فاطمة عليها السلام»^(٣).

هـ. دعوته إلى الإفادة من كتب الشيخ الطوسي، قال حاصًا حائًا ولده محمدًا بلزوم الرجوع إلى كتبه، قال موصيًا إياه: «إذا أردت الاشتغال بالفقه، فعليك بكتب جدك (أبي جعفر الطوسي) فإنه عليه السلام ما قصر فيها هداه الله صلى الله عليه وآله إليه ودلّه عليه وقد هيا الله صلى الله عليه وآله لك

(١) فلاح السائل: ١٨٨.

(٢) م. ن: ٢٧٥.

(٣) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٢٧٥.

الفصل الأول

على يدي كتباً كثيرة في كلِّ فنٍّ من الفنون الذي رجوت أن تدلك بل على ما يقربك من مولاك ومالك دنياك وأخراك»^(١).

والجدير بالذكر أن ابن طاووس قد أفاد في خطابه الأخلاقيّ من الشيخ الطوسيّ إفادةً كبيرةً ولاسيّما من كتابه النافع (مُصباح المتهجد) الذي يعدّ من أوائل كتب الأدعية والمناجاة والعبادات والأعمال، فهو يمثل الفتح الحقيقيّ للتأليف في اتّجاه الدعاء والمناجاة في الأخلاق الإسلاميّة إذا ما اسستيننا أدعيّة المصطفى ﷺ وأهل بيته ﷺ ومناجاتهم.

ونقدح أنّه على الرغم من اهتمامه بكتاب (مُصباح المتهجد) للشيخ أبي جعفر الطوسيّ، إلّا أنّه يرى أن الناس قد انكبوا عليه وأفادوا منه، إلّا أنّهم يرغبون بالزيادة، والتفصيل في ذكر الأدعية والمناجاة، ومن هنا جاء كتاب الإقبال بالأعمال ليكون جديداً في هذا المضمار، قال في آخر كتاب الإقبال بالأعمال «إنّ في أيدي الناس المصباح وغيره من المصنّفات ما ليس عندهم نشاطاً للرغبة إليه فأيّ حاجة كانت إلى زيادة عليه: إنّ الذي أودعناه كتابنا هذا ما هو مجرد زيارات وعبادات، ولا كان المقصود جمع صلوات ودعوات، وإنّا ضمّناه ما لم يعرف فيما وقفنا عليه المخالف والمؤالف مثل الذي هدانا الله ﷻ بتصنيفه إليه، من كيفية معاملات الله ﷻ بالإخلاص في عبادته ومن عيوب الأعمال التي تفسد العمل وتخرجه من طاعة الله ﷻ إلى معصيته - إلى أن قال: - مع أنّ الذي عملنا هذا العمل لأجله قد كان سلفنا أجرة أكثر من استحقاقنا على فعله، وأعطانا في الحال الحاضرة ما لم تبلغ آمالنا إلى مثله ووعدنا وعد الصدق بما لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين من فضله، فقد استوفينا أضعاف أجرة ما صنفناه ووضعناه، ومهما حصل بعد ذلك إذا عمل عامل بمقتضاه ورغب فيما رغبناه فهو مكسب على ما وهبناه»^(٢).

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ١٢٧.

(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١٩.

الخطب الإخلاقيَّة في ورَّامٍ وأبعاد التَّكْوِينِ

ومحصل القول: إنَّ السيّد رضيّ الدين كانت له أسرارُه الخاصَّة به من أجل تأليف كتاب (التَّمتات) وجمعها من تلك الكتب حق عظيم على جميع المسلمين، ولاسيَّما الإماميَّة، وكلُّ مَنْ أَلَف بعده كتابًا في الدِّعاء فهو عيال عليه، مغترف في حياضه، متغذٍّ من موائده^(١).

ثانيًا: الشَّيخ ورَّام

أبو الحسين ورَّام بن أبي فراس ورَّام بن حمدان النخعيّ الأشتريّ الحليّ من أولاد مالك الأشر النخعيّ صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)^(٢)، قال الخوانساريّ: «والورَّام بصيغة المبالغة من الورم الذي هو بمعنى الانتفاخ، أو الشموخ، التكبر»^(٣).

وهو الإمام الكبير الفقيه المحدث المعروف، الحليّ المسكن والدار، تلميذ الشَّيخ سديد الدين محمود الحمصيّ، توفّي سنة (٦٠٥هـ)، قال عنه ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ: «في وقائع سنة خمس وستائة في هذه السنة ثاني محرّم توفي أبو الحسين ورَّام ابن أبي فراس الزاهد بالحلّة السيفيّة، وهو منها وكان صالحًا»^(٤)، خَلَف لنا الشَّيخ ورَّام مؤلِّفين، هما: مجموعة ورَّام (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر)، ومسألة في الموسعة والمضايقة^(٥).

ولنا وقفة - نحسبها نافعة - على مجموعة ورَّام (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر)، وهي المجموعة التي تعدّ من الكتب الأخلاقيَّة المهمّة والقيّمة فيها وعظ وإرشاد

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٢٠.

(٢) رياض العلماء وحياض الفضلاء: ٥ / ٢٨٢، روضات الجنات: ٨ / ١٧٧، وتكملة أمل الآمل: ١٨٣ / ٦.

(٣) روضات الجنات: ٨ / ١٧٨.

(٤) الكامل في التاريخ: ٣٥.

(٥) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر مقدمة المحقّق: ٣٥.

الفصل الأول

وأخلاق، قال في المقدمة: «بدأ بذكر أول المجموع:

هي الدنيا تقول بِمِلءِ فيها حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
فلا يغرركم حسنُ ابتسامي فقولي مُضحك والفعلُ مبكي
أنا الدنيا كشهدٍ فيه سِمٌ وإلا جِفَنَةٌ طُلِيتَ بِمِسْكِ»^(١).

وقد جاء زاخرًا بموضوعات عدّة، إذ يشتمل هذا الكتاب على أكثر من عشرة فصول في الفضائل، وأكثر من خمسة عشر فصلاً في الرذائل، وفصلين في تحسين الأخلاق وتهذيبها، وما تبقى من البحوث يُعنى بمواضيع متفرقة من قبيل الآداب والكنى والألقاب، السفر، المواعظ، والموت، والمعاد، والمسائل المرتبطة بها، وفي سياق البحوث التي يطرحها حرص ورام بن أبي فراس على الأخذ من روايات الفريقين، وقد حشد في كتابه بعض المسائل والقصص ولكنّها مستوحاة من كلامهم صلوات الله عليهم.

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ الشيخ الكفعمي في كتابه (محاسبة النفس) عدّ ورامًا أوّل من اقتفى طريقة تقسيم الوقت على أقسام وقتٍ للمناجاة، ووقتٍ للتفكير في صنع الله، ووقتٍ لمحاسبة النفس والتكلم معها، قال: «وأوّل من اقتفى هذه الطريقة حسب تفحصي هو شيخنا الأمير الزاهد ورام بن أبي فراس الأشثري»^(٢).

أفاد ابن طاووس من هذا الكتاب الذي تشغل التعاليم الأخلاقية حيزًا كبيرًا فيه، فنشأ نشأة أخلاقية مبكرة، درس أوّل نشأته على أبيه وجدّه لأُمّه الشيخ ورام، وفي ضوء إشارات ابن طاووس في كتبه، يتضح أنّ جدّه ورامًا كان معلمًا له ومرشدًا فقد تأثر به كثيرًا ولا سيّما بكتابه الأخلاقيّ التربوي (تنبيه الخواطر وتنزيه النواظر المعروف باسم مجموعة ورام) حتّى غلب عليه زهدهُ وتقواهُ وعرفانهُ، يقول: «إنّ أوّل ما نشأت

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام): ٢٧٥.

(٢) محاسبة النفس: ١٤.

الخطبة الاخلاقيّة وأبعادها التداوُلِيّة

بين جدي ورّام ووالدي قدّس الله أرواحهم وكَمَّل فلاحهم وكانوا دعاة إلى الله ﷻ وطالبن له ﷻ فألهمني الله ﷻ سلوك سبيلهم واتباع دليلهم وكنتُ عزيزاً عليهم وما أحوجني الله ﷻ بإحسانه إليهم وإليّ ما جرت عليه عادة الصبيان من تأديب لي منهم أو من أستاذ بسبب من أسباب الهوان، وتعلّمت الخطّ والعربية، وقرأت في علم الشريعة المحمديّة ﷺ...»^(١).

وحان الحين أنّ نظهر إشارات ابن طاووس الحليّ لجده (ورّام)، منها ما قال في حقّه: «وكان جدي ورّام بن أبي فراس قدس الله روحه، ونور ضريحه من أروع من رأيناه عارفاً بأصول الدين وأصول الفقه والفقه، وتاركاً ما تقتضيه الرياسة الدنيوية بالكلية»^(٢)، وقد أشار ابن طاووس إلى تلمذته على يد جده ورّام، قال في وصيته لولده «واعلم أنّ جدّك ورّاماً قدّس الله روحه كان يقول لي وأنا صبي ما معناه: يا ولدي مهما دخلت فيه من الأعمال المنطقة بمصلحتك لا تقنع أنّ تكون فيه بالدون دون أحد من أهل ذلك الحال سواء كان علماً أو عملاً ولا تقنع بالدون»^(٣)، وهذا النص يكشف تلقي ابن طاووس العلوم الدينية المتنوعة، ولا سيّما علم الأخلاق من طريق جده ورّام.

وقد أفاد ابن طاووس - كما أشار - من مكتبة جده ورّام، زد على ذلك وقوفه على خطه، قال: «ولقد رأيتُ في كتاب جدّي ورام قدس الله روحه ونور ضريحه حديثاً معناه أنّ عبداً ممّن يراقب الله ﷻ ويخشاه قال: قَضَيْتُ صلاة ثلاثين سنة، وما كنت تركت فريضة منها ولقد كنت أصليها في الصف الأوّل ولكنّ لمصيبة وجدتها كنتُ قد غفلت عنها، فقليل له ما معناه: وما تلك المصيبة؟ قال: كنتُ أصليها في الصف الأوّل مع الإمام، فجئت يوماً فما وجدت لي في الصف الأوّل موضعاً فصلّيت في الصف

(١) كشف المحجة لثمره المهجّة: ١٢٩.

(٢) فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم: ١٤٦.

(٣) كشف المحجة لثمره المهجّة: ١٨٥.

الفصل الأول

الأخير فوجدت نفسي قد خجلت واستحييت من الأنام أن يروني وأنا في ذلك المقام، فعلمت أن ذلك التقدّم في الصف الأوّل ما كان لله ﷺ على اليقين وإنّما كنت أقصد به التميز عند الحاضرين»^(١)، أمّا فيما يتصل بوقوفه على خطّ جدّه في مجموعه (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر) واصفًا إيّاه باللطيف، قال: «فيما نذكره من خطّ جدي السعيد ورّام بن أبي فراس قدس الله روحه ونور ضريحه في تسمية مولانا علي رضي رسول ربّ العالمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين، ممّا حكاه في مجموعه اللطيف»^(٢). وقال أيضًا في إفادته من خزانة جدّه «و فيما نذكره من توراة وجدتها مُفسرة بالعربية في خزانة كتب جدي ورّام بن أبي فراس فمن السفر الثالث في ذكر آدم ونوح عليه السلام»^(٣).

ونختم حديثنا عن الشيخ ورّام بقول الشيخ محمّد رضا المظفر في مقدمته الماتعة النافعة على كتاب جامع السعادات للمولى محمّد مهدي النراقي، أنّ الأساس هو أن توضع كتب الأخلاق في رفوفها، فليس للنظريات الفلسفيّة ورصانة التّأليف وتركيزه على المبادئ العلميّة في نظر أرباب القلوب تلك الأهمية الأخلاقية التي تعلّق عليها، ولا تقاس بالأثر الأخلاقيّ الذي يحصل من روحية المؤلّف، ومقدار تأثيره هو بأقواله، وما كانت (شهرة ورّام)، وما كانت أهميتها إلّا أنّها ناشئة من قلب صادق، ذلك قلب الأمير الزاهد الإلهي الشيخ ورّام بن أبي فراس المالكي الأشعري»^(٤).

ونطوي فقرات هذا الفصل ببيان حقيقة أنّ السيّد ابن طاووس الحليّ، في ضوء الجذور المتنوعات، والأصول المتفرقات رأينا أنّه انكبّ على المعارف الإسلاميّة كافّة، ولاسيّما كتاب الله ﷻ والسنة النبويّة المطهّرة،

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٢٢٧.

(٢) اليقين باختصاص مولانا علي رضي بإمرة المؤمنين: ١١٩.

(٣) سعد السعود: ٢٤٠.

(٤) جامع السعادات: ١/ ٢٢.

الخطب الإخلاقيّة وأبعاد التّداوُلِ

ومرويات أهل البيت عليهم السلام فضلاً عن أقوال العلماء في مذاهبهم واختصاصاتهم، من خزانة كبيرة في شتّى المعارف بلغ عدد كتبها في سنة (٦٥٠هـ) (١٥٠٠ كتاباً) وكان كثير الاهتمام فيها والشغف بها حتّى وضع لها فهرساً سماه بـ (الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزانة) ^(١).

وقد أفادنا الشيخ محمّد حسن آل ياسين رحمته الله في صنع بيلوغرافيا بأسماء الكتب التي انتهل منها وأفاد، في بحثه النافع: (السّيد علي آل طاووس: حياته، مؤلّقاته، خزانة كتبه) ^(٢).

ويبدو وعلى الرغم من هذا الانتهال الواسع، والاستقصاء العلميّ الكبير من لدن السّيد علي ابن طاووس إلّا أنّه - في ضوء إشارات وعباراته - قد حدّر من الاشتغال بعلوم منها: علم الكلام، والتصوف، فقد وصّى ولده بالمنع عن مطلق مراجعة كتب علم الكلام اقتداءً بالنصوص الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة: «الكلام والخصومات تفسد النية وتمحق الدين، عن عاصم الخياط عن أبي عبيدة الحذاء قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام وأنا عنده: إياك وأصحاب الكلام والخصومات ومجالستهم فإنّهم تركوا ما أمروا بعلمه وتكلفوا ما لم يؤمروا بعلمه حتّى تكلفوا علم السماء» ^(٣)، فضلاً عن ذلك استفراغ الوقت في تحصيل المسائل الفقهيّة وطلبها؛ لأنّها مبثوثة في بطون الكتب، ومظانها، فهو يرى أنّ هذه العلوم ليست ذات فائدة عظيمة وأنّ تحصيلها هيّن وسهل، فضلاً عن ذلك أنّها تُعدّ مضيّعةً ومُسَلِّبةً للوقت، فاهمّ والشغلّ في الدعاء والتّقرب إلى الله تعالى ﷻ هو أَسُّ الأعمال، ورمز الأفعال.

(١) ينظر: بحار الأنوار: ٢٥ / ٢٦، والذريعة في تصانيف الشيعة: ١ / ٥٨.

(٢) بحث منشور في مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، مجلد: ١٢، ١٩٦٥: ١٩٢.

(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٩.

الفصل الأول

ويمكن تلخيص غاية علم الكلام على وفقاً لهذا التصور في ثلاث وظائف أساسية هي^(١):

- تصحيح العقائد الدينية.

- إثبات التعاليم الدينية.

- الدفاع عن الدين.

ومن اللزوم الإشارة إلى أنّ الغاية الدفاعية لها هنا أعمّ من أن تنحصر في العقائد بل تشمل كلّ ما يتعلق بالدين، إذ من مهام المتكلم ردّ الشبهات كافة، التي تثار حول الدين حتّى ولو كانت هذه الشبهات خارج الإطار العقائديّ، فالصلاة مثلاً بما هي مسألة فقهية هي من مهام الفقيه، لكن الردّ على شبهة التشكك بجدوى الصلاة هو من مهام المتكلم^(٢).

ومهما يكن من أمر فقد نهى أئمة أهل البيت عليهم السلام أصحابهم وسائر المسلمين عن الاتصال بالصوفية والاختلاط بهم؛ لما دلّ على زيفهم بإظهار التقشف والزهد لإغراء الناس عامّة، ولا سيّما السذج من أجل غوايتهم، وأجل بقول الإمام الهادي عليه السلام في وصفهم، فقد روى الحسين بن أبي الخطاب، قال: «كنت مع أبي الحسن الهادي عليه السلام في مسجد النبي صلى الله عليه وآله فأثابه جماعة من أصحابه منهم أبو هاشم الجعفريّ، وكان بليغاً وله منزلة مرموقة عند الإمام عليه السلام، وبينما نحن وقوف إذ دخل جماعة من الصوفية المسجد فجلسوا في جانب منه، وأخذوا بالتهليل فالتفت الإمام إلى أصحابه، فقال لهم: «لا تلتفتوا إلى هؤلاء الخدّاعين فإنّهم حلفاء الشياطين ومخربو قواعد الدين يتزهدون لإراحة الأجسام، ويتهجّدون لصيد الأنعام... أورادهم الرقص والتصديّة وأذكارهم الترم والتغنية، فلا يتبعهم إلّا السفهاء ولا يعتقد بهم إلّا الحمّقاء، فمن ذهب إلى زيارة

(١) ينظر: الهندسة المعرفية لعلم الكلام الجديد: ٥٩.

(٢) ينظر: مقاربات في فهم الدين: ١٢٣.

الخطاب الأخلاقي والعبادة التذلُّلية

أحدهم حيًّا أو ميتًّا فكأنما ذهب إلى زيارة الشيطان، وعبادة الأوثان، ومن أعان واحدًا منهم فكأنما أعان معاوية ويزيد وأبا سفيان، فقال له رجل من أصحابه: وإن كان معترفًا بحقوقكم؟ قال: فنظر إليه شبه الغضب، وقال: دع ذا عنك، مَنْ اعترف بحقوقنا لم يذهب في عقوقنا، أما تدري أنهم أخسّ طوائف الصوفية؟ والصوفية كلّهم من مخالفينا، وطريقهم مغايرة لطريقنا، وإن هم إلا نصارى ومجوس هذه الأمة أولئك الذين يجتهدون في إطفاء نور الله بأفواههم، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون»^(١).

ويبدو أن نظرة ابن طاووس فيما يتصل بعلم الكلام والتصوف قد فطن إليها العرفاء والمتأهلون موافقين له مَنْ تقرّبوا من الذات الإلهية، وذاابوا فيها، فقد قال الشيخ محمد رضا المظفر في رحلته الكشفية الخيالية الرائعة (أحلام اليقظة) مع الفيلسوف صدر المتألهين (الملا صدرا)، «لو كنت من أهل طريق الكشف واليقين و مَنْ عنى نفسه بالمجاهرات العقلية والرياضات البدنية، لكنت انتفعت بهذه الرموز والإشارات، ولاستغنيت بها من مجادلات الكلاميين وأصحاب المباحث والنظر البحت... ويتمثل له ما ينكشف للعارفين المستصغرين لعالم الصور والذات المحسوسة، فينتج له طريق الحقائق أن يبدأ أولاً بتزكية نفسه عن هواها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾^(٢) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿الشمس: ٩، ١٠﴾، وباستحكام أساس المعرفة والحكمة بالتقوى ليرق ذراها، وإلا كان مَنْ ﴿فَأَنَّى اللَّهُ بُنِيَ نَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾^(٣) [النحل: ٢٦]، وقال: «وأنصحهم ألا يشتغل بترهات عوام الصوفية من الجهلة، ولا يركن إلى أقاويل المتفلسفة وأهل الكلام جملة، فإنها فتنة مضلة، وجميعها ﴿ظَلُمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾» [النور: ٤٠]»^(٤).

(١) سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار: ٢ / ٥٨.

(٢) أحلام اليقظة مع فيلسوف المتألهين: ١٣٣.

(٣) م. ن: ١٣٣.

الفصل الأول

وتأسيساً لفهم ابن طاووس وتصوره، فإنّ الدعاء والمناجاة والوصايا الأخلاقية هي تزيان الشفاء، وبلسم السعادة في الدنيا والآخرة.

الخطاب الأخلاقي ← الدعاء، المناجاة، الوصايا ← الغاية (السعادة الدنيوية والآخروية) → المخاطب، المستمع

أمّا فيما يتصل بعلم الفقه فقد دعا ابن طاووس الحليّ ولده إلى التحصيل وإعمال الفكر والجدّ في نيله، فقال: «أني لأعلم أنّي اشتغلت فيه مدة سنتين ونصف على التقريب والتقدير، وما بقيت احتاج إلى ما في أيدي الناس لا قليل ولا كثير... وكلّما اشتغلت بعد ذلك فيه ما كان لي حاجة إليه إلا لحسن الصحبة والأنس والتفريع فيما لا ضرورة فيه... وإذا أردت الاشتغال بالفقه فعليك بكتب جدك أبي جعفر الطوسي، فإنّه ما قصر فيما هداه الله ﷻ إليه ودلّ عليه»^(١).

ولمّح ابن طاووس الحليّ بأنّه اقتصر على تأليف كتاب (غياث سلطان الوري لسكان الثرى) في الفقه وهو في قضاء الصلوات عن الأموات وما صنّف غير ذلك في الفقه؛ قال: «لأنّي كنت رأيت مصلحتي ومعادي في دنياي وآخرتي في التفرغ عن الفتوى في الأحكام الشرعية؛ لأجل ما وجدت في الاختلاف في الرواية بين فقهاء أصحابنا في التكاليف الفعلية، وسمعت كلام الله ﷻ يقول عن أعز موجود عليه من الخلائق محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾^(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ^(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ^(٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] فلو صنّفت كتاباً في الفقه يعمل بعدي عليها كان ذلك نقصاً لتورعي عن الفتوى، ودخولاً تحت حظر الآية المشار إليها؛ لأنّه ﷻ إذا كان هذا تهديده للرسول العزيز الأعلّم لو تقول عليه فكيف يكون حالي إذا تقولت عليه ﷻ؟، وأفتيت وصنّفت خطأً وغلطاً يوم حضوري بين يديه»^(٢). لا جرم أنّ موقف

(١) كشف المحجة لثمره المحجة: ١٨٥.

(٢) إقبال الأعمال: ١ / ١٦، وينظر: بحار الأنوار: ١٠٤ / ٤٢.

الخطب الأخلاقية والوعائى التداولفة

ابن طاووس من التألف فى الفقه فممثل وجهة نظره، وطريقة تفكفره وهى لا تصمد أمام العقل والمنطق والواقع، فإن الله ﷻ ورسوله الأكرم ﷺ والأئمة المعصومفن ﷺ حثوا الناس، ولا سبفا ممن فممتلك ملكة الاستنباط، والقدرة على استخراج الأحكام فضلاً عن موهفته أن ففقفه فى الدين، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّفَتَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

إن الطبيعة الإنسانية تدعو الإنسان إلى التفكير والاستنباط والتحليل وحبّة أن الاختلاف والخلاف مانع من ذلك حبّة لا تصمد أمام العقل والواقع، فقد ترك فقهاؤنا الأعظم مصنفات ومدونات وموسوعات ومجموعات علمفة عظفمة المضمون كبفرة القدر ولا فنفى أن المراد بالنص القرآنى ففليس المقصود منه الاختلاف فى المسائل الفقهفة، بل الكلام الذى لا ففسجم مع مقصد القرآن ومراده.

ومن أجل عدم الابتعاد عن موضوعنا ومقصودنا فى هذه المقاربة فى خطابها الأخلاقى وأبعاده التداولفة لا نرفد أن نحاكفه فى عقائده، وتصوراته، أو مرجعياته أو صحة ما فقول، وإنما همّنا إبراز الخطاب الأخلاقى عنده، مع ففان أهم الأبعاد التى ارتكز عليها واعتمدها، ناهفك عن ففان جمالفة الخطاب معانى وأسراراً، ومقاصد.

وتجدر الإشارة - ونحن نطوى فقرات هذا الفصل - إلى أمر بالغ الأهمفة، وهو أن ابن طاووس ففحلّى بالأمانة العلمفة والدقة فى النقل، ولا سبفا فى الاستدلال، ونلمس ذلك بوضوح فى ضوء تبّعنا، واستقرائنا ففها وقفنا علىه من مؤلفاته، فهو ففحرى الدقة، و فى الغالب لا ففعمد على الحكافة بالمضمون وهو أمر ففدعو إلى العجب، ولا سبفا فى ذلك الزمان - القرن السابع الهجرى - وما ففبعه من قلة المكتبات من جهة، وشحة المصادر من جهة أخرى.



الفصل الثاني

سماتُ الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس
الحليّ

الفصل الثاني

مدخل

ثمة اتجاهات مختلفة في علم الأخلاق لدى المسلمين، وطبيعي أن يؤدي هذا الاختلاف في الاتجاهات إلى ظهور أنظمة أخلاقية عدة، وفي مقارنة أولية يمكن تصنيف هذه الاتجاهات إلى أربعة أنظمة، الأولى: ذات طابع فلسفي (عقلي)، الثانية: ذات طابع عرفاني (سلوكي)، الثالثة: الأخلاقية الأثرية، والرابعة: الأخلاقية التوفيقية^(١).

ويبدو في ضوء الخطاب الأخلاقي الطاووسي أنه ينطوي في ضمن المنهج الأخلاقي الأثري، وهو ما يمثله ابن طاووس خير تمثيل وخطابه يرتبط بدائرة الموضوعات والعنوانات الأخلاقية التي يُعنى بها هذا الاتجاه، نلاحظ أنه فيما يتعلق بالأسرة والمجتمع تغطي هذه المدرسة مواضيع وعناوين أكثر، قياساً بالمدرسة العرفانية، كما أن دائرة اهتمامها (أي مصادر الأخلاق الأثرية) في مجال أخلاق العبودية والأخلاق الاجتماعية، تتسع لتشمل مواضيع وعناوين أكثر، قياساً بمصادر المدرسة الفلسفية، إلا أنها قياساً بمصادر المدرسة التوفيقية فالنسبة الموجودة هي نسبة العموم والخصوص من وجه؛ وذلك لأن بعض العناوين المتعلقة بالأخلاق الفردية أو بالأخلاق الاجتماعية أو بأخلاق الأسرة، لم ترد في الكتب الروائية، وفي المقابل فإن جملة من العناوين التي كانت محط اهتمام الروايات، لم يرد لها ذكر في مصادر الأخلاق التوفيقية.

(١) ينظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي: ٣٣.

الخطب الأخلاقية ورعاية التذكية

في هذا الفصل سنحاول بيان أهم السمات التي تلبست بالخطاب الأخلاقي الطاووسي، في ضوء الوقوف على تراثه الزاخر، ونحسب أنّ هذه السمات أمارات وعلامات واضحة على سمو هذا الخطاب، وعُلوّه، فضلاً عن ذلك انتظامه وإحكامه من جهةٍ أخرى.

الفصل الثاني

المبحث الأول

الدعاء والمناجاة

الدعاء والمناجاة كانت من أهم آليات ابن طاووس في نشر المعارف الإسلامية، زد على ذلك إشاعة نظم التربية، ومعالم الإرشاد الأسري والمجتمعي، فقد أنضج الخطاب الأخلاقيّ الأسريّ والمجتمعيّ في ضوء استشراف الأدعية والمناجاة، ولابدّ من القول: إنّ ابن طاووس الحلّيّ قد استند في اختياراته ومقبوساته للدعاء والمناجاة من جهة أخرى بعنصرين مهمين هما:

أ. العنصر المعرفيّ للتوسّل: لاشكّ في أنّ لكلّ مدرسة أو مذهب تربوي، أنماطاً مثالية تشكّل نماذج وعيّنات ملموسة يقتدى بها، تظهر بمظاهر حياتيّة مختلفة من الكلام والسلوك الفرديّ والاجتماعيّ لشخصيات تشترك معنا في الخصائص الإنسانية العامة، وبإمكانها - في ضوء عملية التأسي - أن تضمن لنا إمكانية ترسخ القيم والسلوكيات الحميدة، وتجذّرها في النفس بدرجة عالية.

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، يتسنى للشخص المتوسّل - في ضوء المضامين التي تتوافر عليها أدعية التوسّل والزيارات، نظير الزيارة الجامعة الكبيرة - التعرّف على الأبعاد المختلفة لشخصيّة الإنسان الكامل الذي جعله أسوة وإماماً له، هذا من جهة، فإنّ شهادته للإمام بأعمال الخير والسجيا الكريمة، بما تضمّنه الدعاء من دلالات في ضوء تكرار فضائل رموز مدرسة أهل البيت عليهم السلام، يكون قد عمل على تكريس صورة أبهى ودور أكبر للإنسان الكامل المهذب على صفحة قلبه وفي أعماق ذهنه من جهة أخرى.

ب. العنصر العاطفي للتوسل: لا ريب في أن عنصر الحب والعشق من أكثر العناصر التي رفدت مسيرة الإنسانية على مرّ تاريخها الطويل بالحركة والفاعلية، وما فتىء يُشكّل الباعث الأكبر الذي يمدّد الإنسان بزخم، وحيوية، وطاقة أكبر، ففي كثير من الأحيان وعلى الرغم من تحديد الإنسان لهدفه، نراه يفتقر إلى الطاقة الروحية والعزيمة اللازمة للمسير باتجاه الهدف، فإذا اقترنت المعرفة الصحيحة للأنموذج القدوة بالمحبة العميقة الصافية، فحينئذٍ يُضحي احتمال التواصل بين الشخص والقدوة، أو قل التأسي كبيراً جداً، وفي الواقع، إن مجالس التوسل لها بعدان:

الأول: إنّها محفّل علمي، يتمّ في ضوئه تعرّف الإنسان الأنموذج والأسوة السلوكية الصادرة عنه.

الثاني: إنّها مناسبة احتفالية، يتمّ في ضوئها تزويد المحيّن بشحنات عاطفية، كما إنّها محلّ إبراز ما يجيش في الصدور من الحبّ والولّه والفقر بأحاسيس مخلصّة، من هنا فإنّ الشخص المتوسّل، بعد كلّ مرة يبرز فيها تمسّكه بأولياء الله ﷺ يشعر بوجود طاقة عظيمة تحمله على الإصرار على البقاء في خطّ الصلاح والطهارة. وعليه فإنّ المتوسّل، كما الدعاء، طريق للسموّ الروحيّ وتهذيب النفس^(١).

ولا مناصّ أن نجزم أنّ الدعاء والمناجاة يضطلعان بأثرٍ رئيس في نشر الثقافة والأخلاق الإسلامية، إذ يُعدّ من الأساليب المؤثرة في هذا المضمار، كما أنّه يُشكّل مناخاً تربوياً مناسباً من شأنه تهذيب الأمة الإسلامية بأطيافها كافة. والدعاء يعني الطلب بمعناه العام والذي يشمل حتّى الطلب التكوينيّ، والسؤال الفطريّ، كما أنّ الدعاء مقدّمة فهو بنفسه خاتمة أيضاً.

(١) ينظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي: ٤٥٠، ٤٥١.

الفصل الثاني

ومن جانب آخر فإن القرآن الكريم يقرّر حقيقة أنّ الدعاء طريق ارتباط العباد بالله ﷻ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، فالدعاء سبيل للنجاة زيادةً على أنّه سبيلٌ إلى الوصول إلى المراتب العليا من الكمال، كما ورد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «إِنَّ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً لَا تُنَالُ إِلَّا بِمَسْأَلَةٍ»^(١)، وإنّ الاستكبار وترك الدعاء، يؤدّيان إلى أن يفقد الإنسان استعداده وقابليته لتقبّل الرحمة الإلهية قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وإلى جانب الأدلة النقلية التي أشرنا إليها، فإنّ الدليل العقليّ هو الآخر يقضي بلزوم الدعاء والارتباط بالحق تعالى، وذلك كون أنّ لا حقيقة ولا حيثية للإنسان سوى العبوديّة لله تعالى والارتباط به^(٢).

ومن أهم النتائج التي تترشّح من أدعية ابن طاووس، ومناجاته هي:

١. ملء الخلاء الفطريّ والفقر الذاتي، الذي يحسّه الإنسان في عمق وجوده، إزاء وجود آخر يكون له سنداً ودعامة، يمدّه بالطمأنينة، ويغمره بالخير المطلق.

٢. زرع حالة الغنى والاستطاعة لدى الانسان، في ضوء الارتباط بالله القادر المتعال.

٣. تعميق حالة الإيمان والثقة بالله تعالى في وجود الإنسان وتكريسها، والتي تُعدّ مصدرًا لكثير من البركات المعنويّة الأخرى.

٤. تعلّم أدب التحدث مع الله سبحانه وتعالى.

٥. تعلّم كثير من المعارف الإلهية السامية؛ ففي حالات الدعاء هذه تسنح الفرصة لأكمل موجودات عالم الإمكان؛ كي تنفتح على الحقّ تعالى في ارتباط مباشر، كما هو

(١) الكافي (باب الدعاء): ٢ / ٤٦٦.

(٢) ينظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي: ٤٤٥، ٤٤٦.

الخطب الأخلاقية وأبعادها التكوينية

الحال بين الحبيب وحبيبه، ارتباط صميمي لم تلحظ فيه قدرات الإنسان الإدراكية وإمكانياته المحدودة، وكأنّ الإنسان الكامل قد تجلّى لله تعالى بأبهى تجلياته وأسماها عبر هذه المناجاة.

٦. تربية الإنسان الكامل وإعداده؛ صحيح أنّ المضمون الرفيع للدعاء يكشف عن علو شخصية الإنسان الداعي، ولكن من وجهة نظر تربوية، فإنّه وعبر هذا الدعاء، يوجّه الأفراد جميعهم الذين يتطلّعون إلى الكمال والرفعة، إلى التعالي والصعود إلى قلل الكمال السامية^(١).

٧. يعدّ الدعاء أسلوباً تعليمياً إلقائياً؛ لأنّ الإنسان المسلم يقوم بدور مزدوج يمكن أن نصنّفه في قائمة الأساليب الإلقائية، فهو - الإنسان المسلم - يقرأ الدعاء بوصفه نصّاً، ويسمعه شخصياً أو يتلقاه مسموعاً من غيره إذا كان نص الدعاء مقروءاً من الآخرين، وسواء كان النص مقروءاً من الداعي، أم من غيره فإنّ طبيعة هذا الجهد التعليمي الإلقائي؛ لأنّ الداعي يقرأ والمستمع يتلقى، فيبقى نصّ الدعاء مقصوراً على القراءة والاستماع، فإنّ الإنسان الذي يمارسه يكون قارئاً ومستمعاً ومتلقياً في آن واحد، وبهذا المعنى قد يكون الدعاء نوعاً ونمطاً من التعلم الذاتي.

٨. ينمي الدعاء أساليب التعبير العربي ويصقل القدرات اللغوية للفرد، ويمدّه بثروة من مفردات اللغة وألفاظها؛ وذلك لأنّ الدعاء ينماز بأعلى أساليب البيان العربي ولاسيما الذي صاغه الرسول الأكرم ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام، وهذا يؤدي إلى تنمية هادفة لقدرات الفرد على الفهم اللغوي، وتدريبه على الطلاقة اللفظية، فالعقل المسلم بعد ممارسته للدعاء - كتجربة وجدانية حيّة - يتقمص هذه الثروة الهائلة من مفردات اللغة، ويتمثلها في أحاديثه ومواقفه الحوارية.

(١) ينظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الاسلامي: ٤٤٦، ٤٤٧.

الفصل الثاني

٩. يقدّم الدعاء معرفة تحليلية مستفيضة للنفس الإنسانية ودراسة حالاتها المتعددة سواء في حالتها السوية، أم في حالتها غير السوية، ويحدّد طرائق تشخيص أمراضها وسبل معالجتها، ويرشد العقل المسلم بالأساليب الصحيحة التي تعينه على مواجهة المشكلات النفسية وأمراض السلوك السوي، وسمات السلوك العصبيّ، وذلك في ضوء إمداد المسلم بمفاهيم عبادية في حقل الصحة النفسية، وتأصيل مبادئها المستمدة من الأدعية في عقل الانسان المسلم.

ونقدح بأنّ ابن طاووس الحليّ يمثل مدرسة الأدعية والمناجاة أحسن تمثيل، ولا غرو أنّه من رواد هذه المدرسة بلا منازع، فقد ترك لنا إرثاً عظيماً في الدعاء والمناجاة نقف له إجلالاً وتعظيماً وإكباراً.

أحاط ابن طاووس بالأدعية والمناجاة سواء أكانت في السنة، أم في الشهر أم في الاسبوع، أم في اليوم واللييلة، وهذا التدرج يُعدّ منهجاً جديداً في التأليف لم نعهده من قبل، فألّف كتاب (الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة بالسنة) وهو مختصّ بأعمال السنة، وكتاب (الدروع الواقية) في أعمال الشهر، وكتاب (جمال الاسبوع) في أعمال الاسبوع، وكتاب (فلاح السائل) في أعمال اليوم واللييلة.

الفصل الثاني

المبحث الثاني

الشمولية

لا جَرَم أنَّ النظريات الأخلاقية تتطلب أن تكون شمولية بطرائق أقرب، فقد يُطلب منها مثلاً أن تنطبق على الناس جميعهم، وقد تلتزم بمبدأ من قبيل القاعدة الذهنية الذي يشترط أن يسلك المرء إزاء الآخرين على النحو الذي يجب أن يسلكوا وقفة إزاءه، فالشمولية بوصفها أحد معايير الحكم على النظريات الأخلاقية، إنَّما نعني بها وجوب قيام النظريات الأخلاقية الملائمة بتفسير كلِّ ما يتوجب عليها تفسيره من حقائق^(١).

والحقَّ أنَّ النظرة القائمة - اليوم - بتقديم الحضارة الغربية على أساس الماديات والعقلانيات من دون تقديمها على أساس التقويم الأخلاقي نظرة خاطئة ومتهافئة، على الرغم من أنَّنا نجد لها صدىً عند كثير من الناس بلَّه بعض علماء المسلمين، فليس للإنسان وجود ومرتبة إلاَّ الأخلاق ودونها يختلُّ نظام الحياة وتفسد مقاصد الكون، بل السمة الأخلاقية، والسمة الإنسانية شيء واحد^(٢)، فأول أثر للإيمان هو أنَّه سندٌ للأخلاق، أيَّ إنَّ الأخلاقَ وهي بذاتها من رؤوس الأموال الكبيرة في الحياة، لا يكون لها أساس وقاعدة بغير الإيمان، إنَّ أساس جميع الجذور الأخلاقية ومنطلقها، بل إنَّ سلسلة المعنويات برمتها مبنية على الإيمان الديني، أي الإيمان بالله والاعتقاد بوجوده، فالكرامة، والشرف، والتقوى، والعفة والاستقامة، والتضحية والإحساس، والمسألة

(١) ينظر: التفكير الناقد في القضايا الأخلاقية: ٦١، ٦٢.

(٢) ينظر: الخطاب الإسلامي إلى أين؟، حورات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبد الرحمن):

الخطب الأخلاقية وعبادة التذلل

مع خلق الله والتمسك بالعدالة وبحقوق الإنسان وجميع الصفات التي تُعدّ من فضائل البشر، والتي يقدّسها الأفراد والشعوب كافة، ويدّعيها حتّى الذي لا يملكها مبنية جميعاً على مبدأ الإيمان^(١).

انماز الخطاب الأخلاقي عند ابن طاووس بشموليته العامة العالمية، فهو خطاب إنسانيّ، وإنّ المعرفة (معرفة الله ﷻ) محكّومٌ بحصولها للإنسان دون ما ذكره أصحاب اللسان؛ لأنّهم لو عرفوا من مكلف ولد على الفطرة حرّ عاقل عُقيب بلوغه ورشده بأحد أسباب الرشاد أنّه قد ارتدّ بردة يحكم منها ظاهر الشرع بأحكام الارتداد، وأشاروا بقتله وقالوا: قد ارتد عن فطرة الإسلام وتقلّدوا إباحة دمه وماله وشهدوا أنّه كفر بعد إسلام، فلولا أنّ العقول قاضية بالاكْتفاء والغناء بإيمان الفطرة، ودون ما ذكره من طول الفكرة، كيف كان يحكم على هذا بالرّدة؟ «وكيف كان الله ﷻ يبيح دمه وماله وما أحسن به إليه، وما مضى عليه من الزمان بعد بلوغ رشاده ما يكفي لتعلمه من أستاذه، ومن ملازمته وتردده والله ﷻ أرحم من الخلق كلّهم بعباده، وما أباح دمه إلّا وقد اكتفى منه بما فطره عليه، وبما يسعه بأقل زمان بعد إرشاده لاعتقاده»^(٢).

وفي ظلّ النصوص الطاووسية البالغة الدلالة، والذائعة التداول نجد أنّها ذات شمولية في آداب الدعوة، والتبليغ الأخلاقيّ، ويتجلّى الموقف الطاووسيّ الشموليّ في جوابه على استفتاء هولاء العلماء: «أيّما أفضل، السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟» وجمع العلماء بالمستنصرية لهذه الغاية، فلمّا وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب وكان رضيّ الدين علي بن طاووس حاضراً هذا المجلس وكان مُقدِّماً مُحترماً، فلمّا رأى إحجامهم، تناول الفتيا، ووضع خطّه فيها، بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطهم بعده»^(٣).

(١) ينظر: محاضرات في الدين والاجتماع: ٢٧٣.

(٢) كشف المحجة لثمره المهجة: ٥٤.

(٣) الفخري في الآداب السلطانية: ١١، واليقين: ٦٥.

الفصل الثاني

هذه الحادثة لم يذكرها سوى ابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ) وسبب عدم ذكرها من لدن المؤرخين يعود إلى تحرّج مَنْ تحدّث عن هذه الواقعة من جعل السلطان الكافر العادل أفضل من السلطان المسلم الجائر في مجتمع إسلامي يدين خليفته بالإسلام وهو أمر غاية في الخطورة، وهذه الفتوى تُصدّم شعور المسلم المثالي، الذي يعيش أجواء النظرية دون التطبيق، وينظر إلى الشكل والاسم، أكثر من المضمون والجوهر، وقد استلهم السيّد ابن طاووس - على ما يبدو - الجواب عن هذه الفتوى من القرآن الكريم فهو المصدر الأوّل الذي سدّد خطاه وحدّد سيرته الثقافية، فقد اتصل به منذ صغره، وانكب على حفظه، وتدبّره، وفهم دلالاته ومعانيه، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ بِأَلْسِنَةٍ شَاهِدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]، إذ تميّز بصفتي الشجاعة والمسؤولية بما هما قيمتان تؤكّدان على الفعل والإنجاز فهو يرسخ معنى الالتزام القرآني الأخلاقي، وهذا ما اهتدى إليه ابن طاووس الحيّ حينما صدع بكلمة الحق في مجلس استفتاء هو لأكو العلماء.

إنّ وضع الناس خطوطهم بعده، يدلّ على أمرين: أولهما، ما لابن طاووس من مكانة علميّة ساميّة وثقة كبيرة عند علماء العراق على اختلاف مذاهبهم، والآخر، يدلّ على شموليته وعدم تعصبه إلّا للحق وحده، ويبدو أنّ ابن طاووس جعل نصب عينيه أنّ كفر الكافر عليه ﴿فَنَكْفُرْ عَلَيْهِ كُفْرَهُ﴾ [فاطر: ٣٩] وأمّا عدله فللناس؛ وأمّا المسلم الظالم فظلمه لنفسه وللناس، وفي ظلم الناس يختل النظام الاجتماعي؛ لأنّ العدل أساس الملك، فقبّح واحد وهو ظلم الكافر لنفسه أقلّ من قبيح ظلم النفس وظلم الناس وشرّ واحد أهون من شرّين^(١)، فقد روي عن سيّد الكائنات ﷺ: «يبقى الملك بالعدل مع الكفر، ولا يبقى بالجور مع الإيمان»^(٢)، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من نكد العيش السلطان

(١) ينظر: فقهاء الفيحاء: ١٤٥ - ١٤٨.

(٢) ينظر: شرح رسالة الحقوق: ١ / ٣٨٥.

الخطب الأخلاقية في رباعية التذلّولية

الجائر...»^(١)، فالسلطان الجائر، أذى دائم، ومنكر مستمر، تضيق الدنيا به، وإن رَحُبَتْ، وأذاه يُفسد الدنيا وإن صَلُحت.

يقيناً ظهر في ضوء فتوى ابن طاووس الحليّ التي حدّد فيها أفضلية الكافر العادل على المسلم الجائر، أنّه كان يعدّ القيم الأخلاقية هي الأساس في التفاضل بين الناس - حتّى لو كان فاقدها مسلماً - وهذا منهج قرآنيّ عظيم، وفهم وحياتيّ وسيع، فقد انتصر القرآن الكريم للقيم الأخلاقية، والتعاليم الإنسانية السامية، فجاء الخطاب القرآنيّ للإنسانية أجمع باختلاف مشاربهم وعقائدهم، فالقيمة الأخلاقية هي التي تعلو، ومن هنا فإنّ القرآن الكريم (كتاب الله الأكبر) اكتسب صفة العالمية والشمولية والجامعية ما لم يكتسبه كتاب آخر، وقد استطاع ابن طاووس اقتناص هذا الأسلوب العظيم، والتصور البديع موظّفاً إيّاهما في فتواه الشهيرة.

وقد نال ابن طاووس بفتياه هذه مقاماً محموداً ومنزلةً كبيرةً في نفس مَنْ يرمون العدل، ويقصدون المساواة، وأدّت وسببت فتياه هذه حقناً لدماء المسلمين وخيراً عميماً للأمة^(٢)، ومن فوائد ذلك وشموليته، ما أشار إليه بقوله: «ظفرتُ بالأمان والإحسان، وحقّنت فيه دماؤنا، وحفظت فيه حرماً وأطفالنا ونساؤنا، وسلم على أيدينا خلق كثير»^(٣).

وتأسيساً على ما ذكرناه من قبل، يمكن القول: إنّ ابن طاووس من المؤسسين لـ (فقه الأخلاق) في ضوء ما وقفنا على خطابه الأخلاقية المبنوثة في كتبه، فقد أعطى للعبادات والمعاملات مدياتها وتحوماتها الرحبات كاشفاً أسرارها ودقائقها، قال في

(١) شرح إحقاق الحق: ٢٨ / ٤٠٨.

(٢) ينظر: بحار الأنوار: ١٠٧ / ٤٤.

(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١١٨.

الفصل الثاني

حقيقة (الصيام): «وَأَمَّا حَدِيثُ الصَّيَامِ فَإِنَّمَا صَوْرَتُهُ أَنَّكَ تَصُومُ بِاللَّيْلِ فِي الْمَنَامِ فَقَلْبُ اللَّهِ ﷻ تَدْبِيرُ الْحَالِ وَجَعَلَ لَكَ شَوْقًا وَذِكْرًا جَمِيلًا فِي الْأَعْمَالِ، فَصُرْتَ تَأْكُلُ بِاللَّيْلِ وَتَصُومُ بِالنَّهَارِ، وَهُوَ رِيَاضَةُ الْأَبْرَارِ، وَبِمَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ ﷻ مِنْهُ وَمَنْ غَيْرِهِ امْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْأُمُورِ وَاطْلَعُوا عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ ﷻ اِطْلَاعَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْرَارِ فَابْدَأُوا وَلَدِي بِصُومِ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ وَعَنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُ عَنْ الرَّبِّ وَعَنِ الْإِفْطَارِ بِالذَّنْبِ وَذَكَرْ نَفْسَكَ أَنَّهُ لَوْ طَلَبَ سُلْطَانٌ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْكَ وَأَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ وَأَنْتَ فِي حَضْرَتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ بِشَعَارِ الْمُرَاقَبَةِ بِخِدْمَتِهِ وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا يَبْعِدُكَ عَنْ حَضْرَتِهِ، أَمَا كُنْتَ تَفْرَحُ بِهَذَا التَّكْلِيفِ وَتَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنَ الشَّرِيفِ»^(١).

وتتجلى أخلاقية فقه العبادات في موضوع الجهاد في ضوء التعامل مع الحكام الظالمين من جهة، والمخالفين من جهة أخرى؛ من أجل إنقاذ بيضة الإسلام والحفاظ عليها، قال ابن طاووس: «إِنَّهُ كَانَ قَدْ غَلَبَ التَّتَارُ عَلَى بِلَادِ خِرَاسَانَ وَطَمَعُوا فِي هَذَا الْبِلَادِ وَوَصَلَتْ سَرَايَاهُ إِلَى نَحْوِ مَقَاتِلَةِ بَغْدَادِ فِي زَمَنِ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَنْصِرِ جَزَاهُ اللَّهُ عَنِي بِمَا هُوَ أَهْلُهُ فَكَتَبْتُ إِلَى الْأَمِيرِ (قَشْتَمِر) وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُقَدِّمَ الْعَسَاكِرِ خَارِجَ بَلَدِ بَغْدَادِ، وَهُمْ مَبْرُزُونَ بِالْحَيْمِ وَالْعَدَدِ وَالْإِسْطِظْهَارِ، وَيَخَافُونَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ عَسَاكِرُ التَّتَارِ وَقَدْ نَوْدِي فِي بَاطِنِ الْبَلَدِ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ، فَقُلْتُ لَهُ بِالْمَكَاتِبَةِ اسْتَأْذِنْ لِي الْخَلِيفَةَ وَأَعْرِضْ رَقْعَتِي عَلَيْهِ فِي أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي التَّدْبِيرِ وَيَكُونُونَ حَيْثُ أَقُولُ يَقُولُونَ وَحَيْثُ أَسْكُتُ يَسْكُتُونَ حَتَّى أَصْلَحَ الْحَالُ بِالْكَلَامِ، وَقَدْ خِيفَ عَلَى بِيضَةِ الْإِسْلَامِ»^(٢)، ويظهر أنَّ الجهاد يتخصَّص بحالتين:

الأولى: مع صاحب الأمر والزمان ﷺ.

(١) كشف المحجة لثمره المهجعة: ١٤٤.

(٢) م. ن. ١٤٧.

الخطب الإخلاقي وأبواب التذلل

والثانية: إذا كان فرضاً عاماً يخاف على الإسلام أن تذهب بيضته وتستأصل شأفته، ففي هذه الحالة يصحّ الجهاد حتى مع غير من تجب طاعته^(١)، وإزاء الحالة الثانية تكشف مسألتين:

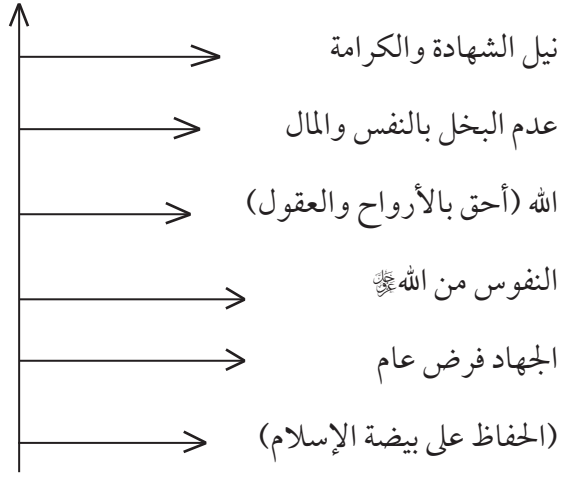
المسألة الأولى: إنّ خلافة المستنصر مخالفة لرسول الله ﷺ ولأمير المؤمنين عليه السلام، لذا لا تجب طاعته، وهو الذي يفسّر لنا شدة رفضه لطلب الخليفة بالمشاركة في دولته بأي منصب من المناصب التي عرضت عليه.

المسألة الثانية: إنّ المرتكز الشموليّ والخوف على بيضة الإسلام هما اللذان فرضا عليه أن يعرض على المستنصر أن يكون رسولاً إلى قائد الجيش المغوليّ، وهذه الحالة تكون مع المستنصر أو غيره، فالأهم هو إنقاذ بيضة الإسلام، يقول ابن طاووس: «وإن ابتليت بجهاد مع غير من يجب طاعته فإن كان فرضاً عاماً يخاف على الإسلام أن يذهب بيضته وتستأصل شأفته، فإنك تعلم أنّ النفوس والرؤوس وكلّ ما يعزّ عليك من الله ﷻ إليك فأحقّ ممّا يذلّ كلّ عزيز والدنيا كلّها لوأهبها وأجمل ما أنفقت ذخائر العقول في مراد جالبها، ومن أحق بالأجساد والأرواح والعقول بكلّ ما في الوجود من الله ﷻ الذي أنت وما في يدك صادر عن ذلك الجود فمتى دعاك إليه فإنّك أن تتوقف من حمل نفسك ومالك إليه فإنك إن بخلت بها عليه في بذلها سلبها عزرائيل عليه السلام أو غيره وضاع منك شرف الخدمة بتسليمها إليه وبذلها في إعزاز دينه الذي يعزّ عليه»^(٢)، فتدرج العبارات بلحاظ السُّلم الحجاجي، يُعطي نتيجة إيجابية أرادها ابن طاووس الحليّ وهي الشهادة والكرامة والعز، وفيما يأتي أدناه مخطط يوضح حقيقة نيل الشهادة العظيمة:

(١) ينظر: سعد السعود: ٢٨.

(٢) كشف المحجة لثمره المهجة: ١٤٦.

الفصل الثاني



فليت شعري، لقد أسس ابن طاووس الحليّ (أخلاقية الجهاد) في هذا الخطاب وهو مبحث فقهيّ، أخلاقيّ يجدر بالباحثين الأكارم أن يوسّعوا منه ويرسموا الخطوات الثابتات له عند ابن طاووس خاصة وعند فقهاء المدرسة الحليّة عامة؛ من أجل الوصول إلى مقاربات تداوليّة فقهية من جهة، ومقاربة قواعد الفراغات من جهة أخرى، ولاسيّما ونحن نعيش في عصر الخلافات، ومحاولة الانقضاض على بيضة الإسلام واستئصال شأفته من غير المسلمين ومَن يدعون الإسلام نفاقاً، ويسلكون مسلك الزهاد ومذاهب العبّاد كذباً كالحركات التكفيرية المتنوعة بمسمياتها.

وقد اتّبع طريقة (التسلسل الاجتماعي) في الإفادة من نهج القرآن ونظّمه في آداب الخطاب الأخلاقيّ ولاسيّما الدعاء، فقد آل على نفسه ألاّ يشمل دعاءه المؤمنين والمسلمين فحسب، بلّ شمل دعاؤه الفجار والمعاندين فأساليب الدعاء مفتوحة أمام العبد شاملة، يقول: «وكنْتُ في ليلة جليّلة من شهر رمضان بعد تصنيف هذا الكتاب بزمان - يقصد كتاب الإقبال - وأنا أدعو في السحر لمن يجب أو يحسن تقديم الدعاء له، ولي ولمنّ يليق بالتوفيق أن أدعو له، فورد على خاطري أنّ الجاحدين لله ﷻ ولنعمه والمستخفين بحرّمته والمبدلين لحكمه في عباده

الخطب الإخلاقي وأبعادها التكوينية

وخليقته، ينبغي أن يُبدأ بالدعاء لهم بالهداية من ضلالتهم^(١). مُعللاً ذلك بأنّ جنايتهم على الربوبية، والحكمة الإلهية، والجلالة النبوية أشد من جناية العارفين بالله وبالرسول ﷺ؛ فيقتضي تعظيم الله وتعظيم جلاله وتعظيم رسوله ﷺ وحقوق هدايته بمقاله وفعاله، أن يُقدم الدعاء بهداية من هو أعظم ضرراً وأشدّ خطراً، إذ لم يقدر أن يزال ذلك بالجهاد، ومنعهم من الإلحاد والفساد، فشمّل دعاؤه كلّ ضالّ عن الله بالهداية إليه، ولكلّ ضالّ عن الرسول بالرجوع إليه، ولكلّ ضالّ عن الحقّ بالاعتراف به والاعتماد عليه؛ ثم بعد ذلك يتسلسل دعاؤه فيدعو لأهل التوفيق والتحقيق بالثبوت على توفيقهم، والزيادة في تحقيقهم، ثمّ بعد ذلك يدعو لنفسه، ومنّ يعنيه أمره بحسب ما يرجوه من الترتيب^(٢).

وقد استلهم ابن طاووس هذه الشمولية في الدعاء من القرآن الكريم، مستوحياً شفاعته إبراهيم عليه السلام في أهل الكفر، قال الله تعالى: ﴿يُجَدِّلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾^(٣) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿[هود: ٧٤، ٧٥]، فمدحه ﷺ على حلمه وشفاعته ومجادلته في قوم لوط الذين قد بلغ كفرهم إلى تعجيل نقمته، واستلهم هذا المعاني الجليلة أيضاً من قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ومن سيرة الرسول ﷺ فقد كان كلّما بالغ قومه الكفار في إيذائه، قال ﷺ «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وقول نبينا ﷺ: «اصنع الخير إلى أهله وإلى غير أهله، فإن لم يكن أهله، فكُنْ أنت أهله»^(٤)، وحديث عيسى عليه السلام: «كن كالشمس تطلع على البر والفاجر»^(٥) وقول الإمام علي عليه السلام: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١ / ٣٨٤.

(٢) ينظر: م. ن: ١ / ٣٨٤.

(٣) أصول الكافي: ٤ / ٤٧.

(٤) بحار الأنوار: ٩٥ / ١٦٧.

الفصل الثاني

والمحبة لهم واللفف بهم... فإنهم صنفان إمّا أخ لك في الدين وإمّا نظير لك في الخلق»^(١) ويكفي أنّ الرسول ﷺ بعث رحمة للعالمين^(٢).

وتأسيسًا على ذلك كلّ رفع ابن طاووس الحليّ الجماعية والشمولية؛ لأنّ «الفردية تعلو فتكون الاستبداد، وتسفل فتكون الأنانية، وإنّ الجمعية ترتفع فتكون الإنسانية، وتنخفض فتكون العصبية، وإنّ بين الإنسانية والعصبية، شعبًا يُعزّز، وأمة تُرقي، وذكرًا يَبقى، وأثرًا يخلد، ولكن بين الاستبداد والأنانية، تحكم الهوى وشقاء العيش، وذللّ الأبد»^(٣)، ومن هنا فإنّ الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس كان مؤثّرًا؛ لأنّه إنهاز بخصال أخلاقية ثلاث: الفضيلة، والسداد، والبرّ، وهي من الصفات التي حدّدها أرسطو في الخطيب الناجح^(٤).

هذه الرؤية في الخطاب التفت إليها المعاصرون حرصًا منهم بالارتقاء بالدعوة الإسلامية لكون الإسلام يقصد خير المسلم وغيره، إذ «كان الأولى بالخطاب الإسلاميّ بعد أن بلغ أشده واتسعت قاعدته أن يوجه خطابه إلى المخالفين له في الفكر والاتجاه، ولا يدعهم في ضلالهم القديم، وجهلهم الموروث، وسوء ظنهم بالإسلام ودعائه...»^(٥).

ونظوي هذه السمة الأخلاقية عند ابن طاووس بالقول: إنّ ابن طاووس أراد بناء نسق أخلاقيّ شامل من أجل الاقتراب من الآخر بشكل كبير؛ واستنهاضًا من أجل وضع الإنسان على المسار الصحيح نحو القمم العليا التي هي عنوان التلاقيّ والتحاور والتواصل بين الشعوب والأمم والثقافات والكيانات.

(١) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(٢) ينظر: الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣٨٤ / ١.

(٣) وحيّ الرسالة فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع: ٢٠٥.

(٤) ينظر: السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية: ٦٠.

(٥) الخطاب الدعوي بين العامة والخاصة (مقال للأستاذ محمّد الدويش في شبكة المعلومات).

الفصل الثاني

المبحث الثالث

العقلانية

لا يخفى أنَّ أغلب تعريفات علم الأخلاق تؤكد الجانب العقلي فيه، وأنَّ العقل وحده هو القادر على تشخيص المبادئ والخصال من دون تدخل لأيِّ طرفٍ آخر، يقول محمَّد جواد مغنية: «علم الأخلاق: هو مجموعة من المبادئ المعيارية التي ينبغي أن يجري السلوك البشري على مقتضاها، والياء في المعيارية نسبة إلى المعيار الذي يقاس به غيره، غير أنَّ مبادئ الأخلاق ترسم طريق السلوك الحميد وتحدّد أهدافه وبواعثه»^(١).

لا جرَم أنَّ الأخلاق أساس الحياة، وبالأخلاق يرتقي الإنسان إلى الكمالات وبها نحصل على مجتمع متماسك وقويّ، وآمن تسود فيه العدالة والحرية والودّ والمساواة، فكلّ عمل يستحسنه العقلاء، فهو من الأخلاق، أو له صلة بالأخلاق فالإيفاء بالعهود، وأداء الأمانات والإحسان والبرّ، ومساعدة المحتاج والمريض وغيرها من الأخلاق التي يرتضيها الرحمن ﷻ^(٢).

إنَّ العقل آلة أخلاقية منقاد بالطبع للقوانين الأخلاقية الأبدية، وهو يعطيها صدر مجلس وجدانه، ومن هنا فإنَّ كلّ قضية أخلاقية لها وجودها بالحمل الشائع في منزلة العقل الأخلاقيّ، وهكذا يبدو أنَّ العقل أخلاقيّ بالذات ولا يصل إلى الأخلاق إلّا بعد التأمل والبحث أو الاكتساب، ومن ثمَّ فإنَّ الإنسان أخلاقيّ بالطبع، يتلمس أثر قوانين الأخلاق في مرحلة الوجدان الأوليِّ الضروريّ^(٣).

(١) فلسفة الأخلاق في الإسلام: ١٢.

(٢) ينظر: تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام): ٩.

(٣) ينظر: الدين والعلم مطارحات في دَيْنَةُ العلم: ٦٢.

الخطب الأخلاقيَّة في ربَّعة التَّكْلِيفِ

وقد أبدع محمَّد باقر الداماد (ت ١٠٤١هـ) في بيان أثر العقل في إدراك المعقولات والأسرار، قال: «فلا جرم... لا حشمة، ولا جاه للإنسان أعظم من إدراك المعقول الجنَّة المزيَّنة المحلَّاة بأنواع حليِّها ونعيمها وزنجيلها وسلسيلها إدراك المعقولات، ودركات جهنَّم بأغلاها وسلاسلها وحميمها وزقومها متابعة الأشغال الجسائيَّة ومعانقة القوى الدائرة الحسانيَّة»^(١).

حرص ابن طاووس إلى الدعوة إلى إعمال العقل، والتنشيط العقلي، فمن لوازم الخطاب الأخلاقيَّ استثمار العقل وتوظيفه، بوصفه عامل التَّمييز ومناطق التكليف؛ فهو أعز منال وسبب التَّكريم، فَلَزِمَ الحفاظ عليه حفظاً لما أنيط به، وبالعقل كُرم الإنسان وفضِّل على سائر المخلوقات؛ ونلمح هذا التصور في جملة من الألفاظ التي جاءت في خطاب ابن طاووس الأخلاقي، منها: (يفكر، العقل، كمال العقل، العاقل، معقولة، القلب البصير، الحكمة، التذكير، حكم الالباب...) وغيرها من الألفاظ الحكيمية الهادفة، وقد ربط هذا الخطاب بهدف أسمى هو تقوى الله والسعي في رضاه، والإخلاص له (سبحانه وتعالى)، لذلك حرص على عدِّ العقل حجةً في أدبياته، ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ مسألة العقليين (النظري والعملي) لم تكن محلَّ وفاق تام في طبيعة وظيفتهما عند الفلاسفة وعلماء الأخلاق، ففي حين يذهب فريق إلى أنَّ الأول يُعنى بالمسائل الفلسفية النظرية خارج دائرة الأخلاق، والآخر يُعنى بالمسائل العملية^(٢)، يذهب آخرون إلى فهم مختلف قوامه أنَّ فلسفة الأخلاق أيضاً من شؤون العقل النظري، وأمَّا وظيفة العقل العملي فتتعدَّى ذلك إلى البعث والتحريك^(٣).

(١) الصراط المستقيم في ربط الحادث بالقديم: ٨.

(٢) مفاتيح الغيب: ٦٠٢ / ٢.

(٣) ينظر: جامع السعادات: ١ / ٤٨ - ٥٣.

الفصل الثاني

وفطن ابن طاووس إلى أنّ العقل هو البوصلة الحقيقية للمعارف، قال: «أما تعلم أنّ العقل الذي هو النور الكاشف عن المعارف ما هو من كسبك، ولا من قدرتك وأنّ الآثار التي تنظر إليها ما هي من نظرتك، وأنّ العين التي تنظر بها ما هي من خلقك...»^(١)، ويرى أيضًا أنّ المعرفة بالعقل لازمة، وهو أصل العلوم كلّها، وبه حصلت المعرفة، بالفرق بين الحقّ والباطل^(٢).

وسنفي بعضًا من النصوص التي تظهر هذا المرتكز في خطابه، ففي تفسير قوله تعالى ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [ال عمران: ٧]، رادًا على الفراء، الذي قيّد (الآيات المتشابهات) بالحروف المقطعة التي ابتدأت بها بعض السور، قال ابن طاووس: «وأما تعيين الآيات المتشابهات بالحروف فهو أيضا تحكّم عظيم، وليس في ظاهرها ما يقتضى ذلك، ولا إجماع على ما ذكره، ولا حجة من عقل ولا نقل والقرآن فيه من التشابه التي قد صنّف المسلمون فيه المجلدات ما لا يخفى والإجماع على أنّه متشابه»^(٣)، ويبدو أنّ ابن طاووس قد نفى تقييد بيان تفسير الآيات المتشابهات بالحروف المقطعة، وأشار إلى أنّ القرآن قد انطوى على آيات متشابهات غير منحصرات بالحروف المقطعة، فالإجماع والحجج النقلية والعقلية تؤكد وجودها في القرآن الكريم.

ومن المرتكزات العقلية، وطرائق التدليل العقليّ التي التزم بها ابن طاووس الحليّ في مختلف خطابه الأخلاقية، تدلّ على قوة عقلانيته من جهة، ورسوخ أخلاقيته من جهة أخرى، ناهيك عن اتساع حواريته التي كان لها السهم الأوفر في ظهور القيم الإسلامية الأخلاقية عامة، والقيم الإسلامية المنبثقة من أهل البيت ﷺ خاصة،

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٥٦.

(٢) سعد السعود: ١٩٠.

(٣) م. ن: ٥٩٧.

الخطب الاخلاقي وبعائه التلاوت

وإذا تأملت خطابات ابن طاووس الأخلاقية، رأيت هذه المرتكزات العقلية تصرخ فيها، ففي معرض إثباته ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، وإمامته من لدن المصطفى (عليه السلام) بأمر إلهي، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وقد استظهر ابن طاووس هذه الولاية استظهاراً عقلياً إذ لا يُعقل أن يترك النبي محمد (عليه السلام) أمته هماً بلا راع ولا رابط، فهو يجعل على المسلمين رئيساً وراعياً حينما يذهب في غزوة أو سرية من جهة، ويؤمّر رئيساً على العسكر، أو السرية من أجل ضمّ شملهم وحرص صفوفهم وإصلاح فاسدهم من جهة أخرى فضلاً عن ذلك فإنّ العقل يوجب استكتاب الوصايا قبل الانتقال إلى الرفيق الأعلى (عليه السلام)، قال ابن طاووس: «ومنها أن جدك (عليه السلام) عليه أفضل السلام والتحية ما كان ينفذ عسكراً أو سرية إلا ويجعل فيهم رئيساً عليهم يضمّ شملهم ويصلح فاسدهم ويحسن إليهم فكيف تقبل العقول أنه يترك الأمة كلها بعد وفاته إلى الله (عليه السلام) في مسافة مدتها... ست مائة وتسع وثلاثون سنة وبعدها إلى يوم القيامة؟ ولا يجعل لهم رئيساً يصلح حالهم ويصونهم عن الذي جرى عليهم من الاختلاف والندامة، ومنها نصوص الله (عليه السلام) وتقدّس كماله على جدك مولانا علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه بالآيات الباهرات في ذاته وصفاته وفي مقاماته وتعريف الأمة بكرامته وما أخبرها من أسرار الله (عليه السلام) ورسوله (عليه السلام) الدالة على أنّها نصوص عليه بأن مرجع الأمة في جميع أمورهم إليه... فكيف قبلت العقول أن من يُعلّم الناس الوصية لمن يخلفونه يترك الوصية بهم بالكلية؟ وقد علم أنهم يختلفون بعد وفاته ويخالفونه، ومنها أن كلّ منصف عاقل فاضل من أهل الإسلام بعيد أن يقبل عقله أن محمداً جدك عليه وآله أفضل الصلاة والسلام يتلو عليهم قرآناً يتضمن ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ثم يدعي مدع أنه مات وترك

الفصل الثاني

أتمته متحيرين في الإمامة، ومنها أن جدك محمدًا ﷺ كان ما يخرج في غزوة إلا ويجعل في المدينة نائبًا ومدة الغزوة قصيرة في حياته فكيف يقبل العقل أنه ترك الأمة مهملة من نائب ينص عليه؟ والمدة طويلة خطيرة كثيرة بعد وفاته^(١)، ونحن نغتنم هذه الفرصة ونفيد من إشارات ابن طاووس الحلي في الاستدلال على إمامة أمير المؤمنين ﷺ، نلفت نظر القارئ العزيز إلى أن ابن طاووس الحلي قد انبرى في تصنيف كتابين جليلين، هما: (اليقين باختصاص مولانا علي ﷺ بإمرة أمير المؤمنين)، و (التحصين لأسرار ما زاد من أخبار اليقين)، فقد شحنها وحشدهما بالروايات المتواترة سندًا، والمضبوطة متنًا ودلالة في إمامة أمير المؤمنين علي ﷺ، وألقابه وأحواله كافة.

وعود على بدء فالعقل آلية حضورية ومقياس فعال في التحكم في الأقوال والأفعال؛ والتكاليف العامة في الفقه هي الواجبات والمحرمات، والتكاليف المعمقة هي المستحبات والمكروهات، وهي التي تربي الفرد في خطوة أعلى من مجرد الالتزام بما هو إلزامي في الشريعة، فتكون المستحبات والمكروهات الفقهية هي أحكامًا أخلاقية بطبيعتها^(٢)، وقد تنبه ابن طاووس في خطابه الأخلاقي للعلاقة القوية ما بين التكليف والأخلاق؛ لأن شروطها متقاربة جدًا، فمن هذه الشروط التي أوردها ابن طاووس أن يكون المكلف عاقلًا، ومن هنا فقد وصى ابن طاووس ابنه بالاحتفال سنويًا بسن التكليف بوصفه كمال العقل فعيد ميلاد المرء عند ابن طاووس ليس بيوم ولادته، وإنما بكمال عقله وهو سنّ التكليف، قال: «فإذا وصلت إلى الوقت الذي يشرّفك الله ﷻ يا ولدي محمد بكمال العقل، وهو ﷻ أهل من استصلاحك لمجالسته ومشافهته، ودخول مقدّس حضرته لطاعته، فليكن ذلك الوقت عندك مؤرخًا محفوظًا من أفضل أوقات الأعياد وكلما أوصلك عمرك المبارك إليه في سنة من السنين فجدّد شكرًا، وصدقات

(١) كشف المحجة لثمره المهجّة: ٣٨.

(٢) ينظر: فقه الأخلاق: ٢٠ / ١.

الخط الأخلاقي ورعاية التكاليف

وخدمات لواهب العقل الدال لك على شرف الدنيا والمعاد... وإن بقيت حيًّا على ما عودني الله ﷻ من رحمته وعنايته، فإنني أجعل يوم تشريفك بالتكليف عيدًا أتصدق فيه بمئة وخمسين دينارًا عن كل سنة بعشرة دنانير»^(١).

ومن هنا فإن صلة التكليف بالأخلاق عند ابن طاووس يمكن إرجاعه إلى أن الأحكام الشرعية هي أحكام ذات صبغة أخلاقية واضحة، فضلًا عن أن دائرة الوجوب تشمل ما هو أوسع من الوجوب الشرعي، مثل وجوب المحافظة على النظام، أو حتى الوجوب الذي يمليه المجتمع نتيجة أعراف معينة، ففي جميع هذه الأحوال يكون الإنسان مأمورًا ومكلفًا أمام الجهة الموجبة وإلا تعرض إلى العقاب كل بحسبه.

وقد ربي ابن طاووس آلية العقل هذه على روح الاستقلال في الفهم والنظر، وأتباع البرهان ونبد التقليد، ويتجلى ذلك واضحًا بوصيته لابنه راسمًا له بأسلوب بديع الصراع السرمدى بين العقل من جهة، والهوى، والشيطان من جهة أخرى وذلك في رفضه ورده على من أشار عليه أن يكون حاكمًا بين المتخاصمين على عادة الفقهاء والعلماء من السلف الماضين ومُصلحًا لأُمور المتحاكمين، يقول: «فقلت لهم إنني قد وجدت عقلي يريد صلاحي بالكلية؛ ونفسي وهواي والشيطان يريدون هلاكي بالاشتغال بالأمور الدنيوية، وأنا قد دخلت بين عقلي ونفسي والشيطان وهواي على أن أحكم بينهم بمجرد العدل ويتفقون كلهم مع العقل فلم يتوافقوا على الدوام على صواب هذه الأحكام وقال لسان حال العقل إنه لا يجوز أن يكون تبعًا لهم على الهلاك والجهل وما تهيأ في عمر طويل أن أحكم بين هذين الخصمين أو أصالح بينهم مصالحة تقرُّ بها العين وينقطع معهم المنازعات والمخالفات فمن عرف من نفسه الضعف عن حكومة واحدة مدة من الأوقات كيف يقدم على الدخول فيما لا يحصى من الحكومات»^(٢) ثم يقول

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ٨٦.

(٢) م. ن: ١٦٥.

الفصل الثاني

مُسْتَلْهِمًا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجن: ٢٣]: «وَقُلْتُ لَهُمْ انظُرُوا مَنْ اتَّفَقَ عَقْلُهُ وَنَفْسُهُ وَطَبْعُهُ وَهَوَاهُ وَقَوِيَ عَلَى الشَّيْطَانِ وَصَارُوا كُلُّهُمْ يَدًا وَاحِدَةً فِي طَلَبِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضَاهُ وَتَفَرُّغٍ مِنْ مَهْمَاتِهِ الْمُتَعِينَةِ عَلَيْهِ فَتَحَاكَمُوا عِنْدَهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَادِرًا بِتِلْكَ الْقُدْرَةِ عَلَى فَصْلِ الْحُكُومَاتِ وَالْمَصَالِحَاتِ إِذَا حَضَرَ الْخُصُومَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاعْتَزَلْتُ يَا وَلَدِي مُحَمَّدٌ عَنْ رِيَاسَةِ هَذَا الْبَابِ، وَرَأَيْتُ فِي اللَّهِ ﷻ وَنَفْسِي شُغْلًا شَاغِلًا بِمُقْتَضَى حُكْمِ الْأَلْبَابِ»^(١).

فهو بهذا يسمو بعقله ويرفع من مكانته مثل أولي العقول الذين قال فيهم الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، [الزمر: ١٨].

وأنضح ابن طاووس الحلي الخطاب الأخلاقي بلحاظ العقل ممَّا يتوصل به إلى تهذيب النفس وتقوى الله ﷻ، فجعله حكمًا في ذلك، قال: «ومن مهمات الذي يريد الصلاة أن لا يدخلها كارهاً ويخرج عنها مستقيلاً، وإياك أن تقبل قول مَنْ يقول لك: إنها تكليف، والتكليف ثقیل على القلوب، فإنَّ هذا القول بعيد من رضى علام الغيوب «يقول ﷻ: ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] فترد أنت عليه هذا القول المقدس الصريح في القرآن وتقول أنت بخلاف ذلك وتقدم على البهتان أيقبل عقلك أنه ﷻ يريد منك أن تحبه ﷻ وتدعي أنك قد أحببته ﷻ، وتكره خدمته والتقرب إليه، فهل يصح في العقل أن المحب يستثقل العمل في طلب رضا محبوبه أو يكره شيئاً ممَّا يقربه إليه؟»^(٢)، ولا يخفى أن ابن طاووس

(١) كشف المحجة لثمره المهجعة: ١٦٥.

(٢) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٢٨٣.

الخطب الأخلاقية ورعايتها التدرجية

قد وصّى ابنه في ضبط هذه الآلية - كمال العقل - من أجل الوصول إلى الأهداف المبتغاة والنتائج المرجوة وإنّ سوء استعمال هذه الآلية يؤدي إلى نتائج غير محمودة.

ويمكننا القول: إنّ خطاب ابن طاووس لم يكن عاطفياً غير علمي، ولا يرتقي إلى مستوى معالجة الأوضاع الحرجة والملحة للمسلمين في عصره، فكان بصيراً بالمجتمع وأحواله؛ بمعنى أنّه كان خطاباً عقلانياً واقعياً لا يعيش بعزلة وانطوائية بعيدة عن الواقع، فهو خطابٌ أصيلٌ كاملٌ ينتسب إلى العمق الاسلامي.

ونطوي فقرات هذه السمة بأنّ الخطاب التهذيبي الأخلاقيّ الاستشهاديّ يعلو على الخطاب النقدي الاستدلالي، فأساسه قاعدة (اعتقاد القول حتّى يقوم الدليل على بطلانه)، وما ذاك إلّا لأنّ مجال العقلانية الاعتقادية هو عالم القيم، فلو أنّها طبّقت على الوقائع؛ لأنزلت القانون الطبيعيّ منزلة الأمر التشريعيّ متعاملةً مع الأدنى بما ينبغي أن يعامل به الأعلى في حين أنّ العقلانية الإنكاريّة مجالها عالم الوقائع، فلو أنّها طبقت على القيم، لأنزلت الأمر التشريعيّ منزلة القانون الطبيعيّ متعاملة مع الأعلى بما ينبغي أن يعامل به الأدنى^(١).

(١) ينظر: الخطاب الإسلاميّ إلى أين؟ حوارات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبد الرحمن):

الفصل الثاني

المبحث الرابع

تعقيب الخطابات الإنشائية

إنَّ الخطاب الأخلاقيَّ قد تأسَّس عنده على بنية الإيقاعات، وتعدَّد المعطوفات، والجمال التقريرية الطويلة القائمة على التأمل والاعتبار، أو على أساس - كما قلنا آنفًا - الاقتباس من الآيات القرآنيَّة والأخبار، لذلك فإنَّ خطابه الأخلاقي، ولاسيَّما وإنَّ أدعيته صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وما تحليل ابن طاووس للنفس الإنسانيَّة ومحاولة مغازلتها وملاطفتها إلَّا ليُجعل كلَّ قارئٍ مهتمًّا به كأنَّه هو المخاطَب (المتلقِّي)، فهو يُشرك القارئ ويحاوره في ضوء التقنيات الحوارية (اعلم أنَّ... قيل... لعلَّك تقول...، فإنَّ قلت...) وغيرها من العبارات وهي استراتيجية خطابية يستحضر في ظلِّها القارئ بمختلف مراتبه المعرفية وتوجهاته العقديَّة والذهنيَّة؛ لإقناعه وإمتاعه وبثِّ الروح الأخلاقيَّة والإيمانيَّة فيه، فهو خطاب يُقرأ في كلِّ العصور، ولم يُنتج ليُقرأ في عصره.

من سمات الخطاب الأخلاقي الطاووسيَّ تعقيب الأساليب الإنشائيَّة وتلاحقها في نصوصه المختلفة، وهو ملمحٌ أسلوبِيٌّ ظاهرٌ، توَسَّل به ابن طاووس من أجل تكشيف الدلالات واستظهار المعاني فضلًا عن ذلك إيراد إيصال الشحنات والطاقات التعبيرية بكامل تعجيلها وزخمتها؛ رغبة منه في الوصول إلى أقصى غايات التواصل والتحوُّر والإبلاغ مع المتلقين.

وَعَى ابن طاووس نجاح خطابه الأخلاقي، وتحقق دلالات أفعال الكلام في ظلِّ تعاقب الأساليب الإنشائية سواء أكانت طلبية أم غير طلبية (أمر، نهي، استفهام، نداء، تمني)...

الخطب الإخلاقيَّة والعبادَةُ التَّكْوِينِيَّة

وهذا ملمحٌ أسلوبِي مهم من أجل توالي الإيقاعات، واقتناص الدلالات المختلفة بوصفه نقيباً للطالِبِينَ حينما يوجهه للناس أجمع، وبوصفه أباً حينما يوجهه إلى أهله وذويه، قال واعظاً ولده لاستلْهام العبر من التاريخ ومآل الإنسان: «واعلم يا ولدي محمَّد أنني كنتُ يوماً أنظر في كتاب من التواريخ المذكورة، فقال لي قائل: في أيِّ شيء تنظر؟ فقلت: أنا في حياة، وبين قبور أنظرُ إلى قوم بيننا هم في سرور وغرور إذ هجم عليهم هادم اللذات ومفرق الجماعات وصاحب الشتات فنقلهم إلى محلَّة الأموات وقطَّعهم عمَّا كانوا فيه من اللذات، وصاروا في ذل الحسرات وأسر الندامات»^(١).

وقال مبيِّناً أن الله رقيب بعباده محدِّراً أهله جميعهم بالإقلال من مخالطة الناس؛ لكونها تشغل المرء عن ذكر الله ﷻ والتفرغ للعبادات: «واعلم يا ولدي محمَّد ومن بلغه كتابي هذا من ذريتي وغيرهم من الأهل والإخوان علِّمك الله ﷻ وإياهم ما يريد منكم من المراقبة في السر والإعلان أن مخالطة الناس داءٌ معضِّلٌ، وشغلٌ شاغلٌ عن الله ﷻ مذهل، وقد بلغ الأمر في مخالطتهم إلى نحو ما جرى في الجاهلية من الاشتغال بالأصنام عن الجلالة الإلهية فاقبل يا ولدي من مخالطتك لهم ومخالطتهم لك بغاية الإمكان فقد جربته ورأيتَه تورث مرضاً هائلاً في الأديان»^(٢)، ويظهر تلاحق الأساليب الإنشائية في الخطب الطاووسي في حثِّه على الاقتداء بسنة المصطفى ﷺ قولاً وفعلًا وتقريرًا وهي جماع الأخلاق والآداب لديه ﷺ: «أقول أنا: أيُّها المسلم المصدق بالقرآن، الممثل لأمر الله ﷻ، إياك أن تخالف قوله تعالى في رسوله: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] اسلك سبيل هذه الآداب، فإنَّها مطايا وعطايا يفتح لها أنوار سعادة الدنيا ويوم الحساب»^(٣)، فتلاحقت أساليب: النداء (أيُّها)، وأسلوب التحذير (إياك)،

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٢٩.

(٢) م. ن: ١٠٢.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١ / ٢٤٥.

الفصل الثاني

والأمر (اسلك)، فتعدد هذه الأساليب في النسق الطاووسي، يعطي شحنات تعبيرية وإيحائية للمخاطب من أجل إثارة انتباهه وإبلاغه.

ومن الخطابات الأخلاقية الطاووسية التي توافرت على تلاحق الأساليب الإنشائية، قوله في إظهار الصبر في استجابة الدعاء: «وإذا تأخرت عنك إجابة الدعاء وبلوغ الرجاء فابك على نفسك بكاء من يعرف أن الذنب له، وأنه يستحق لأكثر من ذلك الجفاء، فكَم رأينا - والله - يا ولدي عند هذه المقامات من فتوح السعادات والعنايات ما أغنانا عن سؤال العباد وعن كثير من الاجتهاد»^(١)، فنلمح تلاحق الأساليب الإنشائية: الاستفهام (كَم)، والقسم (والله)، والنداء (يا ولدي)؛ من أجل قوة الخطاب واستظهار الدلالات المتنوعات للوصول إلى المقاربات التداولية التي تساعد على إحداث التواصل والإبلاغ.

ونقدح بتعاقب الأساليب الإنشائية وتلاحقها في الخطاب الأخلاقي الطاووسي النصوح حينما دعا المخاطب إلى الاقتداء بآثار الصالحين والاهتداء بأنوارهم، وعدم تضييع الوقت باغتنام الغفلة وطلب الشهوة، قال: «أيها العبد المسكين هل يصح أن يكون الله ﷻ ما يحبك وتكون من المسلمين انظر في شفاء سقام قلبك ودينك فداؤك عظيم دفين وهلا اهتديت فاقترديت بمن تذكر أنك تهتدي بأنواره وتقتدي بآثاره وكيف كانت أحوالهم في ليلهم الذي تضييعه أنت باغتنام الغفلات وطلب الشهوات كأنك دابة قد رفع عنها حكم التكاليفات»^(٢)، فلا يخفى تلاحق الأساليب الإنشائية وتعقيبها في النسق الأخلاقي الطاووسي المتمثل في النداء (أيها العبد المسكين)، والاستفهام (هل يصح؟)، والأمر (انظر)، والتحضيض (هلا اهتديت)، وهذا التلاحق يعطي دلالات متنوعات من أجل قوة الخطاب والوصول إلى أعلى درجة من درجات تنبيه المخاطب وإيقاظه.

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٧٣.

(٢) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٢٦٤، ٢٦٥.

الخطب الأخلاقية والعبادة التذليلية

لاريب أن الخطاب الأخلاق الطاووسي قد آنس تلاحق الأساليب الإنشائية وتعقيها، وإذا تأملت خطابه في العبادات، ولاسيما الصلاة، رأيت هذه الملاحقة الإنشائية الجميلة، قال: «فاعلم: أنما تستدعي لك الحضور بين يدي مالك الأحياء والأموات فبادر إليها بالتشريف والاستبشار بتلك العناية، واترك كل شغل لا يعذرك الله ﷻ في الاشتغال به عنها فإنه يصير ذلك الشغل مخالفة على مولاك وتصغيراً لأمره وتحاطر مخاطرة لا تأمن أنك لا تسلم منها ولا تلتفت إلى قول من يسهل عليك تأخيرها عن أوائل الأوقات وجرب ذلك القائل لو كلفك حاجة وأخرتها عن أوائل قدرتك أفما يكون يلومك، ويشهد أنك مستحق للمعائب؟، وما تعرف حق المودات، ولكنهم جاهلون بالله ﷻ وعظمته ونعمته فيريدون منك أن تحترمهم أكثر من احترامك لجلالته وأن تكون محبتك ومودتك لهم أكثر من محبته، فيألك أن تقتدي بهم في التهوين بمولاك فقبيح وعظيم وفظيع أن يساوي العبد بالمولى، وخاصة وهو يراك»^(١)، إذ ابتدأ الخطاب بأسلوب الأمر (فاعلم، فبادر، واترك)، والنهي (لا تأمن، لا تسلم، لا تلتفت)، ثم لاحق ابن طاووس النهي الأمر (جرب)، والاستفهام (أفما يكون؟).

إن أي أسلوب بلاغي - كما يقول الدكتور حسين جمعة - مهما قيل فيه قديماً وحديثاً «إنما هو بنية لغوية دلالية مباشرة وغير مباشرة، يحمل وظائف الإثارة والإمتاع في الوقت الذي يحمل وظيفة التوصيل والإفادة بنقل الأفكار، ولهذا فوظيفة الأسلوب البلاغي ذات وجوه متعددة...، فالأسلوب البلاغي بوصفه ظاهرة بلاغية، تجمع بين عناصر الأدب والفن واللغة والحياة في بنية فنية مثيرة للعاطفة والوجدان والعقل»^(٢).

وتزايد وتعالى سمة تلاحق الأساليب الإنشائية وتتلعلع في خطابه الأخلاقي المجلجل في حثّه ولده على أداء الزكاة: «لا بالله يا ولدي لا تفضحني ولا تفضح نفسك

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ١٤١.

(٢) جمالية الخبر والإنشاء دراسة جمالية بلاغية نقدية: ١٧.

الفصل الثاني

مع الله ﷻ المنعم عليّ وعليك ولا تنجلنا معه ومع سلفك الطاهرين، واعتقد المنة لله ربّ العالمين كيف أكرمك وسلّم ماله إليك؟ وكيف رضيك مُستودعاً؟ وكيف جعلك أهلاً أن يبعث رسوله ﷺ إليك، فإنّ العقل قضى أنّه إذا كان عندي وديعة لسيّدي، وأنا عبده وهو ﷻ يقوم بكلّ ما أحتاج إليه وطلبها إنني أسلمها إليه ولا أطلب جزاء منه ولا أذلّ بذلك عليه بل يكون قد خفّف عني مؤونة حفظها ورعايتها وشرفني بجميل ذكرى بتأدية أمانتها»^(١)، إذ ابتداء الخطاب بالقسم (بالله)، فالنداء (يا ولدي)، فالنهي (لا تفضحني، لا تفضح، لا تجعلنا، فالأمر (اعتقد، سلّم)، ثم الاستفهام (كيف أكرمك؟، كيف رضيك؟، كيف جعلك؟)، يقيناً أنّ التكثيف الإنشائي في هذا الخطاب فضلاً عن وظيفته الأخلاقية يتّجه إلى السمة الجمالية المثيرة للدهشة، والانفعال والإدراك^(٢).

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٣٤.

(٢) جمالية الخبر والإنشاء دراسة جمالية بلاغية نقدية: ١٦.

الفصل الثاني

المبحث الخامس

تخير الألفاظ

إنَّ أساس الفعل الكلاميَّ في أيِّ اتِّصالٍ يعدُّ الاختيار أساس نجاح الرسائل الإبداعية، مهما تنوّعت تجلياتها، ويعدُّ هذا من الآليات التي تكشف عنها التداولية، يقول أبو هلال العسكري: «ومن الدليل على أنَّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنَّ الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما عُمِلت لإفهام المعاني فقط؛ لأنَّ الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الإفهام، وإنَّما يدلُّ حسن الكلام، وإحكام صناعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم المنشئ»^(١).

وهو على صلة بالخطبة في حدِّ ذاتها؛ إذ تقتضي انتقاء الكلمات التي تجعل المستمع أكثر متابعة، فمن «تمام آلات البلاغة التوسّع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها؛ والعلم بفاخر الألفاظ، وساقطها، ومتخيرها»^(٢)، والتخير ههنا يومئ إلى التنوع في استعمال اللفظ بحسب المقام من جهة والمتلقين من جهة أخرى، بلحاظ أنَّ السامعين تختلف مستوياتهم لذلك يخاطبهم بحسب درجاتهم، فأساس بناء الخطاب يقتضي التدبّر والتحقيق في اختيار الألفاظ ليسهم في رونقة الكلام، وجريانه مجرى السيل، ومن الكلام الجاري مجرى السيل وهو على صلة بالخطاب في حدِّ ذاته؛ إذ تقتضي انتقاء الكلمات التي تجعل المستمع أكثر متابعة، والتخير ههنا يومئ إلى التنوع في استعمال اللفظ بحسب

(١) كتاب الصناعتين: ١ / ٥٨، وينظر: الاتصال اللساني وآلياته التداولية: ١٠٣.

(٢) كتاب الصناعتين: ١ / ٢١.

الخطب الاخلاقي وعبادة التذلل

المقام من جهة، والمتلقين من جهة أخرى؛ لكون السامعين تختلف مستوياتهم لذلك يخاطبهم بحسب درجاتهم.

وسنعرض نصوصاً أخلاقية طاووسية تتجلى فيها هذه السمة، من ذلك وصيته لابنه في حفظ الجوارح وأداء حقوقها، قال: «واعلم أن جوارحك بضائع معك لله عز وجل؛ وأمانات جعلك تاجرًا فيها لنفسك ولاخرتك فمتى صرفتها في غير ما خلقت له من الطاعات والمراقبات أو أنفقت وقتًا من أوقاتك في الغفلات، كان ذلك الخسران عائدًا إليك بالنقصان ومثمرًا أن يعاملك سيدك بالهجران واستخفاف الهوان»^(١)، فنلمح الإتيان في تختيار الألفاظ ذات الدلالات المتقاربات تداوليًا، كأنها تتنظم في حقل دلالي، (بضائع، أمانات، تاجرًا، صرفتها، أنفقت، الخسران، النقصان، يعاملك).

وتتجلى سمة تختيار الألفاظ في بيان أثر الإخلاص والتأدب مع الخالق عز وجل لضمان إجابة الدعاء مبيّنًا - ابن طاووس - تقنية الحجاج في قبول الدعاء، قال: «فبالله عليك كيف ترجو وأنت مستخف في الفعال والمقال أن تظفر بإجابته الابتهاال؟ فهل رأيت عاصيًا يتقرب إلى سلطانه بعصيانه أو طالبًا يتقرب إلى من يطلب منه بهوانه»^(٢)، فلا تخفى الذائقة الطاووسية في اصطفاء ألفاظ يجمعها نسقًا صوتيًا واحدًا (الفعال والمقال، عاصيًا طالبًا، سلطانه عصيانه، هوانه)، وقال في موضع آخر: «إني متوسل إلى من لا يتعاضمه ذنوب أن يغفرها ولا عيوب أن يسترها ولا عثرات أن يقيّلها ولا كربات أن يكشفها ويزيلها بجميع ما ذكرته من الوسائل المنجحة للمسائل في أن يقبل مني ما سألته»^(٣)، فاصطفى ابن طاووس ألفاظًا يجمعها نسق صوتي واحد (يغفرها، يسترها، ذنوب، عيوب، عثرات، يقيّلها، يكشفها، يزيلها)، (الوسائل، المسائل).

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ١٢٠.

(٢) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٤٨.

(٣) م. ن: ٣٣١.

الفصل الثاني

وتأمل معنا أيها القارئ الحبيب دعاء ابن طاووس، الذي ختم به كتابه مهج الدعوات ومنهج العنايات، ممّا جاء على خاطره، قال: «اللّهم إنك ابتدأت بالإحسان قبل منطق اللسان وفتحت أبواب الآمال وتفضلت بالنوال قبل السؤال ودلّلت على عفوك ذوي الألباب وأذنت لهم في محكم الكتاب بالخطاب ثم أمرتهم بالدعاء ووعدتهم بنجاح الطلاب وهددتهم أن لم يسألوك وثقتهم عن الجواب وها أنا ذا امتثل مقدس مراسمك في التعرض لما وعدت من مراحمك واثقاً بشهادة العقول أنّ الكريم الجواد إذا أذن في السؤال ووعد بالقبول فإنّه ينزه كماله عن التوقف في المسؤول به وهو قادر على بلوغ المأمول»^(١).

تجد الاصطفاء الحسن والاختيار المدروس للألفاظ، ويبدو أنّ المكنز الثقافي الواسع من جهة، وقلبه الأخلاقيّ الكبير قد ظهر في هذا الاصطفاء الأدبي والتربويّ، و يتجلّى هذا الاصطفاء في (ابتدأت، فتحت، تفضّلت، دلّلت، أذنت، وعدت، هدّدت)، (الإحسان اللسان، الآمال، النوال، السؤال)، (مراسمك، مراحمك، العقول، القبول، المسؤول، المأمول).

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٦، ٣٢٧.

الفصل الثاني

المبحث السادس

مزية الفضاء (الزمكاني)

اعتنى ابن طاووس بالجانب الدعائي عنايةً كبيرةً في مصنفاته قياساً بالتصنيف في سائر الجوانب الأخرى، فأضحى الدعاء الصفة الغالبة في مصنفاته؛ لكون الدعاء يركّز على المعرفة الأخلاقية والقيم الإنسانية النبيلة، فالدعاء منهجٌ ارشاديٌّ يستعمل التكرار، ومعالجة السلوك بأصداده، وإثارة العاطفة والتنفير من الرذيلة، والترغيب في الفضيلة، ويستعمل أسلوب الوقاية والمعالجة في تربية الشخصية العبادية وتعديل سلوكها، كما أنّه يشكل مناخاً تربوياً مناسباً من شأنه تهذيب الأمة الإسلامية بأطيافها كافة، والدعاء مقدمة للقرب الإلهي، فهو بنفسه أيضاً يعدّ من أبرز مصاديق التقرب الإلهية، إذن هو مقدمة وهو خاتمة بنفسه.

إنّ العبد إذا طلب من الله ﷻ أحسنّ بالعزة؛ لذلك فالدعاء طلب ومطلوب، وسيلة وغاية، لم يجب أولياء الله شيئاً أكثر من حبّهم الدعاء، فكانوا يعرضون كلّ طلباتهم، وأمانيتهم على محبوبهم الحقيقي، وهم يولون طلباتهم من الأهمية بالقدر الذي يولون لنجواهم مع الله ﷻ دون أن يحسّوا بتعب ولا نصب^(١).

ومن المزايا المهمة للخطاب الطاووسي الأخلاقيّ ولاسيما الجانب الدعائي مزية الفضاء وهو تمثل (أيقوني)، وبيانه أنّ الإنسان يدرك العالم إدراكاً بصرياً، فالإنسان يرجع العلاقات اللغوية إلى أشياء بصرية، ومن هنا يمكن عدّ المبدأ الأيقوني، والصفة البشرية من أهمّ الأنساق اللغوية الأصلية^(٢).

(١) ينظر: محاضرات في الدين والاجتماع: ١١٩.

(٢) ينظر: مشكلة المكان الفني: ٦٨ الأيقون: الصورة أو المثال.

الخطب الأخلاقية والعبادة التذلُّولية

وقد رسم لنا ابن طاووس صورًا فنية تستمد زخها الدلالي من سياقها التاريخي، فأوضحت أدعيته ومناجائه ووصاياه ورسائله مسبارًا يكشف عن تعلقاته النفسية والروحية بالخالق العظيم في ظل ربطها بالأنساق الزمائية والمكانية، مما جعلها كمشارط الجراحين تدخل في أعماق طبقات النفوس.

إنَّ الفضاءات في خطاب ابن طاووس الأخلاقي ولاسيما في الدعاء، قد أحدثت صحوة ارتدادية في نفس المتلقي فتحول الخطاب لديه إلى وسيلة وآلية موجهة إلى المتلقي ينصر المظلوم ويفضح الظالم، زد على ذلك يحاول إلقاء الاطمئنان والسكينة في نفس المخاطب من جهة، ويحذّر من التكاسل والتهاون في عمل الخير من جهة أخرى، فالدعاء له أثر كبير في نشر الأخلاق الإسلامية السامية، إذ يُعدّ من الأساليب المؤثرة في هذا المضمار، والقرآن الكريم يقرّر حقيقة أنَّ الدعاء طريق ارتباط العباد بالله ﷻ، ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فنبه ﷻ على أنَّ ترك الدعاء استكبارٌ عن عبادته، وسبب لدخول النار والعذاب المهين^(١).

والدعاء ليس فقط سبيل للنجاة، بل هو أيضًا سبيل للوصول إلى المراتب العليا من الكمال، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، «إِنَّ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً لَا تُنَالُ إِلَّا بِمَسْأَلَةٍ»^(٢)، كما أنَّ الاستكبار وترك الدعاء، يؤديان إلى أن يفقد الإنسان استعدادَهُ وقابليته لتقبُّل الرحمة الإلهية.

وقد نهج ابن طاووس في خطابه الأخلاقي ولاسيما في الدعاء منهج مدرسة أهل البيت عليه السلام، فقد تضمَّنت الأدعية مقاطع مهمة وخاصة فيها توسل واستشفاع ترتبط

(١) ينظر: فلاح السائل ونجاح المسائل: ٦٨.

(٢) الكافي: ج ٢ / حديث ٤٦٦.

الفصل الثاني

بأنساق زمانية ومكانية داعياً العبد أن يكون متحفظاً من السيئات بخلاف ما لا يجري مجراها من الجهات والأوقات، فإنه ينبغي تعظيمه بحسب الأوامر الشرعية فهو يُعنى بفضاء الأماكن المكرمات: المسجد الحرام، والكعبة، ومسجد النبي ﷺ، وبيت المقدس، والمشاهد المشرفة، والمساجد المباركات، وكلّ موضع أتي بتعظيمه سواءً في القرآن الكريم، أم في الأحاديث النبوية، والروايات الصادرة عن أهل البيت عليه السلام^(١).

ويعيّن الأزمنة المتبرّكة؛ استناداً للآيات وبعض الروايات مثل ليلة الجمعة، وليلة القدر، وشهر رمضان، والأشهر الحرم، والأيام المعلومات، والأيام المعدودات، وغيرها من الأوقات المحترّمة^(٢)؛ و(عند زوال الشمس، وعند الأذان، وفي أول ساعة من ظهر يوم الجمعة، وفي آخر ساعة من يوم الجمعة وفي الثلث الأخير من كلّ ليلة وفي ليلة الجمعة كلّها وعند نزول المطر وبعد فرائض الصلوات وعقيب صلاة المغرب إذا سجد بعدها وعند وقت الخشوع وعند وقت الإخلاص في الدموع إذا بقي من النهار للظهر نحو رُمح كلّ يوم)^(٣) و من ذلك أيضاً (دعوات ليالي القدر الثلاث وخاصة أنّ علمها أحد بذاتها وإلا فإنّ ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان أرجح في تعظيم الدعوات وإجابتها فمن ذلك أيام هذه الثلاث ليالي ومن ذلك يوم مولد النبي ﷺ وليلة مبعثه الشريف ويومه ومن ذلك يوم عرفة وليلة عرفة وخاصة إذا كان بالموقف أو عند الحسين عليه السلام، ومن ذلك ليالي الأعياد الثلاث وأيامها وهي ليلة عيد الغدير ويومه وليلة عيد الفطر ويومها وليلة عيد الأضحى ويومها ومن ذلك أوّل ليلة من رجب ويوم النصف منه وليلة النصف من شعبان)^(٤) ومن ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - ما

(١) ينظر: محاسبة الملائكة الكرام: ٣٦٦.

(٢) ينظر: م. ن: ٣٦٦.

(٣) ينظر: مهج الدعوات ومنهج العناية: ٤٣٣.

(٤) ينظر: م. ن: ٤٢٦.

الخطب الإخلاقي وأبعاد التكاليف

نقله عن كتاب الأزمنة للمرزباني عند ذكره ليوم الاثنين والخميس، أن رسول الله ﷺ كان يصوم يوم الاثنين والخميس، فقليل له لم ذلك؟ فقال عليه السلام: إن الأعمال تُرفع في كل اثنين وخميس، وأحبُّ أن يُرفع عملي وأنا صائم^(١)؛ وإزاء ذلك فإن ابن طاووس يدعو الناس إلى أن يكونوا متحفظين بكل طريق، في طلب التوفيق، وإن يكونوا مجتهدين في السلامة، من الإضاعة، بغاية الإمكان، فإن العقل والنقل يقتضيان: أن زمان عرض العبد على السلطان، أن يكون مستعداً ومستحفظاً بخلاف غيره من الأزمان، ويذكر اللحظات التي يستجاب فيها الدعاء مثل سقوط المطر ووقت السحر، وعندما يوجد الإنسان بنفسه (يحتضر)؛ ومن يقرأ مؤلفاته يجد هذا التناغم؛ فهو يحترم ويحتكم كثيراً إلى المناسبات ويستند في تعيينها إلى الروايات الصحيحة، والدقة في النقل فضلاً عن ذلك يفصل في أعمال الليلة وغيرها.

كان على خطى أهل النبوة في معرفة الله تعالى في تركية النفس وعرفانها، فأدعية الليل والنهار والأذكار الأسبوعية السنوية، والأذكار الفصلية، كل ذلك منسوب بأوراد فهو ليس مخترعاً ولا مبتدعاً، وكان عرفانياً في تهذيب النفس تبعاً لما ورد عن النبي ﷺ فأعماله ورياضاته شرعية، وليس الجلوس في الظلمات، وتكرار بعض الكلمات في العزلة والغرف المظلمة؛ وعرفانه عرفان الإمام زين العابدين عليه السلام ورياضاته رياضات الصحيفة السجادية أدعية وأذكار مفاتيح الغيب، الأوقات الشرعية، الأعمال المسنونة، زيارة الأئمة عليهم السلام إلى مراقدهم ومقاماتهم، كان للعرفان الطاووسي ميزة عظيمة، ومزية كبيرة، أدعيته وأوراده طبقاً للموازن الشرعية للأئمة عليهم السلام، فوق الأرض لا تحتها، جهاراً لا سراً، لا يتكلف لا يغمض، لا يعمي العبارات؛ والألفاظ في غاية الوضوح والبيان لا يتمم ولا يغمض ولا يُلْس؛ فتهذيب النفس وتهذيب الآخرين مأخوذ من القرآن الكريم، والمصطفى ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام.

(١) ينظر: محاسبة الملائكة الكرام: ٣٥٨. و بحار الأنوار: ٥٩ / ٤٩ حديث ١٠.

الفصل الثاني

المبحث السابع

التقابلات الدلالية

التقابل في اللغة: «تقول لقيته قبلاً: أي مُوَاَجَهَةً، والمَقَابَلَةُ: إذا ضمنت شيئاً إلى شيء، تقول: قَابَلْتُهُ بِهِ»^(١) وعند ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ): - «القاف، و الباء، واللام): أَصْلٌ واحدٌ صحيحٌ؛ تدل الكلمة كُلُّهَا على مُوَاَجَهَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وَيَتَفَرَّعُ بعد ذلك»^(٢).
أمّا في الاصطلاح، فلا يخرج المعنى عن معناه اللغوي فتظهر معاني متقاربات، منها: التضاد، والطباق، والمقابلة، والتكافؤ... وغيرها، وقد جمعها العلوي (ت ٧٤٩ هـ) في طرازه، بخمسة مصطلحات، هي: التطبيق، والتضاد، والتكافؤ، والطباق، والمقابلة، مفرّقاً بين الطباق والمقابلة بأن التضاد إذا كَثُرَ سُمِّيَ مقابلةً^(٣).

انطلق ابن طاووس في خطابه الأخلاقي من نسق تصوري مهم قائم وواضح على التقابلات الدلالية، قال في دعاء العبرات، وهو من الدعوات المذخورة، والأسرار المستورة بدعاء أورده الله ﷻ على خاطره، وهو المنشئ للسرائر، والمالك للبصائر، قال: «وقد علمت أني أعصيك فيما لا يزال صغيراً وكبيراً ظاهراً ومستوراً وبالمراحم والمكارم التي نقلتني بها من ظهور الآباء إلى بطون الأمهات»^(٤)، فتلمح تقابلاً دلاليّاً ذات علاقة ضدية بين، (صغيراً - كبيراً)، (ظاهراً - مستوراً)، (ظهور الآباء - بطون الأمهات)،

(١) العين (مادة قبل): ١٦٨ / ٥.

(٢) مقاييس اللغة (مادة قبل): ٧٣٣ / ٥.

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٣٨٢.

(٤) مهج الدعوات ومنهج العناية: ٣٢٦.

الخطب الاخلاقي وبعائده التذليلية

وقال: «واضرهم بتكرار أخطار البلاء والابتلاء حتى يقدموا عليك وقد خسروا سعادة الدنيا والآخرة وأتلفوا ما ظفر به السعداء من النعم الباطنة والظاهرة»^(١)، فالتقابل الدلالي بين (الدنيا - الآخرة)، و (الباطنة - الظاهرة) ذو علاقة ضدية.

ونلمح هذه العلاقة في أغلب خطباته الأخلاقية كما هو الحال في التقابل بين (الحياة والموت)، و (الإقبال والإدبار)، و (عجزنا وظفرنا)، و (الأوائل والأواخر)، و (حار وبارد)، و (رطب ويابس)، (يؤذي، يخون)، (يصفو، يتكدر)، (يستر، يجاهر)، (يتقرب، يتباعد)، (البانون، المفطرون)، (يحسن، يسيء)، (يقبل، يعرض)، قال ابن طاووس موصياً ابنه بأن يكون أهلاً لاستقبال نعم الله ﷻ قال: «ثم جعلك الله ﷻ يا ولدي محمد وسائر المكلفين أهلاً أن يكتب إليكم كتاباً من مقدس جلالته وعظيم ربوبيته مع غناؤه لذاته عن خليقته وأن يبعث رسلاً من نوابه وأنبيائه وخاصته ولم يكن بنو آدم في مقام أن يبلغ حالهم إلى هذا المقام من كرامة ثم بلغ الأمر بين الله ﷻ والقادر القاهر مالك الأوائل والأواخر وبين بني آدم الضعفاء والأذلاء الأصاغر الذين انتظم حال وجودهم من تراب وروح كالهواء إلى أن بنى لهم الدنيا قبل معرفتهم به وخدمتهم له وفيها ما هم إليه محتاجون وما أتعبهم في بنائها وإنشائها ولا كانوا ممن يقدرُونَ، فلا يعترفون ولا يشكرون حتى كأنهم البانون لها والفاطرون، ثم يحسن ويسئون ويقبل فيعرضون ويعدهم فلا يتقون ويتقرب إليهم فيتباعدون ويتحب إليهم فيكرهون ويؤذي الأمانات إليهم فيخونون ويصفو معهم فيتكدرُونَ ويستر عليهم فيجاهرون ويطلع عليهم فلا يستحيون ويتهددهم فلا يخافون ويطلبهم عدوهم فيسارعون ويسألهم أن يسكنوه في قلوبهم التي هي من جملة ما وهبهم فلا يفعلون ويذل أجرى السكنى أولاً وحاضراً ومستقبلاً فلا يقبلون ويطلب منهم بعض ما أعطاهم ليدخرها لهم فلا يجيبون وفرض عليهم ما ينفعهم فيعرضون ويريمهم الآيات في أنفسهم وفي الآفاق فلا يبصرون ويوثقهم

(١) مهج الدعوات ومنهج العنايةات: ٣٣٠.

الفصل الثاني

من دار قد عمرها لهم كاملة الصفاء دائمة البقاء ويريد انتقلهم إليها فلا يوافقون»^(١)، ونقدح في النص تقابلاً دلاليًا ذا علاقة (الإيجاب والسلب) ويكون في فعلين الأول مثبت، والثاني منفي، في (يريه، لا يبصرون)، (ويريد انتقلهم، لا يوافقون).

وثمة تقابل دلالي ذو علاقة أخرى (العدم والكسب) ويراد به أن أحد المتقابلين معدومًا عن الصفة، والآخر مكتسب لها، قال ابن طاووس: «واعلم حفظك الله يا ولدي محمد وحفظ ما أنعم وينعم به عليك وأوزعك شكر ما أحسن به إليك، إن وجوده ﷺ وصفاته ليست مناسبة لوجودنا وصفاتنا في شيء من الأشياء؛ لأننا موجودون به ﷺ ويتصرف فينا تارة بالإنشاء وتارة بالإفناء وتارة بالحياة وتارة بالموت وتارة بالعافية وتارة بالسقم وتارة بالشباب وتارة بالهرم وتارة بالغنى وتارة بالفقر»^(٢)، وتأمل التقابل الدلالي ذا العلاقة (العدم والكسب) في خطاب ابن طاووس في كتابه الدروع الواقية، قال: «أحمد الله ﷻ بما وهب لي من القدرة على حمده، وأثني عليه ﷻ على توفيقه لتقديس مجده، وأطوف بلسان حال العقل حول حمى كعبة مراحمه ومكارمه ورفده، واستعطفه ببيان مقال النقل رجاءً لتمام رحمته وحلمه عن عبده، واسمع من دواعي النصيحة والإشفاق، ورسل رسائل أهل السباق، حثًا عظيمًا على التلزم بأطناب سرادقات منشئ الأحياء، ومُفني الأموات، وواهب الأقوات، ومالك الأوقات، حتى لقد كدت أن أجدني كالمضطر إلى الوقوف بمقدس جنابه، والمحمول على مطايا لطفه وعطفه إلى العكوف على شريف بابه»^(٣).

وللتقابل الدلالي أثر مهم في الخطاب الأخلاقي عند ابن طاووس، فهو يحضر بقوة في أدعيته ورسائله ووصاياه، فالطبيعية الشيطانية تقابل الطبيعة الملائكية، وكذلك صفات الطبيعتين، الأولى: الشيطانية، مثل: الخبث، والوقاحة، والرياء، والعبث، والحرص،

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٣٠.

(٢) م. ن: ٢٥.

(٣) الدروع الواقية: ٣٢، ٣٣.

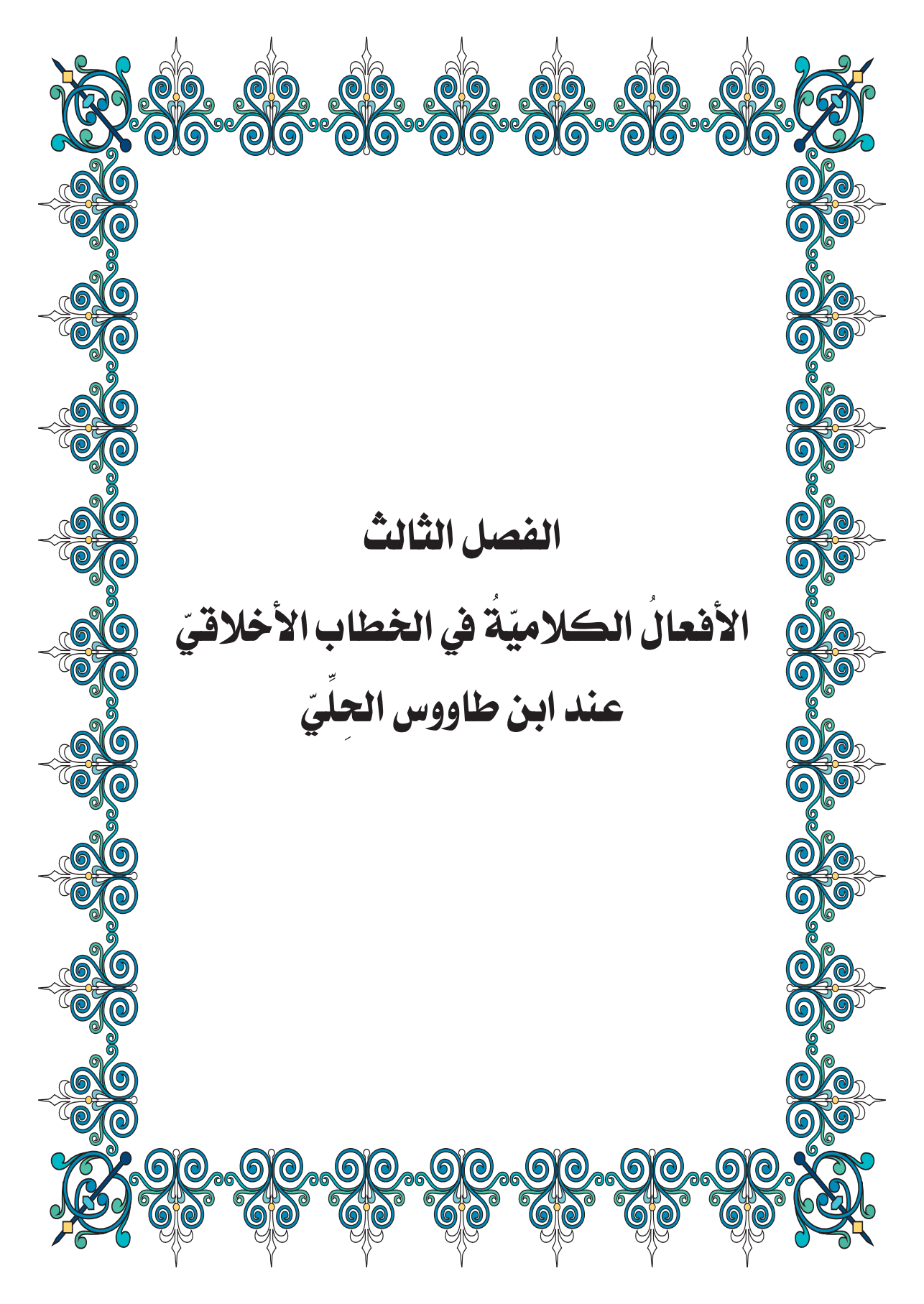
الخط الاخلاقي وأبعاده التكوينية

والشبع، والملق، والحسد، والتهور، والشهامة، والبذخ، والتكبر، والاستهزاء، والمكر.. وغيرها، وأمّا صفات الطبيعة الملائكيّة، فهي: العلم، والشجاعة، والحكمة، والكرم، والعفة وضبط النفس، والصدق، والحلم، والزهد، والعفو، والورع.. وغيرها.

قال في مقدمة كتابه جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: «أحمد الله ﷻ الذي أيقظ ذوي السنة من أهل الوجود بالسنة الفضل والكرم والجود، وعلم العبد المخلوق من التراب حتّى تكلم بمحكم الآداب على منابر الصواب، وألبس العقل من خلع أنواره حتّى أجلس صاحبه بالفضل على أرائك ممالك أسرار، ورفع بالرياسة منازل مملوكه وعبده عن نوازل مهالك، وظلّل ظلال فهمه بما أسبل عليه من حلل كمال رحمته وحلمه، وكانت حياته مواتاً فأخذه بيد قدرته من عدمه وأعاشه، وكان عظمه عرياناً فكساه لحماً من نعمته وراشه، وكان إمكانه رفاتاً فأخذ بيده وانتاشه، وكان لسانه مقفلاً ففتح بمفاتيح جوده أقاله، وكان إنسانه مهملاً فأوضح بمصاييح شمس سعوده إقباله، وكان بصره في الأفق اكمه فكحله بميل فضله حتّى أبصر سبيل مثله، وكان سمعه في الطرف متيها فنحله من نعم كرمه ما شفاه من سقم صممه، وكان قلبه في مخافة أخطار الجهل فتداركه بالرافة وأنوار العقل، ولم يغنِ ﷻ شيئاً من هذه المواهب عنه سبحانه»^(١).

وهنا كلام ينبغي أن نذكره: أنّنا لو بحثنا عن سرّ هذه التقسيمات والتقابلات الدلالية، لوجدنا أنّ مصدرها القرآن الكريم، والأحاديث النبويّة الشريفة، وكلمات أئمة أهل البيت ﷺ، فمحورية التقابل الدلالي حاضرة عنده.

(١) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ١٥.



الفصل الثالث

الأفعال الكلامية في الخطاب الأخلاقي

عند ابن طاووس الحلّي

الفصل الثالث

مدخل

لا ريب أن الأخلاق ليست نصوصاً ومتوناً تُلقى وتُحفظ، فإننا عندما نريد دراسة الخطاب الأخلاقي تداولياً نرمي إلى قضية مهمة، فلا يتعلق الأمر بتعاليم أخلاقية بالمعنى الوعظي والإرشادي للعبارة على ما للأخلاق العامة وتعاليمها المحفوظة في خزائن الكتب والأسفار الدينية والحكومية والأدبية من أهمية في تأهيل العقل لطلب فلسفتها، فضلاً عن أن البشرية لاتزال تُدين لهذا النمط من التخليق في ما تبقى من معنى لاجتماعها الإنساني غير أن الأمر هنا يتعلق باستشكال السؤال الأخلاقي من وجهة نظر فلسفية يجعل الأخلاق مجالاً لاقتحام النسبية والعرضية والدينامية والبراغماتية وما شابه، أي السؤال الذي يدرس الأخلاق حقيقتها وجدواها وأنماطها ضمن النشاط الفردي والجماعي الشخصي والمؤسسي في حياة البشر ضمن صيرورة سوسيو - اقتصادية وثقافية تكون الأخلاق منها أمراً ينتج ويؤخر ويتأثر بـ (المعنى النيتشي) إنها إعادة إنتاج قيم مختلفة تنهض على السؤال النقدي، أي: السؤال الذي يبحث في إنسحاب أخلاق وبروز أخرى محلها، أو صراع أخلاق مع أخرى، فقد ظلت الأخلاق تشكّل درساً واحداً لدى مختلف الثقافات والحضارات؛ لتنهض على أساس التلقين والتعلم والتدريب وتكوين الملكة الأمرة - الحائلة على خير محدّد ثابت لا يتغير، والنهاية الزاجرة على شرّ محدّد لا يتغير، لكن سرعان ما حدث تحول في فلسفة القيم سعى، ولا يزال يسعى إلى قلب هذه القيم وإحداث تغييرات جذرية في المنظومة الأخلاقية للإنسان^(١).

(١) ينظر: أخلاقنا في حاجة إلى فلسفة أخلاقنا بديلة: ٨٧، ٨٨. المعنى النيتشي: نسبة إلى =

الخط الأخلاقي والعبادة التداوليّة

ويرى إدريس هاني: «إنّ دعوى إمكان الاستغناء عن تعلّم الأخلاق والاستزادة منها يُعدُّ جهلاً بامتياز، بل إنّ الجهل الذي يتّسع بصورة جدلية مع تقدّم العلوم، وسيادة الغرور والإحساس بالاكْتفاء بذلك الوهم الذي سُمّي يوماً بموضوعية العلم، وأقصد بذلك أنّ الأخلاق ليست أمراً يحضّر في وجداننا كاملاً وبالْفطرة، بل هو الشيء الذي نعلّمه ونسّمُو به، وقد نتفوّق فيه بقدر ما نخفق، نتقدّم فيه بقدر ما نتخلّف، نبتكر فيه بقدر ما نُقلّد، فكلُّ خُلُقٍ هو ارتقاءٌ في العلم فلا يستوي المتخلّف وغيره بالمقدار نفسه»^(١).

تناول طه عبد الرحمن الفيلسوف الأخلاقيّ موضوعة المبدع المحدث، والمبدع المختار، فالأوّل يصف وضع العالم الإسلاميّ عامة ولاسيّما الجانب الأخلاقيّ، كاشفاً أسباب الوضع، وطرائق التصديّ له ممارساً له ممّا يعده نوعاً من (التقريب التكامليّ)، إذ يرى أنّ تغيير الوضع في العالم الإسلاميّ لا يكون إلّا بتوسيع المفاهيم والتصورات الإسلاميّة المقررة حتّى تتلاءم مع المفاهيم والتصورات الحديثة، بل حتّى تنضبط بها انضباطاً، فيُثبّت لها كلّ ما ثبت نفعه المادي في هذه، وينفي عنها كلّ ما خالف العقل على مقتضاه الأداة أو بتأوله بما يوافقه، أمّا الثاني، فيصف هذا الوضع ويقف على أسبابه وطرائق التصديّ له ممارساً ما يعده نوعاً من (التقريب التداوليّ)، إذ يرى أنّ تغيير الوضع في العالم الإسلاميّ لا يكون إلّا بتهذيب المفاهيم والتصورات الحديثة حتّى تتلاءم مع المفاهيم والتصورات الإسلاميّة، بل حتّى تنضبط بها انضباطاً، فيُثبّت

=فريدريك نيتشه ت ١٩٠٠م الفيلسوف والأديب الألماني الذي فكّر وكتب في الإنسان ومضيره، والأخلاق وقيمتها، كان ابن قسّيس وحفيد وأراد أن يكون قسيساً فكان في حدّاته مستمسكاً بالدين، ثم خرج على الدين والأخلاق بمنتهى الشدة داعياً إلى تجاوز وهم الأخلاق ينظر: موسوعة عالم السياسة: ٢ / ١٨١.

(١) ينظر: أخلاقنا في حاجة إلى فلسفة أخلاق بديلة: ٩٢.

الفصل الثالث

لها كلّ ما ثبت نفعه الروحيّ في هذه، وينفي عنها كلّ ما خالف الوحيّ على مقتضاه القيميّ أو بتأوله بما يوافقه^(١).

ويمكن القول: إنّ ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ كان يرنو إلى (التقريب التداوليّ)، فيرى أنّ تغيير الوضع في عصره لا يكون إلاّ بتهذيب المفاهيم والتصورات الحديثة، من أجل مقاربتها وملاءمتها مع المفاهيم والتصورات الإسلامية، كي تنضبط معها انضباطاً راجياً ثبات النفع الروحيّ في هذه، ودَرْءُ كلّ ما خالف الوحيّ على مقتضاه القيميّ الأخلاقيّ، أو راجعاً في تأويله بما يوافق الوحيّ؛ لذا فقد فطن ابن طاووس من قبل إلى لزوم المقاربة التداولية للأدعية والوصايا والمواعظ الإرشادية والتهذيبية وإسقاطها في حيز الانتاج والتأثير، ومسايرتها للواقع الإنسانيّ فلا يُكتفى بقراءتها وحفظها، بل لابدّ من العمل بها وتطبيقها في الواقع، قال ابن طاووس: «إنّ الذي أودعناه كتابنا هذا ما هو مجرد زيارات وعبادات، ولا كان المقصود جمع صلوات ودعوات، وإنّا ضمّناه ما لم يُعرَف فيما وقفنا عليه المخالف والمؤالف مثل الذي هدانا الله ﷻ بتصنيفه إليه، من كيفية معاملات الله ﷻ بالإخلاص في عبادته ومن عيوب الأعمال التي تفسد العمل وتخرجه من طاعة الله ﷻ إلى معصيته - إلى أن قال: - مع أنّ الذي عملنا هذا العمل لأجله قد كان سلفنا أجرة أكثر من استحقاقنا على فعله، وأعطانا في الحال الحاضرة ما لم تبلغ آمالنا إلى مثله، ووعدنا وعد الصدق بما لا تعلم نفس ما أخفى لها من قُرة أعين من فضله، فقد استوفينا أضعاف أجرة ما صنّفناه ووضعناه، ومهما حصل بعد ذلك إذا عمل عامل بمقتضاه ورغب فيما رغبناه فهو مكسب على ما وهبناه»^(٢).

(١) الخطاب الإسلاميّ إلى أين؟ حوارات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبد الرحمن): ٢٠.

(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣ / ٣٦٧.

الخطب الأخلاقيَّة والتَّأثيرات

فتأثير الخطب الأخلاقيَّة الطاووسيِّ لم يأت من مجرد شحن كتبه بالنظريات الأخلاقيَّة المجرَّدة، بل لروحيتِه الأثر الأبلغ في اجتذاب القلوب إلى الخير والصلاح والإخلاص في العمل ومن هنا اشترطوا في الواعظ أن يكون متَّعظًا، زد على ذلك أنَّ الفهم الطاووسيِّ الحاذق قد تجلَّى في أقواله وأفعاله فقد وصفه من ترجموا له بأنَّه كان عالمًا عاملاً^(١)، فقد نهج ذلك المنهج الأخلاقيِّ الذي أحسن فيه الأخلاقيون أيَّما إحسانٍ، وأفاد به المنظومة الأخلاقيَّة أيَّما فائدةٍ.

(١) ينظر: على سبيل المثال السراج الوهاج: ١٢٧.

الفصل الثالث

المبحث الأول

الأفعال الكلامية المباشرة

هي أقوال تُؤدّي بها أفعال فيها يمكن للمرء أن ينجز أفعالاً بواسطة اللغة، نحو: أزوجك ابنتي، فمجرد التلفظ بالقول تصير الابنة زوجة؛ ومن ثم يُحدّث فعل كلامي^(١). يتضح في ضوء المسار التطوري للتداولية أنّ المقاربة التداولية قامت على الأسس التي وضعتها فلسفة اللغة مع كلّ من أوستين، وسيرل، وغرايس، فقد عمّل كلّ واحدٍ من جهته على تقديم رؤية لمقاربة اللغة في إنجازاتها المختلفة.

ابتدأ أوستين أولاً بالتمييز بين الجُمْل الوصفية، والجُمْل الانشائية، فالأولى تخضع لحكم الصدق والكذب في حين ترتبط الثانية بالنجاح والإخفاق، غير أنّ أوستين سرعان ما سيكشف أنّه لا جدوى من هذا التقسيم، وينزع عنه نسبياً في ضوء تأكيده أنّ كلّ جملة تامّة مستقلة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، ويميّز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية، العمل الأوّل: هو العمل القولي وهو الذي يتحقّق ما إنّ تلفظ بشيء ما، أمّا الثاني، فهو العمل المتضمّن في القول وهو الذي يتحقّق بقولنا شيئاً ما، وأمّا الثالث، فهو عمل التأثير بالقول وهو الذي يتحقّق نتيجة قولنا شيئاً ما ومن ثمّ فإنّ كلّ جملة عند التلفظ في نظر أوستين توافق على الأقل إنجاز عمل قولي وعمل متضمن في القول، وأحياناً توافق القيام بعمل تأثير القول^(٢).

(١) ينظر: معجم تحليل الخطاب: ٢٠.

(٢) ينظر: التداولية اليوم: ٣٢، ٣٣.

وبحسب التقسيم الأوستيني، الذي نجزم قاطعين أنّ جذوره ضاربة في التراث العربي بلحاظ حقائق، وقواعد أسسها العرب، منها الحقيقة والمجاز والسياق وتقنياته، من نحو سياق المقام (لكلّ مقام مقال)، وسياق الحال وغيرها^(١).

جاء تقسيم الأفعال الكلاميّة على قسمين مباشرة، وغير مباشرة.

إنّ اللّغة بحسب نظرة التداولين، ولاسيما (جون أوستين) ليست مجرد وسيلة للوصف ونقل الخبر، بل أداة لبناء العالم والتأثير فيه، وقد تقدّم بنظرية بسط القول فيها: عبر جملة محاضرات ومقالات ضمّنها نظريته بخصوص الأفعال اللّغوية التي ظهرت بعد وفاته بعنوان (كيف ننجز الأشياء بالكلمات؟) والذي ترجم إلى الفرنسية عام ١٩٧٠^(٢)، وأولى الخطوات التي تحدّث عنها موقفه من الأثر الذي تحدّثه الجمل في إقرار حدث ما، وهو ما تكون بموجبه صادقة أو كاذبة أي التي تقوم وفقاً لمعيار الصدق والكذب، زد على ذلك جمل التعجب والاستفهام والأمر والنهي... وغيرها.

الخبر

يُعرّف الخبر بأنّه «القول المقتضي بصريحة نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي، أو الاثبات ومن حدّه بأنّه المحتمل للصدق والكذب المحدودين بالخبر لزمه الدور»^(٣)، وقد اختلف العلماء في وضع تحديد معين لتعريف الخبر، واختلفوا في ماهية الصدق والكذب، وقد كان للخطيب القزويني رأي حاسم في هذا الموضوع فقال: «اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنّه منحصرٌ فيهما، ثمّ اختلفوا فقال الأكثر منهم: صدقه مطابقة حكمه للواقع هذا هو المشهور وعليه التعويل»^(٤)، وتأسيساً

(١) ينظر: تداوليّة قبل التداوليّة هي تداوليّة قروسطيّة عربيّة إسلاميّة: ٤٩٩.

(٢) ينظر: الاستلزام الحواريّ في التداول اللسانيّ: ٧٧.

(٣) ينظر: الاستلزام الحواريّ في سورة البقرة في القرآن الكريم (دراسة وصفية تحليلية تداوليّة):

٦٧.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة: ١٠.

الفصل الثالث

على ذلك فالخبر هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته، فالكذب في الخبر منهم مَنْ يجعله الخبر الكاذب ما كان مخالفاً للواقع، ومنهم من يجعله مخالفاً لاعتقاد المتكلم، وسواء كان هذا الموقف أو ذاك فإن القيمة الصدقية للكلام هي التي تمنحه مشروعية التداول غير أنّ هذا اللاصديقي استطاع أن يجد له أو لنفسه مكاناً أو فضاءً، ويستقطب جمهوراً خاصاً اهتم به، وتتبع خطواته عبر خطابات نصية مختلفة تلتقي جميعها في هذه القيمة اللاصديقية التي هي التخيل^(١).

وقد يخرج الخبر عن غرضيه الأصليين (الحقيقيين)، فائدة الخبر (إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة، أو الكلام)، ولازم الفائدة (وهو أن يلقي الكلام على عالم به)^(٢)، وهذا هو الأصل في أغراض الخبر، لكنّه قد يخرج على خلاف مقتضى الظاهر فيفيد معاني مجازية تفهم من السياق وقرائن الأحوال.

وسنحاول استجلاء النصوص الخبرية الأخلاقية الطاوسية (الإخباريات-التقريرات-)، والهدف منها: وصف واقعة معينة في ضوء قضية، وتتميز باحتيالها الصدق والكذب، باتجاه المطابقة فيها إلى العالم الخارجي، فيكون القول مطابقاً للوقائع الموجودة في ذلك العالم، وهذه التقنية (الإخباريات) تعدّ إضافة من (سيرل)، لما أبداه (جون أوستين) من قبل من (حكميات، وتنفيذيات، وسلوكيات الأفعال الكلامية المباشرة وغيرها)، إذ أضاف (الإخباريات - التقريرات -، والتوجيهات (الطلبات)، والإلتزاميات (الوعديات)، والتعبيريات، والإعلانيات).

قال ابن طاووس مخبراً عن نفسه أنّه الذي يشير بالتقى ويعمل بالهدى وهو الرجل الذي أخبر عنه الإمام الصادق (عليه السلام): «أقول: ومن حيث انقرض ملك بني العباس لم

(١) ينظر: التخيل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقاربة تداولية: ٦٠، ٦١.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٦٦، والإيضاح في علوم البلاغة العربية: ١٣.

الخطب الإخلاقي وأبعاده التكوينية

أجد، ولا أسمع برجل من أهل البيت يشير بالتقى ويعمل بالهدى ولا يأخذ في حكمه الرشى، كما قد تفضل الله به علينا باطنًا وظاهرًا، وغلب ظني أو عرفت أن ذلك إشارة إلينا وإنعام، فقلت ما معناه: يا الله إن كان هذا الرجل المشار إليه أنا فلا تمنعني من صوم هذا يوم ثالث عشر ربيع الأول (...) وقلت في معناه: يا الله إن كنت أنا المشار إليه فلا تمنعني من صلاة الشكر وأدعيتها، فقامت فلم أمتع بل وجدت لشيء مأمور، فصلَّيتها ودعوت بأدعيتها، وقد رجوت أن يكون الله تعالى برحمته قد شرفني بذكره في الكتب السالفة على لسان الصادق (عليه السلام) ^(١)، فنلمح أن الجملة الخبرية (أقول) وما بعدها تحمل معنى واحدًا وهو الدلالة على اتصاف ابن طاووس بالأخلاق والفضائل والشئال التي أخبر بها الإمام الصادق (عليه السلام) أنه سيظهر رجل من ذرية أهل البيت (عليهم السلام) يتصف بالتقى ويعمل بالهدى، وانطوت هذه الجملة في بنيتها السطحية قرينة التكلم والخطاب وفعل إنجازي ظاهر، فهي تمثل ملفوظًا إنجازيًا صريحًا (أقول)، وهذا ما خلص إليه (أوستين) بالقول: إن معيار الصدق أو الكذب مرتبط بمعيار النجاح أو الفشل، والعكس صحيح هذا من جهة، ومن جهة أخرى لاحظ (أوستين) أن الجمل اللغوية كلها يمكن أن تقوم بحسب المعيارين معًا، ومن ثمَّ يستحيل التمييز بين الملفوظات الوصفية والملفوظات الإنجازية، وتوصل إلى أن جميع الجمل اللغوية هي قول وفعل في الوقت نفسه، ومن ثمَّ يمكن اختزالها وتصنيفها بعنوان واحد هو الملفوظات الإنجازية، إلا أننا نجد نوعين من الملفوظات: إنجازية صريحة، وملفوظات إنجازية ضمنية، من نحو:

الأولى: إن الجو بارد اليوم، والثانية: أقول: إن الجو بارد اليوم.

الثانية: حملت في بنيتها السطحية لفظًا إنجازيًا صريحًا هو (أقول) ^(٢).

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣ / ١١٧.

(٢) ينظر: الأمر والنهي في اللغة العربية: ١٤٣.

الفصل الثالث

وقال ابن طاووس كاشفاً عن تعظيم اليوم السابع والعشرين من رجب المبارك، يوم مبعث النبي الأعظم ﷺ، ووصف الحدث، وأخبر عنه، فضلاً عن تقريره، في ضوء الكشف عما فعله المبعث المعظم من تغيير الحال، والأخلاق، والنفوس، والمنقلب، قال: «وروح حياة ذلك السبق للأولين والآخرين، في اليوم السابع والعشرين من رجب بالعجب وشرف المنقلب، فاستنشقت عقول كانت هامدة أو بائدة، واستيقظت به قلوب كانت راقدة، وجرى شراب العافية بكأس آرائه العالية في أماكن أسقام الأنام فطردها، وأحاط بجيوش النحوس فشردها، وتهدد نفوس العقول المتهجمة على العقول فأبعدها، حتى ألفها بعد الافتراق في الآفاق وعطفها على الوفاق والاتفاق»^(١)، فالقوة الإنجازية المباشرة للإخباريات انطوت على وصف الحدث، والإخبار عنه، فضلاً عن تقريره، لذلك قال ابن طاووس: «زِدْنَا في الاجتهاد في هذه الصفات والسيرة فيهم بالتقوى والمشورة بها والعمل معهم بالهدى، وترك الرشى قديماً وحديثاً، لا يخفى ذلك على مَنْ عرفنا، ولم يتمكن أحدٌ في هذه الدولة القاهرة من العترة الطاهرة، كما تمكنا نحن من صداقاتها المتواترة واستجلاب الأدعية الباهرة والفرامين المتضمنة لعدلها ورحمتها المتظاهرة وقد وعدت أن - كل سنة - أكون متمكناً على عادي من عبادتي أعمل فيه ما يهديني الله إليه من الشكر وسعادة دنيائي وآخرتي»^(٢).

ومن النصوص الطاووسية التي نلمح فيها أفعالاً كلامية مباشرة مقتصرة على دلالة الصيغة نفسها (الدلالة الحقيقية)، قوله في وصية لابنه «ومتى اشتبه عليك شيء من نتائج العقول، فالزِمِ الصَّومَ، والخلوة، والتذلل للقادر على كلِّ مأمولٍ فإنَّك تجده ﷺ كاشفاً لك ما اشتبه عليك وباعثاً إلى عقلك وقلبك من أنوار هدايته ما يفتح أبواب

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣ / ٢٦٩.

(٢) م. ن: ٣ / ١١٧، ١١٨. الفرامين: كلمة تركية بمعنى الكتب الموقعة.

الخطب الأخلاقية في رعاية التكاليف

الصواب لديك»^(١)، فدلالة فعل الأمر (فالزم الصوم) دلالة حقيقية (الوجوب)، وهو فعل انجازي تأثيري.

إلزام الصوم ← إنشاء طلب ← دلالة حقيقية (الوجوب) ← فعل إنجازي تأثيري ومن المتون الطاووسية الأخلاقية التي تُحقّق فعلاً كلامياً إنجازياً مباشراً، في ضوء تصور دلاليّ يتمثل في مراعاة حالة المتكلم، ومنزلة بالنسبة للمخاطب، تأمل بيان ابن طاووس الحليّ حال الرسول الأعظم ﷺ، مع النفر المؤمن الذين ما انفكوا يدعون الله ﷻ غداً وعشيّاً لا يفترون، استيحاءً من قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، قال ابن طاووس «إنّ ظاهر هذه الآية يقتضي تعظيم الدعاء لله بالغداة والعشيّ وتعظيم الذين يعملون ذلك خالصاً لوجه الله تعالى فإن مقام الرسالة من أبلغ غايات الجلالة فإذا أمر الله تعالى رسوله وهو السلطان الأعظم ﷺ أن يصبر نفسه الشريفة المشغولة بالله مع الدعاء بالعشيّ والغداة»^(٢).

ويظهر شرط الاستعلاء في الخطاب التوجيهي من لدن الله ﷻ لصفيةً ومختاره النبيّ الأعظم ﷺ، في ظل توجيهه نحو سلوك معين، والتأثير فيه، وفي ذلك إنجاز وإنعام في الصبر والثبات مع الثلة المؤمنة، وهذا أمرٌ تأثيري إنجازي النص أمام محمد ﷺ ومن تبعه، فهم مدعون يومياً لتسديد خطى الأقربين في سلوكهم العقدي، والأخلاقي، والاجتماعي، وسيظل النبي محمد ﷺ، والمؤمنون الصادقون المخلصون صادقين مع أنفسهم.

وعود على بدء، فإن الخطاب الإنشائي المؤدى بصيغة الأمر الصريح (افعل) (اصبر) جاء بدلالته الرئيسة (الطلب والوجوب)، فالفاعل النبي ﷺ، والفعل التأثيري الإنجازي (اصبر) قد أدّى هذه الدلالة المباشرة.

(١) كشف المحجة لثمره المهجعة: ٧٢، ٧٣.

(٢) سعد السعود: ٢٣٩.

الفصل الثالث

الإِشاء الطلبي (الأمر) اضْبِرْ ← الدلالة الرئيسة المركزية ← الطلب والوجوب

وتأسيسًا على ذلك فإنَّ الخطاب بحسب قول ابن طاووس الحليّ وتصوره وفهمه يُعْلي من شأن النبي ﷺ، وشأن أصحابه المُخلصين مَن عَرَفُوا الله ﷻ حق معرفته، بله ذريته الذين انقطعوا لعبادته، وذابوا في ذاته ﷻ، فالقرب الإلهي، والتواصل مع الله ﷻ بالدعاء والمناجاة جسر حقيقي للظفر بالسعادتين الدنيويّة والآخرويّة.

ويرى الدكتور سعد كموني أنَّ الآية الكريمة تُشكّل مظهر الخلق الدائم، إذ تنطوي على جملة الأفعال الواجبة في هذا المقام (اضْبِرْ، لا تُعَدُّ، لا تُطْع)، فالنص يسمُح لنا أن نقارب مقاصده وندلف إلى دلالاته انطلاقًا من واقعنا اللغويّ على أن لا يكون ذلك على حساب نظامه اللغويّ، فالتأويل يقتضي؛ أن كون ذلك لا يكون ذلك على حساب نظامه اللغويّ، فالتأويل يقتضي أن نخرج بالمفردة من فلكها في النصّ إلى فلكها الاجتماعي لكي نكشف المعين الذي أزرعها، ثم نرقبها بعد ذلك في كيمياء النصّ كيف تتفاعل مع سواها^(١).

أشار ابن طاووس الحليّ إلى ما يحدثه الفعل المبني للمجهول من قوة إنجاز وتأثير بوصفه فعلًا كلاميًا قاهرًا، ففي بيان تفسير قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِبْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، قال: «ومجيء إخباره ﷺ على الفعل المبني للمجهول للدلالة على الجلال والعظمة، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلّا بفعل قاهر لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أنّه غيره»^(٢).

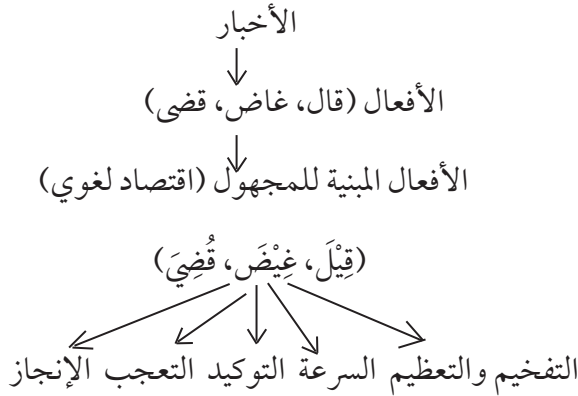
(١) ينظر: الخطاب القرآني القرآن مرجعيته للخطاب النهضوي: ١٥٢، ١٥١.

(٢) سعد السعود: ٢٥٠، ٢٥١.

الخطب الإخلاقيّة وأبعادها التداوليّة

ولم يكتفِ بذلك إذ بيّن أنّ بناء الأفعال (قَالَ، غَاظَ، قَضَى) للمجهول أسهّم في تفخيم الأمر وتضخيمه، من أجل تصوير حال الانتقام من هؤلاء الظالمين، قال: «ومنها (وقيل)، ولم يقل عَلَّامٌ: (قُلْتُ)، أو (قُلْنَا)، فلعلّ المراد أنّه لما كان هذا الأمر لا يقدر عليه سواه كان لفظ (قيل)، مثل (قُلْتُ) أو (قُلْنَا)، ولعلّ المراد تفخيم الأمر، وتعظيم القدر على عادة الملوك في لغة التغليب والقهر، أو لعلّ المراد: أنّه لما كان الحال حال انتقام كان الخبر بها باللفظ (قيل) أليق بوصف كامل الرحمة، والإنعام، أو لعلّ المراد أنّ هذا ممّا يزيده عَلَّامٌ عظمة ولا جلالة إذا قال: قُلْتُ»^(١).

ويبدو أنّ الاقتصاد اللغويّ في بنية الفعل المبني للمجهول، وقوّة بنيته وما يلازم هذا البناء من دلالات (العظمة، السرعة، والتعجب، والتوكيد، والإنجاز، والتأثير) هو أوفق للسياق المقاميّ التداوليّ^(٢)، وهذا ما استدعى ابن طاووس إلى التعامل مع هذا الفعل تعاملًا تداوليًّا واصفًا إيّاه بـ (الفعل القادر القاهر)، ويمكن بيان إنجازيّة هذه الأفعال وتأثيرها بالمخطط الآتي:



(١) سعد السعود: ٢٥١.

(٢) ينظر: البعد التداوليّ للمبني للمجهول في القرآن الكريم: ١٩٩.

الفصل الثالث

وتتجلى تقنية السياق، ولاسيما باستثمار القرينة المنفصلة، في تحديد الفعل الكلامي المباشر في الخطاب الأخلاقي الطاوسي، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ إِيَّيَ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وبين ابن طاووس وهم أبي علي الجبائي في عدم اقتناص الدلالة المرادة للفعل الكلامي (ساجدين)، إذ حددها بـ(خاضعين)، فجعل خضوعهم له سجوداً؛ لأن الخضوع في اللغة السجود من الخاضع للمخضوع له، ورأى أن «الجبائي قد غفل عن آخر القصة أو ما كان يحفظ القرآن؛ لأن يوسف لما سجد له أبواه وأخوته قال: هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ففسر هذا السجود المعهود بذلك السجود، فلو كان ذلك خضوعاً من غير سجود ما كان يقول ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]»^(١).

فالفعل الكلامي الإنجازي لـ(ساجدين) هو السجود المطلق سجود التعظيم والإجلال له ﷺ، بدلالة السياق (القرينة المنفصلة)، قوله تعالى: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾، وقد نقد ابن طاووس الجبائي؛ لأنه لم يشغل هذه التقنية من جهة، أو أنه ما كان يحفظ القرآن من جهة أخرى، ولعل القول الثاني يُنبئ أن ابن طاووس كان من الذين يحفظون القرآن الكريم، فمن لوازم عملية التفسير ولواحقها عند من يقوم بهذه المهمة حفظه كتاب الله ﷻ - كما يرى ابن طاووس الحلي .

ويتجلى الخطاب الأخلاقي الطاوسي في بيان حال المسارعين إلى الخيرات، السابقين إليها، قال: «قال الفرّاء: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] يبادرون بالأعمال، (هم لها سابقون)، يقول: إليها سابقون، وقد يقال: وهم لها سابقون، أي: سبقت لهم السعادة... أقول: إذا احتمل اللفظ الحقيقة فما الذي يحمل على تفسيره بالمجاز؟، فإن قوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَبِقُونَ﴾ هم المعلوم من الحال

(١) سعد السعود: ٤٠٩، ٤١٠.

الخط الاخلاقي والعبادة التداوُلِيَّة

بالضرورة؛ لأنَّهم سبقوا أعمالهم بالمعرفة، أو بالذي كلَّفهم إيَّاهَا، وبالرسول الذي دلَّهم عليها، وبمعرفة تلك الأعمال الصالحة، وكانوا سابقين لها، وهي متأخرة عن سبقهم، وهو أبلغ في مدحهم»^(١).

فالجملة الإسمية المكوَّنة من المبتدأ (أولئك) اسم إشارة الدال على البعيد، والخبر (يُسارعون) الجملة الفعلية المضارعية تنجز فعلاً كلامياً مباشراً بحسب رؤية مركبة إيمانية إصلاحية تعبيرية هذه المهمة سبقتها معرفة إنتاجية بعواقب المسارعة إلى الخيرات والتسابق للظفر بها، ومن هنا إنمازت هذه المسارعة بمعرفة قبليَّة، وهي أسُّ الأعمال، وأصلها وهو ما عُرِف عند الفقهاء في مباحثهم من (فقه الأخلاق) بنية العمل^(٢).

في بيان قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ردَّ ابن طاووس على مَنْ قال: إنّ معنى إني مهاجرٌ كلُّ مَنْ خرج من داره، أو قطع سبيلاً فقد هاجر، قال: «كان ينبغي أن يذكر معنى المهاجرة إلى الله تعالى؛ لأنَّ الله حاضر في المواقع الذي هاجر منه إلى الموضع الذي هاجر إليه، ولعلَّ المراد بالمهاجرة إلى الله تعالى الانقطاع إليه بالكلية عن كلِّ شاغلٍ والتجرّد له، وكان إبراهيم كذلك في الوطن الأوّل لكن ظاهر حال المخالط للناس، أو المبتلى بهم مع اشتغاله بالله تعالى وامتناله لأمره أنّه يكون من جملة طاعاته اشتغاله بالناس في الأوّل أو بغير الناس من أسباب الطاعة فلعلَّه أراد أن يكون المهاجرة إلى مجرد الاشتغال بالله تعالى بغير واسطة من ساير الأشياء، وأمّا قوله كلُّ مَنْ خرج من داره فقد هاجر فبعيد من عرف الشرع وعرف العادة؛ لأنَّ الخارج من داره مجتازاً من بلد إلى بلد لا يسمى مهاجرًا، بل متى قصد المهاجرة والإقامة به»^(٣).

(١) سعد السعود: ٦٠٧، وينظر: معاني القرآن: ٢ / ٢٣٨.

(٢) ينظر: كشف الغطاء عن وجوه مراسم الاهتداء: ٥٣٠، والأخلاق: ١٥.

(٣) سعد السعود: ٤٨٥.

الفصل الثالث

ويُستفاد من متن ابن طاووس الحليّ أنّ استبعاده الدلالة الحسيّة للهجرة بمعنى الخروج من الدار، وقطع السبيل قائمة؛ كونها لا تنسجم مع الإيمان الحقيقي، ومتطلبات العقيدة الراسخة؛ لذا رأى أنّ المراد بحسب القوة الإنجازية المستلزمة أنّ المهاجرة إلى الله ﷻ تعني الانقطاع إلى الله ﷻ كليّة، وتأسيساً عليه ينعطف المعنى باتجاه الدلالة المعنوية؛ لأنّ المجال التداوليّ يأبى ربط المهاجرة في الآية بالانتقال من بلد إلى آخر.

الفصل الثالث

المبحث الثاني

الأفعال الكلامية غير المباشرة

إنَّ وظيفة اللغة لا تقتصر على تقرير الوقائع، أو وصفها لكنَّ للغة وظائف عديدة كالأمر والاستفهام والنهي والتمني والشكر والتهنئة والقسم والتحذير... وغيرها، وليست اللغة حساباً منطقياً دقيقاً لكل كلمة فيها معنى محدد، ولكل جملة معنى ثابت، إذ لا تنتقل من جملة إلا ما يلزم عنها من جمل مراعيًا قواعد الاستدلال المنطقي، بل الكلمة تتعدد معانيها بتعدد استعمالنا لها في الحياة اليومية، وتتعدد معنى الجمل بحسب السياقات التي ترد فيها فالمعنى هو الاستعمال^(١).

هذا الفهم في توجيه وظيفة الخطاب بوصفه عملية إجرائية غايتها الإبلاغ والاتصال والإقناع، جعلت ابن طاووس يستثمر البعد التداولي للخطاب؛ لأنه آلية كاشفة عن الاستعمال من جهة، ومصورة للحال والمقام من جهة أخرى، وبتواشج هذين العنصرين يتم إصابة الدلالة المرادة بلة القصديّة أيضًا.

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] ردّ ابن طاووس على الفراء في بيان حال أصحاب فرعون المؤمنين الناجين، قال: «قد كانوا في شغل من أن ينظروا مستورين بما اكتنفهم من البحر أن يروا فرعون وغرقه، ولكنه في الكلام كقولك: قد ضربت وأهلك ينظرون فما أتوك

(١) ينظر: الاستلزام الحواري في سورة البقرة في القرآن الكريم (دراسة وصفية تحليلية تداولية):

الخطب الاخلاقي وبعاءة التداولية

ولا أغاثوك؛ يقول: منهم قريب بمراًى ومسمع (...). وإذا كان قد عرف أصحاب موسى ﷺ أن فلق البحر لنجاتهم وهلاك فرعون وأصحابه، فكيف لا يكونون متفرغين لنظرهم ومسرورين بهلاكهم، كما لو قيل للإنسان: ادخل هذه الدار، ليدخل عدوك وراءك فإذا خرجت من الدار وقعت الدار على عدوك، فإنه يكون مسروراً ومتفرغاً لنظر هلاك عدوه ويقال أيضاً: إن أصحاب فرعون لما نزلوا خلف أصحاب موسى ﷺ جعل طرف البحر والماء الذي بينهم كالشباك الذي ينظر منه بعضهم إلى بعضها، فعلى هذه الرواية كانوا ناظرين لهلاكهم ومسرورين به، ويقال: وإن كان هلاك فرعون وأصحابه بعد أن صار موسى ﷺ وأصحابه على ساحل البحر وأيقنوا بالسلامة، فكيف لا يكونون ناظرين إليهم ومشغولين بالسرور بانطباق البحر عليهم؟ وهل يكون لهم عند تلك الحال، وفي ذلك الوقت شغل إلا مشاهدتهم، ونظرهم كيف يهلكون^(١).

يتبين في ضوء بيان الفراء ورد ابن طاووس عليه، أن الفراء قد أجرى التعبير عن الأخبار على مقتضى الظاهر، بأنهم قرييون يرون ويسمعون ومن باب العلم لا من باب الرؤية والسمع، في حين يرى ابن طاووس أن الخبر جاء على خلاف مقتضى الظاهر، وهو (تحريك الهمة والشعور بالفرح والسرور) بالنجاة ورؤية عاقبة الظالمين وهذا لعمري من صميم البحث التداولي؛ وذلك استجابة ومراعاة لموقف السامع النفسي ومقامه، مما يضطر المتكلم إلى تعديل الكلام والتصرف فيه بما يتلاءم مع الموقف الجديد ويجعل الكلام يؤدي الوظيفة التواصلية المنوطة به^(٢).

وتأسيساً لمراعاة حال أصحاب موسى ﷺ المؤمنين بعد أن أنجاهم الله ﷻ وأيقنوا السلامة أراد الله ﷻ أن يحرك هممتهم ويُسعِرَهم بالحسنى والزيادة، أنهم ظفروا بالنجاة

(١) سعد السعود: ٥٩٥، ٥٩٦، وينظر: معاني القرآن: ٣٦/١.

(٢) التداولية عند العلماء العرب: ٩٥.

الفصل الثالث

الديني من جهة وبمعاينتهم عاقبة هؤلاء وهلاكهم فَشَعَرُوا بالنجاة الآخروي،
والمصير المحمود وهو مناط الأمر، وَمَحَزُّ الخاتمة والعاقبة، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا
الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

إذن في قانون الخبر قد يخرج الكلام على خلاف مقتضيات الأحوال، فيخرج عن
قصد من دلالته الرئيسة إلى أغراض مختلفة تستفاد من السياق، وهذا ما يكون في اللغة
الإبداعية، إذ يعتمد المبدع إلى الخروج عن الأصل، والعدول عنه فيشكّل البنية اللغوية
لكلامه على خلاف مقتضى الظاهر، مراعيًا في ذلك أمورًا اعتبارية يتطلبها السياق،
فتنشأ بلحاظ ذلك أفعالا كلامية غير مباشرة تستلزم من سياقات الكلام^(١).

و يتجلى الفعل الكلامي غير المباشر في الجملة الخبرية في بيان تفسير قوله

تعالى: ﴿قُلِ الْخِرَاصُونَ^(١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرٍ سَاهُونَ^(١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ^(١٢) يَوْمَ
هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ^(١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ سَاجِدُونَ﴾ [الذاريات: ١٠ - ١٤]،
قال ابن طاووس رادًا على الجبائي الذي يرى أن الله ﷻ أمر نبيه ﷺ والمؤمنين بأن يدعوه
من أجل قتل الخراصين وأن يذّهم ويهلكهم بوساطة المؤمنين أو بعذاب من عنده^(٢)،
قال: «ما نجد لهذا التأويل مطابقة للآية، أو مناسبة لها، وهل أمر للنبي ﷺ وللمؤمنين
بالدعاء؟ أو هل ترى للخراصين من الصفات التي ذكرها الجبائي صفة واحدة في الآية
على التعيين؟ وهل تضمّنت غير التهديد من الله تعالى للخراصين الكذابين بلفظ الدعاء
عليهم منه تعالى؟»^(٣).

إنّ ما يستوقفنا في المتن الطاوسي أنّ الخبر المؤدّي بالجملة المبنيّة للمجهول: ﴿قُلِ
الْخِرَاصُونَ﴾ قد خرج من حقيقته إلى سياق إنتاجي إنجازي تأثيري تداولي (التهديد) في

(١) مظاهر التداولية في مفتاح العلوم: ١٣٧.

(٢) سعد السعود: ٤٤٣، وينظر: مجمع البيان: ٩ / ١٥٣.

(٣) سعد السعود: ٤٤٣.

الخطب الأخلاقي والبناء والتدوير

ظَلَّ الدعاء عليهم ومقتضى هذا البناء يوَلِّد هذا السياق، فالسكوت عن الفاعل لفظ الجلالة (الله) قد أعطى تعجيلاً قوياً، زِدْ على ذلك تهديداً ووعيداً وتعجباً، ويبدو أنَّ معانية السياق وتوظيفه كان له الأثر في استظهار هذا الفعل الكلامي غير المباشر.

والذي يبدو أنَّ ابن طاووس لم يخرج عما ذكره الجُبائي من استيحاء الفعل التهديدي التدلوي، إلاَّ أنَّه يرى التوسيع في استدراج الدلالات من دون التقييد بالدعاء على الخراصين إنَّ ذلَّةً أو هلاكاً، وفي ما يأتي مخطَّط بيِّن هذه الرؤية:

الخبر < قُتِل الخراصون > < الصدق (الفعل الكلامي المباشر) > < التهديد (الفعل الكلامي غير المباشر) >

ويزهَرُ الفعل الكلامي غير المباشر في الخطاب الأخلاقي الطاووسي (السياق الإنتاجي التوليدي (سوء العاقبة والمآل) في بيان حال أعمال الذين كفروا وأفعالهم غير الأخلاقية، مبيِّناً عاقبتهم المخزية وسوء مآلهم في ظلِّ قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً﴾ [الفرقان: ٢٣] قال: «قال الرُّماني: حقيقة قَدِمْنَا هنا عَمِدْنَا إلى ما عَمِلُوا و (قَدِمْنَا) أبلغُ منه؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّه عاملهم معاملة القادم من سفره؛ لأنَّه من أجل إهماله لهم لمعاملة الغائب عنهم ثُمَّ قَدِمَ فرآهم على خلاف ما أمرهم (...)، ويحتمل في الآية في النكت، ما لم يذكره الرُّماني وهو أنَّ الله ﷻ لما شَبَّه أعمالهم فيما قَدِمْنَاهُ، مثل هذا السراب الذي يَرى ظاهره لم يَبْقَ بُدٌّ من أن يشاهدوا معنى أعمالهم في القيامة (...)، إنَّ الذي يشاهدونه من أعمالهم بمحضرهم ومشاهدتهم وهم ينظرون هباءً منثوراً تالفاً لا أصلَ له، فإنَّ إتلاف ما يعتقدُه الإنسان ملكاً له ونافعاً له بمحضره ومشاهدته أوقع من عذابه»^(١).

وتأسيساً على معانية النص، يمكننا الاستنتاج إنَّ الخطاب القرآني خرج على مقتضى الظاهر مع مراعاة حال المخاطب يعد إنجازاً لأفعال كلامية غير مباشرة؛ لأنَّ الخطاب

(١) سعد السعود: ٥٦٥، وينظر: النكت في إعجاز القرآن: ٨٦، ٨٧.

الفصل الثالث

حينها قد استشرف نفسيّة متلقّيّه وراعى الحال غير الظاهرة في المقام؛ ليصل إلى إخراج كلامه على مقتضى تلك الحال وهذا «ما يدلُّ على مراعاة لأوضاع غير لسانیّة لا تظهر على مستوى البنية السطحية للكلام، وإنّما يتم الوصول إليها على مستوى البنية العميقة ممّا يعني أنّ هناك علاقة متينة بين قصد المتكلّم ومقام المتلقّي ونفسيّته (...) وهو ما تركّز عليه اللسانيات التداوليّة في أبحاثها»^(١).

وعود على بدء فإنّ الخطاب القرآني كشفَ مشاعر هؤلاء الكافرين ونفسيّتهم وهم يرون بأنّ أعينهم كيف تنهوى أعمالهم وتتطير كذرات الرماد؟ وهو مصداق عظيم على سوء عاقبتهم ومآلهم المخزي.

من الجمل الخبريّة التي جاءت في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ بدلالة الأمر الذي خرج إلى الدعاء، دعاؤه المعروف (دعاء العبرات)، قال: «وبالمراحم والمكارم التي لا يعلم غيرك محلها (...) أن تُصليّ على محمّد وآل محمّد ﷺ؛ وأن تُعجلَ قضاء كلّ حاجة لمن يريد تقديم حاجاته قبل حاجاتنا وذكر مهماته قبل مهماتنا وأن تُجعلَ حوائجنا تابعة لإرادته وإرادتك بإجابتك (...) وأن تُعجلَ قضاء جميع ما ذكّرتَه (...) وأن تُجعلَ هذه التوسّلات من أسباب تكميلها وتسهيلها وتعجيلها وأن تملأ قلوبنا من معرفتك وهيبتك وعظمتك وحرمتك (...) وأن تُلهِمنا كلّما تريد منا وترضى به عنا وأن تُكاشِفنا بجلالك (...)، وأن تُدبّرنا في الكثير والقليل بتدبيرك الحسن الجميل، وأن تحفّظنا ومن يعيننا أمره بما حفظت كل من حفظته وتسعدنا بكل ما أسعدته وأن تمكّنا من الأعمار بأطولها ومن الأعمال بأفضلها وأن تنصرنا على كلّ من يؤذينا أو يمكن أن يؤذينا نصرًا أنت أهلّه وأن تُدْهِم لنا ذلّا هم أهلّه وأن تُدِيلنا منهم إدالة أنت أهلّها وأن تزيحهم بانتصارنا عليهم من الآثام (...) وأن تلمح أهل الإساءة إلى من يريد ذكره قبل ذكرنا وتعظيم قدره على قدرنا»^(٢).

(١) مظاهر التداوليّة في مفتاح العلوم: ١٤٣.

(٢) مهج الدعوات ومنهج العناية: ٣٢٩، ٣٣٠.

الخطب الإلهية في رباعية التذلّ

فالجملة الخبرية المؤدّية بـ(أَنْ) الناصبة والفعل المضارع، نحو: (أَنْ تُصَلِّيَ)، و (أَنْ تُعَجِّلَ)، و (وَأَنْ تَجْعَلَ)، و (أَنْ تُلْهِمَنَا) و (أَنْ تُدَبِّرَنَا)، و (أَنْ تَمْلَأَ)، و (أَنْ تُدَبِّرَنَا)، و (أَنْ تُحَفِّظَنَا)، و (وَأَنْ تَمَكِّنَا)، و (أَنْ تَنْصِرَنَا)، و (أَنْ تَذُفَّهُمَ)، و (أَنْ تُدِيلَنَا)، و (تُزِيحَهُمَ)، خبرية المَبْنَى إنشائية المعنى، والتقدير (صَلِّ، وَعَجِّلْ، وَاجْعَلْ، واملأ، وألهم، وكاشف، ودبّر، واحفظ، ومُدِّ...)، ويرى الأصوليون أنَّ التعبير بالجملة الخبرية في مقام الطلب والإيقاع أكد من الوجوب المستفاد من مثل صيغ الأمر: (فعل الأمر الصريح، والفعل المضارع المقرون بـ(لام الأمر) واسم فعل الأمر، والمصدر النائب مناب فعله) ^(١).

وتأسيًا على ما سبق فإنَّ هذه الأفعال الكلامية المتمثلة في الجملة الفعلية المكونة من محمول الفعل (صَلِّ، و عَجِّلْ... وغيرها) وموضوعه الفاعل المسكون عن لفظ الجلالة الله، الدال على الذات الإلهية تمثل أفعالاً إسنادية وإحالية، ودلالية، فضلاً عن ذلك الفعل الإنجازي الذي تتشكّل حمولته الدلالية، من قوة إنجازية حرفية وهي الأمر والطلب، وقوة إنجازية مستلزمة تتمثّل في الدعاء وطلب الإعانة والاستجابة.

ونستشف أفعالاً كلامية غير مباشرة في الجملة الخبرية، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، قال ابن طاووس: «فإن ظاهر الآية تقتضي أنَّ التلاوة توجب و جلّ قلوبهم، وزيادة إيمانهم وهو يعرف وكلّ عارف أنَّ كلام السلطان العظيم الشأن إذا سمع بالقلوب والأذان أَرهَب للسامع، واقتضى خوفه قبل أن يتدبره وخاصة إذا كان ظاهر لفظه تهديداً أو وعيداً، على أنَّ في القرآن ما لا يحتاج سامعه إلى تدبر وتفكر من الألفاظ المحكمة التي يفهم باطنها من ظاهرها، أقول: بل لو أنصف عبد الجبار قال: أنَّ متى شرع سامع القرآن في التفكير والتدبر الذي يشغله عن لفظ التلاوة

(١) ينظر: العدة في أصول الفقه: ١/ ١٦٥، ١٦٦، وشرح في علم الأصول (شرح الآخوند للكفاية

بقلم تلميذه الخوئي): ٢٠٤، ٢٠٥.

الفصل الثالث

صار إلى حال ربُّها زال الخوف عنه في كثير من الآيات والتلاوات^(١)، فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] خبر خرج من دلالة الحقيقة وهما: إفادة الخبر، ولازم الفائدة إلى سياق إنتاجي توليدي (التهديد والتعظيم) فالجملة الفعلية المؤدية بالبناء للمجهول (ذُكِرَ الله) والجملة الشرطية الأم ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أعطت بُعداً تداولياً إنجازياً مستلزماً التهديد والتعظيم ويبدو أن السياق بمعانيتها المتواضعة لذيل الخطاب القرآني ألفينا فيه ما يُشكِّل هذا الفعل الإنجازي التأثيري وهو قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤] المبدوء باسم الإشارة (أولئك) الذي يدل على البعد المكاني ومن ثم يعطي دلالة أخرى (التعظيم).

وقياساً على ذلك فإن الفعل الكلامي على حدّ تعبير (أوستين)، هو: «نواة مركزيّة في الكثير من الأعمال التداوليّة، وفحواه أن كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكليّ دلاليّ إنجازيّ تأثيريّ»^(٢).

أولاً: الأمر

طلب الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام وهو أسلوب إنشائيّ طلبيّ مليءٌ بالدلالة الإيحائية، وله أربع صيغ: فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر^(٣)، وقد لاحظ البلاغيون أن الأمر قد يخرج عن دلالة الأصلية الحقيقية وهي: الإيجاب والإلزام إلى معانٍ آخر (سياقات إنتاجية توليدية) تفهم وتستنبط من سياق الكلام وقرائن الأحوال^(٤).

(١) سعد السعود: ٥٦٥، وينظر: متشابه القرآن: ١/ ٣١٢، ٣١٣.

(٢) التداولية عند العلماء العرب: ٤٠.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم: ١٥٢، الطراز: ٣/ ٢٨٢.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ١٥٢.

الخطبة الاخلاقي وبعاءة التذلل

وقال في وصف أهوال يوم عاشوراء: «يا له من يوم كسفت فيه شمس الإسلام والمسلمين، وخسفت به بدور الطاهرين» (...) وقال لسان حال الرسول الداعي لكل سامع وواع، الساعين إلى سفك دمه الشريف بسوء المساعي: إذا لم تتجاوزونا على الإحسان، ولم تعترفوا لنا بحق العتق من الهوان ومن عذاب النيران، ولم تذكروا لنا بسط أيديكم على ملوك الأزمان، وما فتحنا عليكم من أبواب الرضوان والجنان، فارجعوا معنا إلى حكم المروءة والحياء وعوائد الكرم في الجاهلية الجاهلاء»^(١)، وقبل أن نُحلل الفعل الكلامي المتضمن في (فارجعوا)، لأبّد من الإشارة إلى أنّ الخطاب الطاووسي، جاء على لسان الإمام الحسين عليه السلام، بأننا لم نتجاوز الإحسان معكم، وأطلقنا سراحكم يوم فتح مكة، مذكّراً إياهم بقول جدّه المصطفى عليه السلام: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)؛ من أجل التقريب التداولي، فهم مُسلمة الفتح الذين ناهم عفو النبي عليه السلام وصفحه يوم فتح مكة: «يا معشر قريش، ويا أهل مكة ما ترون أنّي فاعلٌ بكم، قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابنٌ أخٍ كريم، ثم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٢)، هذه الرحمة الوسيعة من الخطيب بالقرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، لم يقابلها المحاربون لذريّة سيّد المرسلين بالجزاء، فقد أوغلوا بدماء الذريّة الطاهرة قتلاً وتمثيلاً «فوطئوا ظهراً كان لهم ظهراً ونصراً»^(٣)، زدّ على ذلك دعوتهم إلى الرجوع إلى مناقب العرب الأصلية من مروءة، وكرم وعفو وإحسان، وبيان الفعل الكلامي: (فارجعوا)، يتكوّن من فعل إسنادي (جملة فعلية)، مكوّنة من محمول فعل (ارجع)، وموضوعه الفاعل (الضمير المتصل واو الجماعة)، والفعل الإحالي: إحالةٌ إلى هؤلاء المنحرفين الضالين الذين لا يرجون لله وقاراً في ذرية المصطفى عليه السلام، والفعل الدلاليّ يتكون من القضية التي تتمثل في أمر الإمام الحسين عليه السلام

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٥٣ / ٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك تاريخ الطبري: ٣٣٧ / ٢، وينظر: الكامل في التاريخ: ٢٠٢ / ٢.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٦٢ / ٣.

الفصل الثالث

هؤلاء في الرجوع إلى خصال العرب الذائعة الصيت قبل الإسلام كي يرفعوا، وتكون لهم تذكرة، زد على ذلك نقدح بالاستلزام المنطقي؛ لأنَّ سرد هذه الخصال والشائيل من صفح وعفو وإحسان فيها تعبيرٌ عن قيم الإسلام العظيمة من جهة، والتذكير بأصداها (القيم السيئة).

أمَّا فيما يتصل بالفعل الإنجازي، فتتجسّد في الحمولة التي ترشح من فعل الأمر (فارجعوا)، إذ يأمر الإمام الحسين عليه السلام تذكيرًا وتنبيهًا هؤلاء القتلة الظلمة من استذكار صنيع جدّه بهم من جهة، واستلهم فضائل العرب الأصلاء، وشائيلهم من جهة أخرى. ومن السياقات الإنتاجية التوليدية التي ترشحت من سياق الأمر في الخطاب الأخلاقي الطاووسي سياق الترغيب، قال ابن طاووس في بيان فضيلة شهر رمضان وما يتحصّله الصائم من فضائل وملكات أخلاقية: «واعلم أنَّ شهر الصيام مثل دار ضيافة فتحت للأنام، فيها من سائر أصناف الإكرام والأنعام، ومن ذخائر خلع الأمان والرضوان، وإطلاق كثير من الأسراء بالعصيان، وتوقيع بممالك وولايات ربانيات حاضرات ومستقبلات، ومراتب عاليات ومواهب غاليات، وطبي بساط الغضب والعتاب والعقاب، والإقبال على صلح أهل الجفاء لرب الأرباب. فينبغي أن يكون نهوض المسلم العارف المصدق بهذه المواهب إلى دخول دار الضيافة بها على فوائد تلك المطالب بالنشاط والإقبال والسرور وانسراح الصدور»^(١)، وبيان ذلك أنَّ فعل الأمر (اعلم) خرج من دلالته الأصلية (الوجوب والإلزام) إلى سياق إنتاجي (الترغيب بالمغفرة ونيل السعادة)، ويتضح الفعل الكلامي الإنجازي التأثيري في ضوء المخطط الآتي:

الأمر (صيغة اعلم) ← إنشاء طلبيّ ← سياق إنتاجي (الترغيب بالمغفرة)

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١ / ٧٠.

الخطب الأخلاقية وأبعادها التكوينية

ومن السياقات الإنتاجية التوليدية التي ترشّحت من أسلوب الأمر في الخطاب الأخلاقي الطاووسي بوصفها أفعالاً كلامية غير مباشرة، سياق النصح والإرشاد، قال في وقت الوداع لشهر رمضان: «فاجتهد في وقت الوداع على إصلاح السريرة، فالإنسان على نفسه بصيرة، وتخيّر لوقت وداع الفضل الذي كان في شهر رمضان اصلح أوقاتك في حسن صحبته، وجميل ضيافته ومعاملته، من آخر ليلة منه، كما رويناه، فإن فاتك الوداع في آخر ليلة، ففي أواخر نهار المفارقة له والانفصال عنه، فمتى وجدت في تلك الليلة أو ذلك اليوم نفسك على حال صالحة في صحبة شهر رمضان فودّعه في ذلك الأوان، وداع أهل الصفا والوفاء، الذين يعرفون حق الضيف العظيم الإحسان، واقض من حقّ التأسف على مفارقتهم وبعده، بقدر ما فاتك من شرف ضيافته، وفوائد رفته، وأطلق من ذخائر دموع الوداع ما جرت به عوائد الأجرة إذا تفرقوا بعد الاجتماع»^(١)، فالفعل الكلامي (اجتهد) يكون من فعل إسنادي يتمثل من الجملة الفعلية الأمرية المكوّنة من محمول الفعل (اجتهد)، وموضوعه الرئيس الفاعل المستتر (الصائم)، وفعل إحالي (إحالة إلى الصائم) عن طريق الإشارة إليه بالضمير (أنت) وفعل دلالي الذي يتشكّل من القضية التي تتمثل في أمر الصائم بوداع هذا الشهر بإصلاح السريرة والنقاء والصفاء، وتشكّل القضية من الاقتضاء (تهذيب النفس بعد انقضاء هذا الشهر)، والاستلزام المنطقي (أمر الصائم بتهذيب النفس وتصحيح المسار).

ويظهر الفعل الإنجازي في ضوء الجملة الفعلية (اجتهد) التي تتكوّن حملتها الدلالية في أمرين، الأوّل: قوة إنجازية حرفية تتمثل في الأمر، والآخر: قوة إنجازية مستلزمة تتمثل في النصح والإرشاد.

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١ / ٤٢١.

الفصل الثالث

فظاهر الخطاب الطاووسي يدلُّ على أمر الصائم بتهديب النفس، ورفع الأدران والحجب وهو فعل إنجازي مباشر (الأمر)، وفعل لغوي غير مباشر يفهم من سياق الجملة وقرائن الأحوال ويتمثل في فعل النصح والإرشاد.

قال ابن طاووس في بيان حال الكافرين الظالمين، حينما تركوا الحق وركنوا إلى الكفر والانحراف، وقد وصف الحق ﷻ حالهم، وعاقبتهم، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّأَرِضْ أَلْبَعَىٰ مَاءٍ لِّكَ وَيَسْمَأُ أَقْلَعَىٰ وَغِيصَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، قال ابن طاووس: «يقال: أَبْعَدُ بُعْدًا وَبَعْدًا إِذَا أَرَادُوا البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء»^(١)، فقد جاء الخطاب (وقيل بُعْدًا) المؤدى بالجملة المبنية للمجهول الخبرية بنية، الإنشائية دلالة، فنلَمَح الأمر الذي خرج من دلالته الرئيسة المحورية (الطلب والوجوب) إلى الدلالة التأثيرية الإنجازية (الدعاء) عليهم بالهلاك والخسران، وتشتدُّ القيمة الدلالية في تضافر الفعل المبني للمجهول (قيل)، مع المصدر النائب مناب فعله (بُعْدًا) من أجل توليد سياق الدعاء السريع بمعية الدلالات التعجب والتأكيد والاقتصاد، وفيما يأتي مخططًا يبين ذلك:

الأمر ← بنية (بعْدًا) ← المصدر النائب مناب فعله ← سياق انتاجي توليدي (الدعاء)

قلنا من قبل: إنَّ الإنشاء، يكون مجردًا من المرجع الخارجي، وتنحصر دائرته في البناء اللغوي ذاته؛ فتتحقق الفائدة الدلالية ابتداءً من دون الرجوع إلى الواقع الخارجي، فهو يُلقَى إلى المتلقي ليستدعي مطلوبًا ما، لم يكن حاصلًا وقت الطلب^(٢)، ومن ثمَّ فهو لا يحتمل الصدق أو الكذب؛ لكونه لا يلقي معلومة للمخاطب.

(١) سعد السعود: ٢٥٠.

(٢) ينظر: البلاغة والأسلوبية عند السكاكي: ١٩١.

ثانيًا: النهي

طلب الكف عن فعلٍ على وجه الاستعلاء وصيغته (لا تفعل) ^(١)، وهذا الأسلوب واحد من الأساليب الإنشائية الطلبية التي حفل بها الخطاب الأخلاقي الطاووسي، وتتجلى الخصائص الأسلوبية في هذا الملحظ الأسلوبي في علاقة الخطاب بالسياق أو مقتضى المقام.

وقد يخرج النهي إلى سياقات إنتاجية توليدية تفهم من السياق وقرائن الحال، وهذا الخروج يشتمل على قيمة تعبيرية إيحائية من جهة، ومقاربة تداولية من جهة أخرى.

وسنفي بعض الخطابات الأخلاقية الطاووسية التي ورد فيها هذا الأسلوب مبيين الفعل الكلامي المؤدى بصيغة (لا تفعل) بوصفه فعلاً إنجازياً، سواء أكان مباشراً أم غير مباشر، الذي يعنينا هنا الفعل الكلامي غير المباشر، قال ابن طاووس في بيان استقبال شهر رمضان المبارك: «أقول: فلا تكن أيها الإنسان ممن نزل به ضيف غني عنه، وما نزل به ضيف منذ سنة أشرف منه وقد حضره للإنعام عليه، وحمل إليه معه تحف السعادات، وشرف العناية، وما لا يبلغه وصف المقال من الآمال والإقبال، فأساء مجاورة هذا الضيف الكريم، وجفاه وهون به، وعامل معه معاملة المضيف اللئيم، فانصرف الكريم ذاماً لضيافته، وبقي الذي نزل به في فضيحة تقصيره وسوء مجاورته، أو في عار تأسفه وندامته. فكن إما مُحسناً في الضيافة والمعرفة بحقوق ما وصل به هذا الضيف من السعادة والرحمة، والرأفة والأمن من المخافة، أو كن لا له ولا عليه، فلا تصاحبه بالكراهة وسوء الأدب عليه، وإنما تهلك بأعمالك السخيفة نفسك الضعيفة، وتشهرها بالفضائح والنقصان، في ديوان الملوك والأعيان، الذين ظفروا بالأمان والرضوان» ^(٢).

(١) ينظر: على سبيل المثال مفتاح العلوم: ٣٢٠، والطراز: ٣/ ٢٧٤، والإيضاح في علوم البلاغة العربية: ٨٥.

(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١/ ٤٢١.

الفصل الثالث

ويمكن بيان هذه المقاربة التداولية في ضوء المخطط الآتي:

أسلوب الطلب ← النهي ← لا تكن ← فعل إنجازي ← تنبيه وتحذير.

فالفعل الكلامي (فلا تكن) فعل إسنادي يتمثل في الجملة الفعلية المكوّنة من محمول الفعل (تكن)، وموضوعه الفاعل المستتر (المستقبل لشهر رمضان)، والفعل الإحالي (إحالة إلى الشخص المستقبّل المكلف بالصيام بالضمير أنت)، والفعل الدلاليّ المكوّن من القضية التي تتمثل في تنبيه الشخص المكلف أو المستقبل لهذا الشهر من الكشف عن أمره عن طريق توكي الحذر من ترك صيام هذا الشهر الفضيل، وتكوّن القضية من اقتضاء صيام شهر رمضان المبارك، واستلزام منطقي (النهي عن ترك صيام هذا الشهر)، والفعل الإنجازي تتكون حملته الدلالية من قوة إنجازية حرفية هي (النهي)، وقوة إنجازية مستلزمة تتمثل في تحذير الشخص المكلف باستقبال هذا الشهر الفضيل صياماً.

فهذه الجملة (فلا تكن) يسايرها فعلاً لغويان، فعلاً لغويّ مباشر تطابق فيه قوته الإنجازية معناه الحرفي المتمثل في فعل النهي الذي نستدلّ عليه في ضوء القرائن البنيويّة (لا الناهية) والفعل المضارع (تكن) غير أنّ الجملة بلحاظ السياق المقامي الذي وردت فيه لا يقصد منها إنجاز (فعل النهي)، وإنّما أنجز في ضوئها (فعل التحذير)، الذي نستدلّ عليه من سياق الحال الذي يمثل فعلاً لغويّاً غير مباشر.

ونقدح بسياق الوعظ والإرشاد في المتن الأخلاقي الطاووسي حينما وعظ المخاطب وأرشده إلى إجهاد النفس، والعمل الكثير، والشغل العظيم في طاعة الله ﷻ ورضوانه، قال: «ولا تستكثرنّ لنفسك شيئاً في دنياك ولو كان أضعاف ما يحتاج إليه فمنازل دار المقامة وسيعة تحتاج إلى قماش كثير، والمقام هناك دائم يحتاج إلى استعداد كبير، وحيث قد ذكرنا ما أردنا ذكره من الصلوات في جميع ليالي الأسبوع وأيامه بهذه

الخطب الإخلاقي وأبعاده التكوينية

الروايات فنحن الآن ذاكرون بما يفتحه الله ﷻ علينا من الإمكان ما يختار ذكره من عمل: إمّا دعاء أو صلوات للحاجات أو غير ذلك مما نجده في الروايات عن الأبرار أو حديث باختيار يوم من أيام الأسبوع للأسفار^(١)، فالفعل الكلامي (لا تَسْتَكْثِرَنَّ)، والفعل الإسنادي يتمثل في الجملة الفعلية المكوّنة من محمول فعل النهي (لا تَسْتَكْثِرَنَّ)، وموضوعه الفاعل المستتر (العبد)، والفعل الإحالي (إحالة إلى العبد المكلف من طريق الإشارة إليه بالضمير المستتر (أنت)، وفعلٌ دلاليّ يتشكل من القضية التي تتمثل في نهى ابن طاووس العبد المكلف في المباهاة بالعبادات والاطمئنان بها، وتكوّن من أمرين، الأوّل: الاقتضاء (اقتضاء القيام بالأعمال الكثيرة والمباهاة بها تفاخرًا وعجبًا، من دون لحاظ أنّ دار المقام (الجنة) بحاجة إلى الذوبان في ذات الله ﷻ والوصول إلى أعلى مراقبي التقوى والسعي في مرضاة الله، والآخر: استلزام منطقيّ، إذ نهى ابن طاووس عن العُجب بالأعمال مهما كُثرت وعظمت.

ويتجلّى الفعل الإنجازي في الجملة الفعلية (لا تَسْتَكْثِرَنَّ) التي تتشكّل حولتها الدلالية من قوة إنجازيّة حرفيّة، هي: النهي، وقوة إنجازيّة مستلزمة تتمثل في الوعظ والإرشاد، فالمتن الأخلاقيّ الطاووسيّ أنجز فعلين لغويين، فعلٌ لغويّ مباشر يتمثل في نهى ابن طاووس المخاطب عن العُجب، والتفاخر، والتباهي بالأعمال الصالحة في الدنيا، ونستدل على فعل النهي في ضوء القرائن النبوية، نحو: (لا) الناهية، والفعل المضارع المنهّي، وإنّما أنجز فعل الوعظ والإرشاد الذي يمثل لنا فعلًا لغويًا (غير مباشر).

فابن طاووس يرشد مخاطبه من طريق نهيه عن العُجب والفخر بالأعمال؛ لأنّ دار المقامة (الجنة) بحاجة إلى السعيّ والجهد وترويض النفس.

(١) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ١٠٩.

الفصل الثالث

ومن المواضع التي ورد فيها النهي بوصفه فعلاً كلامياً إنجازياً غير مباشر قول ابن طاووس الحليّ: «وإن احتجّت إلى سفر (...) فلا تسافر بالطبع والغفلة والأطماع الدنيويّة فتكون مخاطراً مع الله ﷻ ومهوّناً لجلالته الإلهيّة ومضيّعاً زمان أسفارك في غير ما ينفعك لدار قرارك»^(١).

فالفعل الكلاميّ (فلا تسافر)، يتكون من (فعل إسناديّ) يتمثّل في الجملة الفعلية المكوّنة من محمول الفعل (لا تُسافر)، وموضوعه الفاعل المستتر (المخاطب)، و(فعل إحاليّ) إحالة إلى (المخاطب) من طريق الإشارة إليه بالضمير المضمّر (أنت) و(فعل دلاليّ)، الذي يتكون من القضية المتمثّلة في نهى ابن طاووس الحليّ عن السفر المذموم (سفر المعصية والغفلة والأطماع الدنيويّة)، وتشكّل هذه القضية من اقتضاء إمكانية سفر الغفلة والمعصية، (واستلزام منطقيّ) نهى ابن طاووس المخاطب عن هذا السفر (سفر الشرّ والغواية)، و(فعل إنجازي) يتجسّد في هذه الجملة الفعلية، التي تشكّل من (قوة إنجازية حرفية)، هي النهيّ (لا تسافر)، (قوة إنجازية مستلزمة) تتمثّل في التحذير والتهديد، فظاهر قول ابن طاووس يدلّ على نهيه عن سفر الغفلة والمعصية والأطماع الدنيويّة، فهو سفر الشيطان والضلال لا يعود على صاحبه إلّا بالندم والبعد عن الله ﷻ.

ثالثاً: الاستفهام

طلب الفهم من الآخرين من أجل الفهم والاستعلام والاستخبار^(٢)، وهو أسلوب إنشائيّ طلبيّ مهم له قيمته الإيجائية والأسلوبية في بنية النص وما يضيفه من أثر جماليّ على الصورة التي يظهر فيها، ولاريب أنّ الاستفهام أوفر أساليب الكلام معاني وأوسعها تصرفاً وأكثرها في مواقف الإنفعال وروداً ولذا نرى أساليبه تتوالى، في

(١) كشف المحجة لثمرّة المهجة: ١٧٧.

(٢) ينظر: على سبيل المثال مفتاح العلوم: ١٥٠، والطارز: ٣/ ٢٨٦.

الخطب الأخلاقية والعبادة والتدوينة

مواطن التأثير وحيث يراد التأثير وهيج الشعور للاستمالة والإقناع وإذا صحَّ القول: إنَّ للكلام قمة عليا في البلاغة كان أسلوب الاستفهام محتلاً أعلى مكان في تلك القمة»^(١).

قد يخرج الاستفهام بوصفه فعلاً كلامياً عن حقيقته (طلب الفهم والاستخبار) إلى معانٍ مجازية تفهم من السياق وقرائن الحال وهذا فهم البلاغيين أجمع^(٢)، والذي يبدو أنَّ خروج الاستفهام من دلالاته المركزية (الحقيقية) إلى سياقات إنتاجية وتوليدية تحصلت بفعل سياق الكلام ودرجه، وهذا ما تنبه عليه التداوليون فذكروا الأفعال الكلامية الإنجازية والتأثيرية انسجاماً مع ما يحدثه السياق من تفاعلات خطابية.

وآن الأوان أن نستثمر النصوص الطاووسية في استجلاء السياقات الإنتاجية والتوليدية التي ترشّحت من النصوص ولاسيما في خطابه الأخلاقية المتضمنة لأسلوب الاستفهام، قال ابن طاووس مستنكراً الذين لا يرجون حرمة دم الإنسان وقاراً فالإنسان ذو كرامة لا يمكن أن يباح دمه وماله - وإن كان ذا عقيدة مخالفة فاسدة - ومستنكراً ما يفعله ذوو الأفكار المنحرفة والضالة في زمنه، والحال في زماننا هذا من إزهاق دماء المسلمين وغيرهم بحجة عقيدتهم المخالفة، قال: «كيف كان الله ﷻ يبيح دمه وماله وما أحسن به إليه وما مضى عليه من الزمان بعد بلوغ رشاده ما يكفيه لتعلمه من أستاذه ومن ملازمته وتردده والله ﷻ أرحم من الخلق كلهم بعباده وما أباح دمه إلا وقد اكتفى منه بما فطره عليه وبما يسعه بأقل زمان بعد إرشاده لاعتقاده»^(٣)، فالاستفهام في الخطاب الأخلاقي خرج من دلالاته المباشرة (طلب الفهم) إلى دلالة غير مباشرة (سياق الاستنكار).

(١) فن البلاغة: ١٣٧.

(٢) ينظر: على سبيل المثال مفتاح العلوم: ١٤٩، والطراز: ٥٣٢، والإيضاح في علوم البلاغة العربية: ١/ ١٣٧.

(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٥٣.

الفصل الثالث

ومن السياقات الإنتاجية التداولية التي خرج إليها الاستفهام في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، سياق التقرير، وهو فعلٌ انجازيّ تأثيريّ، قال مبيّنًا مرجعية المعرفة الإلهية: «فهل ترى يا ولدي المعرفة بالله إلّا من الله وبالله وآله ﷺ هو الذي هدى للإيمان بمقتضى القرآن وآنه هو صاحب المنّة في التعريف وآنه لولا فضله ورحمته ما زكّى من أحد في التكليف»^(١)، ولا يخفى أنّ قول ابن طاووس من روائع الكلام، وأمّات البيان... فأجمل بقوله: (المعرفة بالله إلّا من الله وبالله) وآله ﷺ هدى للإيمان بمقتضى القرآن.

ومن السياقات الإنتاجية التداولية التي خرج إليها الاستفهام في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ (سياق التعجب) الذي صرّح به ابن طاووس، قال في بيان كرامات السيّد مريم ﷺ: «وبلغت مريم إلى كرامات وسعادات حتّى أنّ النبيّ المعظم في وقتها زكريا يدخل عليها في المحراب فيجد عندها طعامًا يأتيها من سلطان يوم الحساب بغير حساب ويفهم من صورة الحال أنّ زكريا ما كان يأتيه مثل ذلك الطعام؛ لأنّه ﷺ قال أنى لك هذا؟ على سبيل التعجب والاستفهام وهو أقرب منها إلى صفات الكمال»^(٢)، فالاستفهام خرج من قوته الإنجازية المباشرة (طلب الفهم والاستخبار) إلى قوة إنجازية مستلزمة (التعجب) وهو إظهار الدهشة والانبهار.

ومن السياقات الإنتاجية التداولية التي خرج إليها الاستفهام من دلالاته الحقيقية في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ سياق (التحذير)، قال ابن طاووس محذّرًا المخاطب ممّن لا يخاف وعيد الله ﷻ وتبكيته، قال: «كيف صرت عند وعيد الله ﷻ وتهديده قويًا لا تقبل تحذيرًا ولا تخويفًا وكأني بك أنت تقول: إنك تتكل على رحمة الله وجوده وهذا منك بهتان واستخفاف بوعيده، ويحك أنت تعلم من نفسك أنّك عند الذنوب ما يخطر بقلبك إنك تفعلها لأجل رحمة علام الغيوب»^(٣).

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ٦٥.

(٢) م. ن: ٧٣، ٧٤.

(٣) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ١١٨.

الخطب الأخلاقي وعبادة التذلل

فالفعل الكلامي (كيف صرت) يتكوّن من فعل إسنادي جملة فعلية مكوّنة من محمول فعل (صرت)، وموضوعه الفاعل المستتر (العبد)، وفعل إحالي إحالة إلى العبد عن طريق الإشارة إليه بالضمير المستتر (أنت) فضلاً عن (قويّاً) والضمير في (تقبل)، والكاف في (فإنّك)، و (فكأنّك)، وفعلٌ دلاليّ يتشكل من القضية التي تظهر في جحود العبد وعصيانه وعدم خوفه من وعيد الله ﷻ وناره، وتكوّن القضية من أمرين الأول: الاقتضاء، أي اقتضاء جحود العبد ربّه وعدم الخوف من وعيده وناره، والآخر: استلزام منطقي في لوم العبد وتحذيره لجحوده وإصراره على الذنب.

ويتجلّى الفعل الإنجازي في قوتين، قوة إنجازيّة حرفية (الاستفهام بكيف)، وقوة إنجازيّة مستلزمة (تحذير وتوبيخ ولوم وعتاب).

يصوّر لنا هذا الخطاب الأخلاقي الطاووسيّ العبد المصّر على العصيان تكبراً وتعالياً فهو ظالمٌ لنفسه بكفره وعصيانه، وإغفاله قدرة الله ﷻ، وعظمته ووعيده وناره، موبخاً له من طريق سؤاله الذي وجهه إليه: كيف صرت؟ إذ يمثّل الاستفهام هنا فعلاً لغوياً مباشراً نستدلّ عليه حرفياً بقرائن بنيويّة، هي: أداة الاستفهام (كيف)، غير أنّ الجملة في السياق التي وردت فيه لا يقصد بها إنجاز فعل السؤال، وإنّما أنجز بها فعل التحذير والتوبيخ.

وقد يتولّد من الاستفهام غرض تواصليّ تداوليّ وهو (التقرير)، قال ابن طاووس: «أفلا ترى أنّ العقول كانت مع أصحابها قبل إرسال الله ﷻ جدّك محمّداً صلوات الله عليه إليهم كانوا عاكفين على عبادة الأصنام والأحجار والأخشاب يضحك الشيطان بها عليهم وبلغوا إلى أخس وأدبر من الدواب؛ لأنّ الدابة لو تركت بغير سائق ولا قائد ما مشت إلّا إلى ما يعتقد فيه نفعاً بسبب من الأسباب والذين عبدوا الأصنام ما كانت نافعة لهم ولا دافعة عنهم وهي مساوية لسائر الأحجار والأخشاب حتّى تفضّل الله ﷻ

الفصل الثالث

عليهم بجدك محمد ﷺ فأيقظ العقول من رقدتها وكشف عنها غطاء جهالتها فأبصرت ما كان مستورًا عنها»^(١).

فالفعل الكلامي (أفلا ترى)، يتشكّل من (فعل إسنادي) مكوّن من محمول الفعل (ترى)، وموضوعه الفاعل المستتر (ولده محمد)، وفعل إحاليّ إحالة إلى ولده (محمد) من طريق الإشارة إليه بالضمير المستتر (أنت) في الفعل (ترى)، (فعل دلاليّ)، وتشكّل من القضية التي تتمثل في تقرير وإقرار ولده على التأمل والتصور العقليّ في انتقال حال العرب من عبادة الأصنام والأخشاب إلى عبادة الله ﷻ، بفضل الله ﷻ حينما أرسل محمدًا ﷺ فأنقذ البشرية من الظلمات إلى النور، ويظهر الفعل الإنجازي في ضوء تشكّل حملته الدلالية من: قوة إنجازيّة حرفيّة تتمثل في الاستفهام المنفيّ، وقوة إنجازيّة مستلزمة تتمثل في التقرير والإذعان.

ويصرّخ السياق الإنتاجي (التعظيم) في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ في أسلوب الاستفهام، في وصيته لابنه متسائلًا عن عظمة الله ﷻ وقدرته في إنزال الماء وفتح العيون ما تعجز عن فتحها قوة العالمين، «ثم تذكر يا ولدي محمد ذكرك الله ﷻ بما يريد من مراحمه وعرفك بفضل مكارمه كيف أجرى الماء الذي تحتاج إليه من العيون ومن تحت الأرضين وفتحها بقدرته وفيها ماء هو بين صخر أصمّ يعجز عن فتحه قوة العالمين، ثم كيف أنزل ما أنزله من السحاب المسخر بين السماء والأرض وجعل السحاب كالمنخل لينزل بنقط متفرقة سهلة النزول من ذلك العلى ولو جعله جاريًا من الغمام مثل جريه في البحار والأنهار كان قد أهلك بني آدم وأتلف ما خلق لهم من النبات والأشجار وخرّب ما بنوه من الديار، وكيف لم تخلط النقطة في طريق نزولها بمصادمة الهواء، وكيف جعله في وقت دون وقت بحسب الحاجات وجعله مُباحًا مطلقًا للعزير والذليل في سائر

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ٨٠.

الخطب الإلهية في رباعية التذليل

الأوقات لما علم أنه من أهم الضرورات لئلا يمنع الملوك الظالمون عن المحتاجين إليه، وكلُّ عدو عن عدوه، ويفسد تدبير الدنيا، ويموت من منع منه بالمغالبة عليه»^(١)، فالفعل الكلامي: كيف أجرى الماء، ثم كيف أنزل ما أنزله والفعل الإسنادي مكوّن من محمول الفعل (أجرى)، و(أنزل)، ومن موضوعه الأساس الفاعل (الله ﷻ)، والفعل الإحالي: إحالة إلى الله ﷻ الذات الإلهية في ضوء الإحالة إليه بـ (الضمير) هو، والفعل الدلاليّ مكوّن من القضية التي تتمثل في قدرة الله ﷻ في انزال الماء من السحاب، وفتح العيون، وانزله نزولاً دقيقاً بقدر معلوم ليس كجريان البحار والأنهار، وتشكّل القضية من:

١. الاقتضاء: اقتضاء وجود خلاق عظيم، وقادر كبير.

٢. استلزام منطقيّ: إنزال الماء واستخراجه من لدن الله ﷻ دليل على قدرته، وعظمته ﷻ.

ويتجلى (الفعل الإنجازي) في حملته الدلالية المكوّنة من (قوة إنجازية) حرفية تتمثل في (الاستفهام - السؤال) بـ (كيف) وقوة إنجازية مستلزمة تتمثل في التعظيم والتفخيم.

رابعاً: النداء

للنداء علاقة متينة بمفهوم الإنشاء بوصفه مفهوماً يتجاوز مجاله الأعمال الطلبية، ويختلف عنها بوجه من الوجوه؛ بسبب تضمّن النداء دلالة التنبيه والإصغاء من جهة، ودلالة إقبال المخاطب ودعوته من جهة أخرى، والنداء يمثل صورة لافتة، وأمرًا مفيداً في دعم فكرة إنتاج النص^(٢)، وقد اضطمّ النص الطاووسي على هذا الخطاب الإنشائي

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ٩٥.

(٢) ينظر: السياقات الإنتاجية للخطاب الإنشائي في نهج البلاغة أسلوب النداء أنموذجاً: ١٥٠،

الفصل الثالث

الندائي التنبيهي بلحاظ النداء والمنادى، سواء ورد هذا الأسلوب بحرف النداء مذكورًا على مستوى السطح أم مضمّرًا على مستوى العمق.

قال ابن طاووس في وصيته لابنه حين لبس اللباس الجديد: «فيحسن أن تقول يا ولدي محمد، عند لبس الثياب الجديدة: اللهم إن كنت تعلم أن فيها شيئًا من المحرمات أو الشبهات فأنت المالك لأصل الحقوق والمالك لمن انتقلت إليه فأسألك أن تجعل لكل صاحب حق فيها عوضًا من فضلك يسدّ عني باب عدلك وألحقني فيها بمقام من ألبست خلعًا طاهرًا من كل حق وشبهة باطنة وظاهرة، وأن تكون هذه ثيابي من خلع السعادات الباهرة في الدنيا والآخرة»^(١).

الفعل الكلامي (اللهم إن كنت تعلم) يتكوّن من فعل إسنادي: يتمثل في الجملة الفعلية (اللهم إن كنت تعلم) المكوّنة من محمول الفعل النائب مناب (حرف النداء) المحذوف، (ياالله)، والأصل أدعو أو أنادي أو أُنَبِّه، والفعل (كان)، ومن موضوع رئيس يتمثل في فاعل (الله) المنادى، والضمير المتصل (تاء المخاطب في كنت)، والضمير المستتر في (تعلم) وهو الله ﷻ، وفعل إحالي إحالة إلى الله ﷻ بالإشارة إليه سواء ظاهرًا (يا الله) أو بالضمير المتصل (ت)، والضمير المضمّر (أنت) في تعلم، وفعل دلاليّ يتكون من القضية التي تتمثل في الدعاء والخشوع وطلب الاستجابة من الخالق العظيم ﷻ، وتسلسل القضية من:

أ. الاقتضاء: اقتضاء الاستجابة من الله ﷻ في تطهير الثوب.

ب. استلزام منطقيّ: التأكيد على قدرة الله ﷻ في إحقاق الحق وتطهير النفوس والثياب، ويتكون (الفعل الإنجازي) من قوة إنجازية حرفية هي (النداء)، وقوة إنجازية مستلزمة: تتمثل في الدعاء لله ﷻ، والتضرع له وطلب الطهارة ورفع الشبهات، والدعاء بجعل الخلع طاهرًا من كل حق وشبهة باطنة وظاهرة.

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ٩٧.

الخطب الأخلاقية والعبادة التداولية

وقد يتولّد من النداء في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ غرض تواصلّي تداوليّ إنجازيّ وهو (المدح والفخر)، قال ابن طاووس في دعاء خاصّ به: «ورأيت في المنام مَنْ يعلمني دعاءً يصلح لأيام الغيبة، وهذه ألفاظه يا من فضّل إبراهيم وآل إسرائيل على العالمين باختياره، وأظهر في ملكوت السماوات والأرض عِزّة اقتداره، وأودع محمّداً ﷺ وأهل بيته غرائب أسرارهِ ﷺ، واجعلني من أعوان حجّتك على عبادك وأنصارهِ»^(١)، فجملة (يا مَنْ فضّل إبراهيم...) تمثل قوة إنجازيّة حرفية تتمثل بالنداء، وقوة إنجازيّة مستلزمة: هي الدعاء فالنداء (يا مَنْ...) بمثابة طلب جواز العبور إلى مدح محمّد ﷺ، وأهل بيته، فقد استطاع هذا الأسلوب أن يطبع المدح لهم، فضلاً عن ذلك هو جواز عبور إلى الأمر في قوله: (واجعلني من أعوان حجّتك على عبادك وأنصارهِ).

من هنا نخلص إلى أنّ الدعاء الطاووسيّ واكبه قوتان إنجازيتان، الأولى: الفعل المنجز بأسلوب النداء المدلول عليه حرفياً بقرائن بنيويّة وهي حرف النداء (يا) وبنية النداء، والأخرى: قوة إنجازيّة هي فعل الدعاء والمدح فجاء عقبان هذا الابتهاج والمدح لآل إبراهيم، الدعاء الخالص بإيداع محمّد وآل محمّد غرائب الأسرار، زدّ على ذلك دعوتَه الخالصة بأن يكون من أنصارهم وأعوانهم، ممّا فتح النداء بُعداً إيمانياً وولائياً يريده حقاً وصدقاً.

تقسيمات سيرل

ومن لواحق هذا الفصل الأفعال الكلاميّة في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ ولوازمه الإشارة إلى تقسيمات (سيرل) التي تعدّ إضافات لتداوليّة أوستن، وهي:

أولاً: التعبيرات

جهد (سيرل) وأسهم في تطوير نظرية الأفعال الكلاميّة بتصنيفه الأفعال الكلامية على خمسة أصناف ابتعد في ضوئها عن تصنيف أستاذه (أوستن) ومنها الأفعال التعبيرية

(١) مهج الدعوات ومنهج العنايةات: ٣١٢، ٣١٣.

الفصل الثالث

التي تمثل غرضًا إنجازيًا في التعبير عن حالة (سايكولوجية) نفسية تعبيرًا يتماشى وبتماهى مع شرط الإخلاص، وليس لهذه الجهة اتجاه مطابقة، إذ لا يقصد بها مطابقة العالم للكلمات، أو مطابقة الكلمات للعالم بل المقصود فيها صدق القضية، ويدخل في هذا الصنف الأفعال من مثل: (شكر، اعتذر، عزي، هنأ،...) ^(١) ومن الخطابات الأخلاقية الطاوسية التي نلمح فيها بُعدًا تداوليًا موظفًا بهذه الكيفية، قوله في الاعتذار عن قبوله الروايات التي طعن فيها من جهة راويها، سواء أكان الطعن من غير معصوم أم من المعصوم، قال: «أقول ومن العذر في نقل حديث في رواية من ينقل الطعن عليه إنني وجدت ذلك الطعن عن غير معصوم وعن معصوم لم يثبت إسناد الطعن إليه، فإنَّ الطعن يحتاجُ إلى شهادة ثابتة مرضية في الشريعة المحمدية ﷺ أو طريق يكون عذرًا واضحًا عند الجلالة الإلهية، أقول ومن الأعداء إنني وجدت أن الإنسان قد يغضب على واحد في الأزمان فيقول عنه في حال غضبه غير ما كان إمّا على عمد أو نسيان ثم يشيع ذلك حتّى يعتقد أو يظن كثير من السامعين إنَّ ذلك حقٌّ، وإنَّه على اليقين، ثم ينكشف بعد هذا لبعض من يستكشف عنه أنَّه ما كان شيء من ذلك قد وقع منه وربما اعترف الذي قال في حال غضبه بأنَّه أخطأ في الطعن والمقال» ^(٢).

ثانيًا: التنبيهات

وهي أفعال كلامية إنجازية تصريحية صرح فيها بالفعل المنجز وهي تحدّد مفاتيح الإنشاء وتختلف عن الجمل الخبرية (التقريرية) التي تحتل الصدق والكذب ^(٣)، ومن التنبيهات التي اضطم عليها الخطاب الأخلاقي الطاوسي ما ذكره لولده من التنبيه على

(١) ينظر: التداولية (البعد الثالث من سمبوطيقا موريس حتّى اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة): ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) فلاح السائل في عمل اليوم والليلة: ٤٨.

(٣) الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ٧٩، ٨٠.

الخطب الأخلاقي وأبعاده التداوليّة

معرفة الله ﷻ والتشريف بذلك التعريف، قال: «إنَّك تجد كُتُبَ الله ﷻ السالفة والقرآن الشريف مملوء من التنبيهات على الدلالات على معرفة مولاهم ومالك دنياهم (...) وترى علوم سيّدنا خاتم الأنبياء وعلوم مَنْ سلف من الأنبياء ﷺ وعليهم، على سبيل كتب الله ﷻ المنزلة عليهم في التنبيه اللطيف والتشريف والتكليف»^(١).

ومن الأفعال الكلاميّة الإنجازيّة التصريحيّة ذات التأثير (التحذير)، قوله محذراً ولده في استبطاء إجابة الله ﷻ واتهام رحمته: «إيّاك أن تستبطيء إجابته وأن تتهم رحمته فإنَّ العبد ما يخلو من تقصير في مراقبة مولاّه ويكفيه أنّه يعظم ما صغر، ويصغر ما عظم من دنياه وأخراه، ويكفيه أنّه يغضب لنفسه ولمنْ يعزْ عليه أكثر ما يغضب لله ﷻ المحسن إليه ويكفيه أنّه ما هو راضٍ بتدبير مالِكه ﷻ بالكلية وأنّه يعارضه بخاطره وقلبه وعقله معارضة المماثل أو الشريك أو العبد السيّء العبودية»^(٢).

ثالثاً: التوجيهات (التحذيرات)

ونلمح أفعالاً كلاميّة مباشرة في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ فيه بعد تداوليّ تحذيريّ، قال ابن طاووس مُحذراً من تضييع الوقت، والتغافل عن العمل: «إيّاك والكسل عن اغتنام أيام المهل والتغافل عن العمل، والموت وقد توجّه إليك، وهو قادم لا محالة عليك ويقطعك عن صالح الأعمال، ويكون اسمك بين أسماء الغافلين الخائنين في الآمال، فإن كنت تجد من نفسك نشاطاً وإقبالاً، وإلا فذكرها وحذرّها وخوفها وعظّمها فعلاً ومقالاً»^(٣)، فالفعل الكلاميّ: (إيّاك والكسل) فعل إسناديّ يتمثل في الجملة الفعلية (احذر إيّاك والكسل)، وموضوعه المفعول به (إيّاك) والمخاطب (العبد)،

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ٤٨، ٤٩.

(٢) م. ن: ٧٣.

(٣) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٤٤.

الفصل الثالث

وفعلٌ إحاليّ (إحالة إلى العبد من طريق الإشارة إليه بالضمير المنفصل (إيّاك)، وفعلٌ دلاليّ يتشكّل من القضية التي تتمثّل في تحذير ابن طاووس العبد عن التغافل ونسيان مراقبة الله ﷻ، وهذا الفعل الدلاليّ يتكوّن من أمرين، الأوّل: الاقتضاء (اقتضاء عدم التغافل ولزوم معرفة أنّ الله رقيبٌ محاسبٌ)، والآخر: استلزام منطقيّ (تحذير ابن طاووس عن الغفلة والسهو والكسل).

ويتجلّى الفعل الإنجازي المتمثّل بالجملة الفعلية التي تتشكّل حولتها الدلالية في قوة إنجازية حرفية، هي: إيّاك والكسل، وقوة إنجازية مستلزمة تتمثّل في التحذير والتنبيه، فالقول ينجز فعلين لغويين، الأوّل: فعلٌ لغويّ مباشر: إيّاك والكسل، يعمل في التحذير الضمير المنفصل المقدّم وجوباً، والآخر: الغاية منه (فعل لغويّ إنجازي) أحذرك الكسل.

ويظهر أنّ القرينة السياقية المقالية قد ساعدت في استظهار الفعل الإنجازي (التنبيه والتحذير) بتلاحق الأفعال الأمرية، وتعاقبها في النسق الطاووسيّ، (فذكرها، وحذرها، وخوفها، وعظّمها).

رابعاً: الإخباريات (التقارير)

ومن الإخباريات (التقارير) في الخطاب الأخلاقي الطاووسيّ دعاؤه للضالين والجاحدين بالهداية، وهو منهج أخلاقيّ عظيم البيان عالي المضمون قلماً نجد نظيراً له في خطابات الأخلاقيين ما خلا الرسل والأنبياء والأئمة المعصومين، قال: «أقول: وكنت في ليلة جليّة من شهر رمضان بعد تصنيف هذا الكتاب بزمان، وانا أدعو في السحر لمن يجب أو يحسن تقديم الدعاء له، ولي ولمن يليق بالتوفيق أن أدعو له، فورد على خاطري أنّ الجاحدين لله ﷻ ولنعمه والمستخفين بحرمته، والمبدلين لحكمه في عباده وخليقته، ينبغي أن يبدأ بالدعاء لهم بالهداية من ضلالتهم، فإنّ جنائتهم على الربوبية،

الخطب الإخلاقيَّة وأبعاد التَّلاوُنيَّة

والحكمة الإلهيَّة، والجلالة النبوِّيَّة أشدُّ من جناية العارفين بالله وبالرسول صلوات الله عليه وآله. فيقتضي تعظيم الله وتعظيم جلاله وتعظيم رسوله ﷺ وحقوق هدايته بمقاله وفعاله، أن يقدم الدعاء بهداية مَنْ هو أعظم ضررًا وأشدَّ خطرًا، حيث لم يقدر أن يزال ذلك بالجهد، ومنعهم من الإلحاد والفساد. أقول: فدعوت لكلِّ ضالٍّ عن الله بالهداية إليه، ولكلِّ ضالٍّ عن الرسول بالرجوع إليه، ولكلِّ ضالٍّ عن الحقِّ بالاعتراف به والاعتماد عليه. ثم دعوت لأهل التوفيق والتحقيق بالثبوت على توفيقهم، والزيادة في تحقيقهم»^(١).

فنلمح التقرير الإنسانيَّ الطاووسيَّ الواضح، في الدعاء الصادق والخالص لله ﷻ في هداية المنحرفين وإرجاعهم إلى ساحة الحقِّ والرشاد، وكذلك تشجيع المؤمنين على البقاء على إيمانهم، والدعوة الخالصة بالثبات إلى منهجهم.

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١ / ٣٨٥.

الفصل الرابع

الاستلزام الحواريّ والحِجاج في الخطاب
الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحليّ

الفصل الرابع

مدخل

ستكون المقاربة التداولية باستشراف مبدأ الاستلزام الحواريّ القائم على إرادة المتكلّم إيصال المعاني والدلالات بوعي أكثر من الألفاظ والعبارات نفسها، وإحساسه العميق أنّ سامعه، ومتلقيه قادرٌ على استظهار واستيحاء دلالات مستلزمة لم تظهر على البنية السطحيّة، ومبدأً الحجاج التداوليّ المستند على تقريب الصور والحقائق، وإيصال الأفكار من أجل الوصول إلى أقصى غايات التقريب التداوليّ.

ومن هنا، فإنّ هذا الفصل سيتناوش هذين البُعدين التداوليّين التقريبيّين رغبةً وحرصاً في استيحاء المعاني والدلالات المتنوعات، واستجلائها في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، الذي انطوى على تطبيقاتٍ وشواهد.

ولمّا كان ابن طاووس الحليّ عارفاً تربويّاً عاملاً، جاء خطابه الأخلاقيّ مشحوناً بقواعد هذين البعدين (الاستلزام الحواريّ) و (الحجاج)؛ لأنّ الخطاب الأخلاقيّ التهذيبيّ - قطعاً - يستلزم، ويتطلّب قدرًا كبيرًا، وحيزًا وسيعًا من الاستلزمات الحوارية وأنماط الحجاج وأنساقه.

الفصل الرابع

المبحث الأول

الاستلزام الحواريّ

إنّ قراءة الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحليّ لا بُدَّ من إدراج البُعد التداوليّ للعصر الذي عاش فيه، فالأثر الوعظيّ والإرشاديّ والتهذيبيّ لا يتحقّق في أدب ابن طاووس وتراثه فحسب، ولكنّ يتحقّق على مستوى التواصل والإقناع والامتناع بين المُتَنبِج للخطاب الأخلاقيّ، وبين المُتلقّي لهذا الخطاب.

يُعَدُّ الاستلزام الحواريّ آليّةً من آليات الخطاب، فهو يُقدِّم تفسيراً لقدرة المتكلم على أن يعي أكثر ممّا يقول: أي أكثر ممّا تؤدّيه العبارات المستعملة، فاستعمال جملة (ناولني الكتاب من فضلك) - على سبيل المثال - المنجزة في مقام محدّد يخرج معناها من الطلب (الأمر) إلى معنى الالتماس وهو ما تفيدته القرينة (من فضلك)^(١).

ومن أهم التعريفات الحديثة التي قُدِّمت بخصوص الاستلزام الحواريّ:
١. المعنى التابع للدلالة الأصلية للعبارة.

٢. ما يرمي إليه المتكلم بشكل غير مباشر، جاعلاً مستعمله يتجاوز المعنى الظاهري لكلامه إلى معنى آخر^(٢).

إنّ اللغة المتداولة بتأثير أهداف تواصلية محدّدة، فقد نستعمل جملة ما قاصدين معنى جملة أخرى، ومن ثمّ يتمّ الانتقال من معنى إلى معنى غير صريح، أو (مستلزم حواريّ)، ومن هنا، فإنّ الاستلزام الحواريّ من أهم المفاهيم التي تقوم عليها التداوليات.

(١) الاستلزام الحواريّ في التداول اللساني: ١٩.

(٢) ينظر: م. ن: ١٨.

الخطاب الأخلاقي وأبعاد التداوليّة

ويقوم الاستلزام الحواريّ على ثلاثة مرتكزات:

أ - معنى الجملة المتلفظ بها من متكلم في علاقته بمستمع.

ب - المقام الذي تنجز فيه الجملة.

ج - مبدأ التعاون بين المتكلم والسامع^(١).

لقد عرف المبدأ التداوليّ الأوّل للتحوار باسم (مبدأ التعاون) وورد نصّ هذا المبدأ في اللسانيات عند الفيلسوف الأمريكي (بول كرايس) إذ ذكره أوّل مرّة في دروسه المدوّنة بعنوان محاضرات في التحوار ومفاده: أنّ على أطراف الحوار أن تتعاون فيما بينها لتحصيل المطلوب، بمعنى أنّه يوجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف من الحوار الذي دخلا فيه إن سابقاً وإن حاضراً^(٢)، ويقوم مبدأ التعاون عند (كرايس) على قواعد أساسيّة يفترض أن يحترمها المخاطبون؛ لإنجاح التواصل بينهم، أي بين المتكلمين والمخاطبين، وهو مبدأ حوارّي تداوليّ عام يشتمل على أربعة مبادئ فرعية، هي:

١. مبدأ الكمّ، اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه.

٢. مبدأ الكيف، لا تقل ما تعتقد أنّه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه.

٣. مبدأ المناسبة (العلاقة)، اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

٤. مبدأ الطريقة (الصيغة)، كن واضحاً ومحدّداً، فتجنّب الغموض، وتجنّب اللبس، وأوجز، ورتّب كلامك^(٣).

(١) الاستلزام الحوارّي في التداول اللساني: ١٧، ١٨.

(٢) ينظر: مفهوم التخاطب بين مقتضى التبليغ ومقتضى التهذيب: ٤٣، ٤٤.

(٣) ينظر: الاستلزام الحوارّي في سورة البقرة دراسة تحليلية تداولية: ٦٥ والتخييل وبناء الأنساق

الدلالية نحو مقارنة تداولية: ٣٢، والاستلزام الحوارّي في التداول اللساني: ١٦.

الفصل الرابع

والاستلزام الحواريّ هو أحد مجالات التداوليّة المهمة التي اهتم بها بول غرايس حينما ألقى محاضراته في جامعة هارفرد سنة (١٩٦٧م) منطلقاً من فكرة: «أنّ الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون وقد يقصدون عكس ما يقولون (...) فأراد أن يقيم معبراً بين ما يحمله القول من صريح وما يحمله القول من معنى متضمّن ممّا نشأ عنه فكرة الاستلزام الحواريّ»^(١).

ومن تطبيقات هذا المبدأ التي نقتنصها من الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، والتي يتوجّب على المشاركين في الحديث أن يحترموا مبدأ التعاون التي يفترض فيه المتكلم أنّ المستمع يدرك المعنى المستلزم، وأنّ المستمع (المخاطب) قادرٌ على الاستنتاج، انطلاقاً من الافتراض القائم على مسلمة الملازمة، وكونه عارفاً بالعبارات الإحالية، ما جاء في وصية ابن طاووس لابنه، قال: «ثمّ تذكر يا ولدي محمّد أغناك الله عزّ وجلّ بتذكّره وأنواره وجعل إثارك متابعاً لإثاره أنّ الوقت الذي شرّفك فيه بالعقل وما هو له أهل، وبعث إليك حفظة ملائكته تحتاج إلى أن تعرف أعداء مولاك وأعدائك الذين يريدون أن يحولوا بينك وبين نعمته وعنايته ويشغلونك عن شرف مراقبته وعن هيئته وعظمته، فمنهم الشيطان الذي أهلك نفسه وحسد الذين يرجى لهم السلامة وقصدهم بالعداوة، وقد جعل الله عزّ وجلّ لك منه حصوناً منيعاً ودروعاً وسيعاً فلا تفارقها. منها: الإخلاص في طاعة رب العالمين (...)، ومنها: الإيمان والتوكل على الله عزّ وجلّ»^(٢).

إنّ ابن طاووس كان يعي أنّ المستمع (المتلقي) عارفاً بأعداء الله عزّ وجلّ وأعداء الإنسان (الشياطين)، فالمعنى المستلزم الذي يمكن تقديره هو عداوة الشيطان لله عزّ وجلّ، والإنسان؛ لأنّه يحول بين العبد وربّه، ويمكن بيان هذا التعاون في

(١) الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي: ٩، وآفاق جديدة في

البحث اللغوي المعاصر: ٢٣.

(٢) كشف المحجة لثمره المهجة: ٩٢.

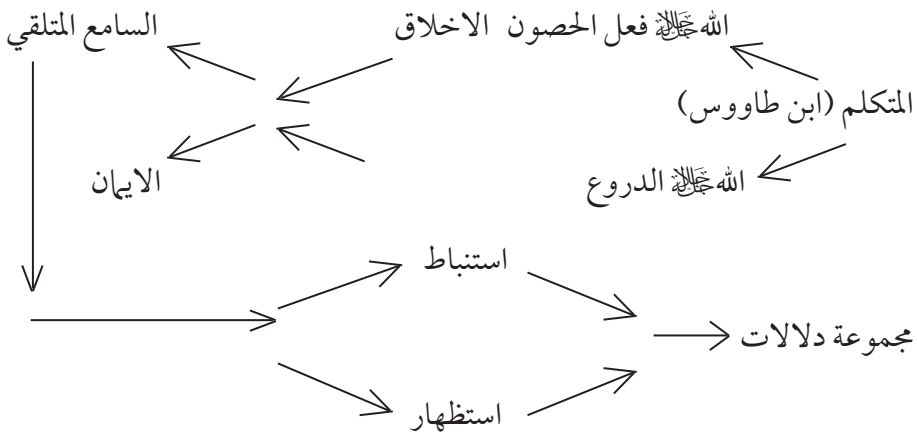
الخطب الأخلاقية وأبعادها التكوينية

ضوء المخطط الآتي:

المتكلم (ابن طاووس) ← أعداء الله وأعداء الإنسان ← العداوة والبغضاء ← المعنى المستلزم

البعد والفصل بين رغبة العبد في عبادة الله

وفي قوله «وجعل الله لك حصوناً منيعةً ودروعاً واسعةً فلا تفارقها...»، يتجلى مبدأ التعاون، في افتراض ابن طاووس الحلي معرفة ولده المعنى المستلزم للحصون والدروع، وأنه قادر على استنتاج الدلالات في ضوء الافتراضات القائمة على مُسَلِّمة الملائمة، وقد ذكر ابن طاووس ثيَمَتين لهذه الحصون المنيعة والدروع الوسيعة، وهما: الإيمان، والأخلاق؛ لأنّه عرف أنّ السامع قادر على استظهار مجموعة من التنبيهات، ويمكن بيان هذا التعاون في ضوء المخطط الآتي:



ويتجلى هذا المبدأ في حشد من الخطابات الأخلاقية الطاووسية، إذ ذكر ابن طاووس واعظاً ولده بالتقوى ومراقبة الله ﷻ أن الموت ملاقينا في أي لحظة، لا يعرف زماناً ولا مكاناً، وهو محيط بنا، والآيات والدلالات كلها ترمز إليه، قال: «جرى لي مع

الفصل الرابع

من ينسب إلى العلم، فإنَّه حضر عندي يومًا، وأنا جالس على تراب أرض بستان، فقال: كيف أنت؟ فقلت له: كيف يكون من على رأسه جنازة ميت وعلى أكتافه جنازة ميت وعلى سائر جسمه أموات محيطون به، وفي رجليه جسد ميت، وحوله أموات من سائر جهاته وبعض جسده قد مات قبل ممات جسده؟ فقال كيف هذا فما أرى عندك ميتًا؟، فقلت له: أأست تعلم أنَّ عمامتي من كتَّان وقد كان حيًّا لما أخضر نباتًا في الأرض فيبس ومات وهذه صدرتي من قطن حيٍّ أخضر فيبس أيضًا ومات، وهذه (الاجتي^(١)) قد كانت من حيوان فمات وهذا حولي نبات قد كان أخضر فيبس ومات وهذا البياض في شعر رأسي وشعر وجهي قد كان حيًّا بسواده فلما صار أبيض فقد مات وكلُّ جارحة لا استعملها فيما خلقت له من الطاعات فقد صارت في حكم الأموات فتعجب من هذه العظة وصحيح المقالات^(٢)، ويبدو في ضوء هذا المتن الأخلاقي الطاووسي الوعظي أنَّ ابن طاووس قد كشف حقيقة رحلة الإنسان، التي مصيرها التوقف (الموت) في ظل تعدد مجموعة من الآيات والعلامات التي تدلُّ على تناقص عمر الإنسان، فهو يموت في كلِّ لحظة، وقوله هذا يدلُّ على أنَّه عارف أنَّ السامع سيستلزم دلالاتٍ ومعاني من صورته ورموزه.

فالمتكلم يجعل علاقة منطقية بين الكلام الظاهري الصريح، والمعنى غير المباشر جاعلاً الكلام الظاهريِّ بمثابة المقدمة التي تقوده إلى النتيجة الحتمية، وهو الكلام غير المباشر؛ لأنَّ علوم اللغة منبثقة من فكرٍ علميٍّ قوامه المنطق^(٣).

فالعلاقة بين الكلام الصريح وغير الصريح يقتضيها العقل، ويقود المتلقي إلى وجودها وتحديداتها، ويتجلَّى ذلك من وصية ابن طاووس إلى ابنه في تحذيره من ذوي

(١) اللاكة: النعال.

(٢) كشف المحجة لثمره المهجة: ٩٨.

(٣) اللغة العربية والعولمة في ضوء النحو العربي والمنطق الرياضي: ١٢٣.

الخطب الإخلاقيّة وأبعادها التّداوليّة

الردائل (أعوان الظلمة)، قال: «ومتى رأيت من أهل عقيدتك وعقيدة آبائك الطاهرين مَنْ تعتقد له شرفاً بولاية ومعونة أحد من الظالمين فينبغي أن تعرف أنّه مسكينٌ مريضٌ القلب سقيم الدين يحتاج إلى مَنْ يحمله إلى المستشفى ويعالجه تارةً بالإحسان وتارةً بالهوان حتّى يفيق من سكرته ويعرف قدر مصيبتة»^(١)، يتضمّن هذا النصّ كثيراً من الاستلزامات الحواريّة على النحو الآتي:

- وعظ وإرشاد، وتنبهه على أنّ هؤلاء قد انحرفوا عن البوصلة الحقيقية (العقيدة الراسخة) ومالوا إلى الظالمين.

- تحذير ابنه من ذوي الردائل، ولاسيّما أعوان الظلمة.

- عدم اليأس من أفعال هؤلاء، ولزوم هدايتهم وارجاعهم إلى عقولهم من أجل الوقوف على المحجّة البيضاء والصراط القويم.

- التهكم من أعوان الظلمة، لفعلهم القبيح، واستقبالهم بوجه مكفهر حتّى يعرفوا أنّهم مخطئون مذنبون.

حقاً وصدقاً أنّ مقامات الكلام تكون بحسب مقاصد المتكلم وأغراضه، وهذا ما فطن إليه عبدالقاهر الجرجانيّ (ت ٤٧١هـ) إذ أشار إلى أنّ الخطاب الصادر من المتكلم يجب أن يكون مراعيّاً لمقامات الحال، وقرائن الأحوال، فالمعاني النفسية ومعانيّة الأحوال تتعاقب مع تتابع الكلام، ونظمه^(٢)، وقد تنبّه السكاكيّ (ت ٦٢٦هـ) إلى هذا التعامل ليبيّح بالفكرة التي انطوى عليها كتابه (مفتاح العلوم)، قال: «مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنتة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام التهيب، ومقام الجدّ يباين مقام

(١) كشف المحجّة لثمرّة المهجّة: ١١٦.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٤١.

الفصل الرابع

الهلز^(١)، فضلاً عن ذلك، لا بدّ من الإحساس بالسياق النصّي التداوليّ بوصفه تقنية مهمة تُسهم في التعبير عن المقاصد والأغراض التواصلية التي أُنجزت للتعبير عنها، نحو الشكّ والشكاية والتهنئة والوعد والوعيد والمدح والذم والرغيب والترهيب.

وهذا الاستيعاب لمقامات الكلام بحسب مقاصد المتكلم وأغراضه، والإحساس بالسياق التداوليّ نتجسّسه في بيان ابن طاووس الحليّ قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨] قال: «أرى كان المهم من الآية ما تعرض له؛ لأنّ كل ما ينبغي أن يذكر كيف ورد لفظ (الوعد) في موضع (الوعيد) والوعد حقيقة لما ينفع الموعود به ويسره؟ (...) أقول: لعلّ المراد أنّه لما كان هذا القول من الله تعالى لهم في الحياة الدنيا ليردعهم بذلك عن الكفر والنفاق فقد صار نفعاً لهم باطناً وسعادة لهم إنّ قبلوها باطناً وظاهراً؛ لأنّ الوعيد إذا أخرجه صاحبه ليخرج من يوعده ممّا يستحقّ به الوعيد إلى ما يستحقّ به الوعد، فقد صار باطنه وعداً، وإن كان ظاهره وعيداً»^(٢).

تأسيساً على ما سبق يمكن القول: إنّ (الوعد) الذي يفيد السرور والجزاء الحسن، جاء في مقام (الوعيد) والثقل على النفس فكان العدول عنه إلى ما هو أقوى منه دلالة وأشدّ وطأة على المتلقّي فمقصد العدول - بحسب قول ابن طاووس - يرمي إلى ترسيخ الوعيد والجزاء العظيم (السلبى) لهؤلاء (المنافقين والمنافقات والكفار) ليطبّع سلوكهم التواصلية التداولي.

ونلمح هذا الفهم والتصور لهذه الظاهرة في بيان ابن طاووس الحليّ في خطابه الأخلاقيّ، تأمل معنا ردّه على الفراء في تأويل قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ

(١) مفتاح العلوم: ٢٥٦.

(٢) سعد السعود: ٥٧٩.

الخطب الأخلاقية في رباعية التذلّولية

أَمْثَالُهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ [الأنعام: ١٦٠] قال القراء: «وقوله: من جاء بالحسنة: بلا إله إلا الله، والسيئة: الشرك»^(١)، قال ابن طاووس: «أقول: هذا تأويل غريب غير مطابق للمعقول والمنقول؛ لأنّ لفظ (لا إله إلا الله) يقع من الصادق والمنافق، ولأنّ اليهود تقول: لا إله إلا الله وكلّ فرق الإسلام يقول ذلك (...) أقول: وقد رأيتُ النقل متظاهراً أنّ الحسنة معرفة الله ورسوله ﷺ ومعرفة الذين يقومون مقامه وهذا مطابق للمعقول والمنقول وللبشارة؛ لأنّ أهل هذه الصفات ناجون على اختلاف الفرق، واختلاف التأويلات»^(٢). ومن هنا فإنّ ابن طاووس قد تجاوز المعنى المباشر لكلمة (الحسنة) بـ(لفظ لا إله إلا الله)، والسيئة بلفظ (الشرك) إلى معاني مستلزمة معاني ثوانٍ مستفادة من السياق واللوازم الخطابية، وتفاعلاتها، فضلاً عن ذلك فإنّ سياق الحال والمقام جعله يَفْطِنُ إلى المعاني المستلزمة وهذا ما يوافق الواقع ويتناغم معه في يومنا فكم حركات وجبهات وفرق تحمل هذه الراية راية (لا إله إلا الله) وهي تمرّق في الدين وتهدم الإسلام كـ(القاعدة، وجبهة النصرة، وتنظيم داعش) وغيرها!!!.

ويظهر أنّ الخطاب الأخلاقي الطاووسي لم يقتصر على الإبلاغ والتواصل فحسب بل تضمن مجموعة من القواعد الأخلاقية والاجتماعية بخلاف نظرة التذلّولين الذين ركّزوا على الجانب التبليغي في الخطاب، وتناسوا قوانين أخرى اجتماعية وأخلاقية ولم يلتفتوا إلى الجانب التهذيبي والإرشادي الذي نقطع أنّه الأصل في خروج العبارات عن إفادة المعاني الحقيقية والمباشرة، وهذا ما وجدناه في أدب ابن طاووس الحليّ ولاسيما خطابه الأخلاقي الذي جاء مشحوناً بالمعاني الحقيقية المباشرة، والمعاني غير الحقيقية (غير المباشرة) التي تنتظم في سياقات إنتاجية توليدية.

(١) معاني القرآن: ١/ ٣٦٧.

(٢) سعد السعود: ٥٩٨، ٥٩٩.

الفصل الرابع

ونقدح أنّ الخطاب الدينيّ نوعان؛ أحدهما: خطابٌ يسلك مسلك النقد والاستدلال بالعقل، والآخر: يسلك مسلك الوعظ والإرشاد، ويجب الحكم على الخطاب الإسلاميّ بمدى وفائه بمقتضيات المقام الذي يتحدّد بنوعيّة الآخر، فهناك الآخر الذي يفهم الخطاب النقديّ أو الاستدلاليّ ولا يتحمل إلّا مسؤولية هذا الفهم العقليّ، وهو على نوعين الذي يشارك المتكلم الثقافة، ولا يشاركه العقيدة، والآخر الذي لا يشاركه العقيدة والثقافة، وهناك الآخر الذي يفهم الخطاب الوعظيّ أو الاستشهاديّ (ويتحمل مسؤولية هذا الفهم النصّيّ، وهو على نوعين: الآخر الذي يشارك المتكلم الثقافة والعقيدة ويشاركه العمل بالعقيدة، والآخر الذي يشاركه الثقافة والعقيدة ولا يشاركه العمل بالعقيدة، وبناءً على هذا التقسيم للآخرين يتبيّن أنّ الخطاب الوعظيّ أخصّ والخطاب النقديّ أعمّ، إذ يزيد عليه قيد العمل، وفي هذا دليل قاطع على أنّ الخطاب الأوّل خلافاً للرأي السائع أعلى رتبة من الثاني، فلا يخاطب الآخر وعظاً أو استشهاداً حتى يخاطب نقداً أو استدلالاً مع العلم بأنّ الإنسان لا ينفك يمارس الاستدلال في عامة شؤون الحياة عامّة، فمن يتحمل مسؤولية فهم الخطاب الاستشهادي (هو الخطاب القائم على النصوص الدينيّة الأخلاقيّة) أجدر به أن يتحمل مسؤولية فهم الخطاب الاستدلالي^(١).

إنّ ما اقترحه (كرايس) بخصوص مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه يركز بالأساس في الجانب التبليغي في الخطاب متغافلاً قوانين أخرى إجتماعية وأخلاقية، إذ لم ينتبه على أنّ الجانب التهذيبي والإرشاديّ قد يكون هو الأصل في خروج العبارات عن إفادة المعاني الحقيقيّة والمباشرة، فالجانب التبليغيّ وحده في الخطاب لا يكشف عن الدلالات المرجوة والمعاني المبتغاة فلا بدّ من الالتفات إلى المبادئ الأخلاقيّة والإرشاديّة

(١) ينظر: الخطاب الإسلاميّ إلى أين؟ (حوارات وحيد تاجا مقدمة بقلم الدكتور طه عبد الرحمن):

الخطاب الأخلاقي وأبعاده التداولية

التي تحيط بالخطاب بل هي التي أوجدته ولاسيما في الخطابات ذات الأفعال الكلامية التداولية القائمة على استلزامات حوارية.

والمأمل في الخطابات الأخلاقية الطاووسية يرى التواشج والتعائق بين الجانبين (التبليغي التواصلي)، و (التهذيبي الإرشادي) وهذا ما تنبهنا عليه في ظل وقوفنا على أدبه وهو ملمحٌ جدير بالتأمل والدرس في أبحاث الخطاب من جهة، والبحث في المنهج التداولي بوصفه منهجاً لسانياً حديثاً من جهة أخرى.

ويرى الفيلسوف المغربي (طه عبد الرحمن) أن مبدأ التهذيب هو المبدأ التداولي الذي يبنني عليه الحوار، وينبني هذا المبدأ على التزام المتكلم والمخاطب في تعاونهما؛ من أجل تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام من ضوابط التهذيب فضلاً عن ضوابط التبليغ، وقد فرّع هذا المبدأ إلى ثلاث قواعد: قاعدة التعفف، وقاعدة التشكيك، وقاعدة التودد^(١).

وسقنا هذا التقديم من أجل تكشيف معاييتنا المتواضعة لبيان ابن طاووس الحلي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢] قال: «وكذا يقول كثير من المفسرين: إذا قرأ النبي أو الرسول ألقى الشيطان في أمنيته (وهو مُستبعد من أوصاف المرسلين والنبیین؛ لأنه ﷺ) قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ فكيف تقبل العقول أن المراد ما ذكره المفسرون من أن كل رسول وكل نبي يدخل الشيطان عليه في قراءته وإنه ما يسلم منهم واحد من الشيطان؟ وإنما لعل المراد أنه ما كان رسول ولا نبي إلا ويتمنى صلاح قومه، وأتباعهم لآياتنا فيلقي الشيطان أمنيته أماني له يخالف أمنيته فينسخ الله تعالى أماني الشيطان بكثرة الحجج والآيات

(١) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٤٦، ٤٧.

الفصل الرابع

ويحكم الله آياته وبيناته ويظهره للنبي والرسول على الشيطان أو نحو هذا التأويل مما يليق بتعظيم الأنبياء وخذلان الشيطان»^(١).

وتأسيساً على معرفة الرسل والأنبياء بالله ﷺ فإنَّ الواجب يحتمُّ أن يكونوا بعيدين عن وساوس الشيطان، وأمانيه الباطلة، وحاشا للرسل والأنبياء أن يتلبَّسوا بأمانِي الشيطان، ومن هنا يستلزم الخطاب دلالة تتواسج وتتناغم مع قاعدة التأدب التداولي في خضوعهم السلوكي، ولكونه متواصلاً مع شروعهم بالعمل، وفراغهم منه.

وتراهن قاعدة التعاون أيضاً على مقاربة المعنى أو الدلالة، ولكن ليس المعنى الحرفي المباشر الذي تؤسسه الجملة في ضوء العلاقات التركيبية والدلالة التي تقدمها الألفاظ، بل تراهن على المعنى الضمني أو الرسالة المتضمنة التي يتضمَّنُها الملفوظ من دون أن يشير إليها مباشرة، وهي رسالة يؤسسها المتكلم عبر نسقية خاصة يتوحد فيها اللساني بالسياقي والاجتماعي، ويدركها المتلقي عبر نسقية شبيهة نسبياً بنسقية المتكلم وتشكّل هذا الميثاق التواصل بينهما، والذي يسهم في عملية التواصل ونجاحها^(٢).

و يتجلّى مبدأ الاستلزام الحوارية في ردّه على الرماني في (نكته)، في مسألة حذف الجواب وهو أبلغ من الذكر، قال: «ومنه حذف الأجوبة وهو أبلغ من الذكر وما جاء منه في القرآن كثير، كقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سِيرَتْ بِهٖ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهٖ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهٖ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: ٣١] فكأنّه قيل: لكان هذا القرآن»^(٣)، قال ابن طاووس الحلي: «ولعلّ حذف الجواب ههنا إن كان يمكن أن الله تعالى لو قال: لكان هذا القرآن، كان قد وقع هذا الأمر الذي أخبر به في تسيير الجبال وتقطيع الأرض وكلام الموتى،

(١) سعد السعود: ٥٧٦.

(٢) التخيل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقاربة تداولية: ٢٩، ٣٠.

(٣) النكت في إعجاز القرآن: الرماني: ٧٠.

الخطاب الإخلاقي والتدالولية

وكان يحصل بذكر الجواب وقوع هذا التقدير ولم تقتض الحكمة ذلك، أو لعل المراد أنّ الله تعالى لو قال الجواب كان كلُّ مَنْ قرأ هذه الآية من الأولياء بجوابها الذي يذكره الله يتهياً له أن يسير بهما الجبال، ويقطع الأرض ويحيي الموتى فأمسك الله تعالى عن ذكر الجواب؛ لما يكون فيه من الأسباب التي يليق ذكرها عنده ﷺ بالصواب^(١).

والذي يبدو أنّ ابن طاووس قد ألمح إلى أنّ حذف الجواب جاء لأمرين: الأوّل: حكمة الله ﷻ التي تقتضي عدم التصريح بالجواب، فجاء الخطاب على هذه الهيئة تاركاً مهمة التوسيع وإظهار الجواب إلى استدلالات مباشرة انطلاقاً من مراعاة المتكلم للقواعد. والآخر: التوقف عن ذكر الجواب منعاً من ذكر وجوه لا يليق ذكرها من غيره من جهة، وأنها من مختصاته من جهة أخرى.

إنّ أوّل ما يستوقفنا في هذه الآية المباركة أنّ موضوع حذف الجواب يدخل في أمثلة للاستلزام الحواري الناتج عن (خرق قاعدة الكمّ) بلحاظ عدم تقديم المعلومات اللازمة وهذا لا يمكن إرجاعه إلى قصور في الخطاب، والمخاطب؛ بل يستلزم جملة من الدلالات والطرائق البيانية تعرف باسم التعريض أو التلويح^(٢).

من المواضيع التي عمدنا إلى معانيها، والتي تتجلى فيها ظاهرة الاستلزام الحواري في مجال التشبيه فإننا نجد تحوُّلاً من المعنى إلى معنى المعنى، أو نوعاً من الانتقال إلى المعنى الثاني المستلزم فتتضح الرؤية الدلالية والتداولية^(٣).

قال ابن طاووس في بيان تعقيبه على الرمائي في نكته: «فمن ذلك قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَبٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا

(١) سعد السعود: ٥٦٢، ٥٦٣.

(٢) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١١٤.

(٣) ينظر: مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي: ٢٠٠.

الفصل الرابع

في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قيل: يحسبه الرائي ماءً، ثم يظهر أنه على خلاف ما قدّر لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن؛ لأنّ الظمآن أشدّ حرصاً عليه وتعلّق قلباً به، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار - نعوذ بالله من هذه الحال»^(١).

وقد فطن ابن طاووس الحليّ إلى استلزام حوارى آخر، يختلف عمّا تنبه عليه الرمانيّ، قال: «ولعلّ في التشبيه غير ما ذكره الرمانيّ؛ لأنّ الله تعالى لو قال: كسر اب بروضة، أو لم يذكر ببيعة ما كان التشبيه على المبالغة التي ذكرها؛ لأنّه لما كانت أجساد الكفار الذين يعملون أعمالاً كالسراب كالسعة في الجواب الخالية من النبات واستعمال فوائد الأبواب صارت كالسعة حقيقة ولعلّ معنى التشبيه أن يحسبه الظمآن ماءً أنّ الكفار لما ادعوا في الحياة أنّ أعمالهم تنفعهم وحكى الله تعالى عنهم في القيمة وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون يدلّ على أنّهم يعولون على أعمالهم التي صاروا يعتقدونها أنّها تخلصهم من الأهوال والهوان كما حسب الظمآن السراب يزيل ما عنده من الظمأ فحصل في الخيبة وذهاب الحياة والتلف بالعيان، وكذلك خاف الكفار في أعمالهم وحصلوا في تلك النفوس عذاب الطغيان»^(٢).

وهذه الدلالة الجديدة الناتجة هي الدلالة المستلزمة من ذلك التفاعل، وتقابل في الدرس التداولي الحديث ما يسمى بالمعنى المستلزم، أو القوة الإنجازيّة المستلزمة من علاقة المشابهة والاختلاف معاً في التشبيه، وتفاعلهما بحيث لا يكون هناك تطابق كليّ في المشابهة، نتيجة وجود عناصر المشابهة والاختلاف، لإحداث ناتج دلاليّ جديد يتجاوز مستوى الدلالات الوضعيّة (أصل المعنى) وينزاح عنها إلى الدلالات الاستلزاميّة الجديدة، وهذا ما يتضح في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾، كيف

(١) سعد السعود: ٥٦٤، وينظر: النكت في إعجاز القرآن: ٨١، ٨٢.

(٢) سعد السعود: ٥٦٤.

الخط الاخلاقي وبعائه التلاوت

وُصفت أعمالهم القبيحة والسيئة بصفة مضافة إلى صفتها؟ وهي صفة القبح والسوء إلى صفة الهباء والاندثار والتلاشي، فتجاوز الكلمة دلالتها الوضعية إلى معنى آخر يومي بالهلاك والخسران؛ لأنه يستحيل عقلاً أن تكون الأعمال سراً.

ومن النصوص الأخلاقية الطاووسية التي تواخي قواعد التعاون (الكرايسية)، قوله: «قد نبهناك على صفة المستغفرين، وروينا لك حديث مولانا أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) وتأدب بغاية الإمكان، وكُنْ صادقاً بقولك إنَّك تتوب توبة عبد ذليل، فليظهر الذلُّ على سؤالك وعلى لسانِ حالك وقلت: خاضع، وليكن الخضوع على وجه مقالك وفعالك...»^(١)، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، قال ابن طاووس في بيان المراد من أولي الأمر محتجاً على قول الزمخشري: «أي: ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة. وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولى الأمر بما لا يبقى معه شك، وهو أن أمرهم أولاً بأداء الأمانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخرًا بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل، وأمراء الجور لا يؤدّون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة، إنَّما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله، وأحق أسمائهم: اللصوص المتغلبة»^(٢).

وهذا التحاُّج الذي بلغ مبلغه، قال ابن طاووس: «أقول: فإذا كان الأمر عنده كما أشار إليه واعتمدت عليه من أن العطف بأولي الأمر على الله ورسوله يقتضي من تساوي من عطف عليهم فهل يبقى لك مندوحة عما تقوله الإمامية في كمال صفات أولي الأمر كما كانت صفات رسول الله ﷺ كاملة في العصمة والأمن من وقوع معصيته

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة: ٣٥٥، ٣٥٦.

(٢) الكشف: ١ / ٥٧٧.

الفصل الرابع

باطنة أو ظاهرة وإلاّ جاز عنده أن يطاع غير المعصوم فيما أطاع الله فيه ويعصى فيما عصى الله فيه جاز لأمرء الجور أن يقولوا له: أطيعونا فيما أطعنا الله فيه، وأعصونا فيما عصينا الله فيه، فاذن لا يبقى له مخرج على ما فسر هذه الآية إلاّ القول والاعتقاد لمذهب الإماميّة»^(١).

ولا يخفى أنّ قول ابن طاووس الحليّ توجه إلى قول الزمخشريّ مُطْلِعاً إِيَّاهُ على ما يفترقه ويعرفه، مطالباً إِيَّاهُ بمشاركته اعتقاداته ومعارفه وهذه الحوارية والحجاجية يكمن فيها البعد التداوليّ، القائم على التعاون، واتخاذ القرارات^(٢).

وباختصار قدّم لنا المتن الطاووسيّ بيان حقيقة أولى الأمر، فضلاً عمّا أشار إليه الزمخشريّ من صفات التكامل ولاسيّما أداء الأمانات وإقامة العدل، والرجوع إلى الكتاب والسنة، وأنّ أمرء الجور ابتعدوا عن الكتاب فهم اللصوص المتغلبة.

إنّ صفات التكامل الإيمانيّ المثالية المتكاملة كأئمتها صفات رسول الله ﷺ، من هنا فإنّهم معصومون، فإطاعتهم واجبة، إنّ القواعد الحجاجية الإقناعية التي قدّمها المتن الطاووسيّ، تمتّ من طريق عملية التحوار بالطريقة المثلى القائمة على التعاون والعقلانية والفعالية.

(١) سعد السعود: ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) في أصول الحوار وتجديد الكلام: ٣٧.

الفصل الرابع

المبحث الثاني

الحجاج

الحِجَاج مصدر مادة (ح ج ج)، التي لها أصول أربعة، أقربها لمادتنا (القَصْد)، قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): «وَمُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْحُجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهَا تُقَصَّدُ، أَوْ بِهَا يُقَصَّدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ، يُقَالُ حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَجَجْتُهُ أَيَّ غَلَبْتُهُ بِالْحُجَّةِ، وَذَلِكَ الظَّفَرُ يَكُونُ عِنْدَ الْخُصُومَةِ، وَالْجُمُعُ حُجَجٌ. وَالْمُصَدِّرُ الْحِجَاجُ»^(١).

ويبدو أن الراغب الأصفهاني قد اقترب من إصابة دلالات مادة (ح ج ج) تداولياً بلحاظ الاستعمال، والسياق المقالي والمقامي، قال: «والْحُجَّةُ: الدلالة الميَّنة للمَحْجَّةِ، أي: المقصد المستقيم الذي يقتضي صحة أحد النقيضين.

قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَتَمَنَّوْا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]، فجعل ما يحتج بها الذين ظلموا مستثنى من الحجة وإن لم يكن حجة، ويجوز أنه سمى ما يحتجون به حجة، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِشُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، فسمى الداحضة حجة، وقوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]، أي: لا احتجاج لظهور البيان، والمُحَاجَّةُ: أن يطلب كل واحد أن يرد الآخر عن حجته ومحجته، قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُهُ

(١) مقاييس اللغة (مادة حجج): ٣٠ / ٢.

الخطاب الأخلاقي والعبادة التداولية

قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْكُمُونِي فِي اللَّهِ ﴿[الأنعام: ٨٠]﴾ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ﴾
[آل عمران: ٦١]»^(١).

ولم يخرج المعنى الاصطلاحي لمفهوم (الحجاج)، عن دلالة اللغوية، مواجهة الآخر بوساطة الأدلة والبراهين من أجل الظفر بالغلبة، والحجاج أيضاً كل منطوق موجّه إلى الآخر؛ لإفهامه دعوى مخصوصة يحقُّ له الاعتراض عليها^(٢).

شرع القرآن الكريم المحاججة وجعل لها حدوداً وضوابط، إذ ما من رسولٍ أو نبيٍّ إلا وقد ناظر قومه وحاججهم وجادلهم في إثبات صحة ما يدعو إليه فهو «مشرح عليه تتحاور الذوات، وتتجادل، ويحتاج بعضها بعضاً»^(٣). وحاجج الرسول الكريم ﷺ بأمر من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] وأمر الله ﷻ بمجادلة أهل الكتاب بالتي أحسن قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]؛ لأنَّ الغلظة في المحاججة تؤدي إلى نفور الخصم، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكون القرآن خطاباً يقتضي أنه إقناع وتأثير.

ويرى الدكتور صابر الحباشة إنَّ اندراج الحجاج في المباحث التداولية أمرٌ قد جرى في عرف الباحثين، ويُعدّ الحجاج باباً رئيساً في المباحث التداولية، إذ كانت المقارنة والمقاربة ضرباً من التنبيه إلى نقاط التقاطع أو نقاط التباعد بين الرؤية والتطبيق التراثيين،

(١) مفردات الراغب مع ملاحظات العمالي (مادة حج): ١ / ٢٣٣.

(٢) ينظر: الكليات: ٤٠٥، ٤٠٦.

(٣) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٢٢٦.

الفصل الرابع

والرؤية والتطبيق الحديثين المنتسبين إلى التقاليد التداولية، ومن هنا حاز الحجاج منزلة في التداولية بوصفه أحد أهم أركان التداولية إلى جانب نظرية الأعمال اللغوية^(١).

إن أخذ الحجاج في الحسبان في الدراسات التداولية هي خصيصة للسنوات الثمانين من القرن العشرين، تشهد على ذلك البيبلوغرافيا، وتوضحه المفاهيم، إذ يجمع (كرايس) بين المنطق والحجاج، وقد عاد (ديكرو) واصفًا آليات اللغة الحجاجية، قائلاً بنظرية السلام الحجاجية^(٢).

نهج ابن طاووس في حجاجه نهج القرآن الكريم فقد أراد القرآن من المسلم ألا يتعصب لرأي تبناه مسبقاً، وألا يستهجن الرأي الآخر، بل يقول لخصومه: نحن نتحاور، وإن كان أحد الطرفين على هدى والآخر على ضلال؛ ولم يحق المحق مسبقاً، ولم يعين المبطل ويطلب من المسلمين أن يتحلوا بأعلى درجات الأخلاق وضبط النفس مع أعتى خصومهم، ولا تجدن منصفاً في الحوار بعيداً عن التعصب كالقرآن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فالخطاب القوي ليس هو الخطاب الاستبدادي، والخطاب المنفرد الذي يتقاسمه لا يتقاسمه الأفراد ولا يحظى بتصديق عام هو خطاب ضعيف، والخطاب القوي هو الذي ينتهي إليه بمقابلة حجاج بحجاج تماماً، فالحقيقة الإجماعية التي تحقق كل خطاب، تعني أن تكافؤ الأحوال يجب أن يفهم لا على الإطلاق، فالخطاب الأول لا يكون قوياً إلا إذا حاز الإجماع الكوني بالإقناع والحجاج^(٣).

في ضوء ذلك أراد ابن طاووس بناء نسق أخلاقي من أجل أن يقترب من الآخر بقدر كبير؛ لوضع الانسان على المسار الصحيح نحو القمم الكبرى التي هي عنوان

(١) ينظر: التداولية والحجاج مداخل ونصوص: ٧.

(٢) ينظر: م. ن: ٢٠، ٢١.

(٣) ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة: ٤٤.

الخطب الأخلاقية في رباعية التذلّ ولية

التلاقي، والتحاور بين الثقافات والكيانات، والشعوب والأمم، فكان على دراية ووعي أنّ قيمة أخلاقية واحدة في مكانها الصحيح قادرة على أن تحرّك التاريخ بأكمله بله أخلاقية المجتمع الإسلامي.

واستثمر ابن طاووس المكنز الأخلاقي العظيم، ومنبت الفضائل والشئال عند أجداده عليه السلام ولاسيما جدّه المصطفى عليه السلام، والأئمة المعصومون عليهم السلام، إذ لا يهدف بحجابه الانتقام من خصومه أو الانتصار عليهم أو سحقهم لذلك؛ بل كان يتعامل مع الآخرين بالأخلاق والهدوء والإنسانية والأخوة والاحترام، وبذلك أمكنه التأثير في الآخرين.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ حجاج ابن طاووس كان يظهر عليه الطابع الولائي، فعلى الرغم من تشعب ثقافته فإننا نجد الطابع الولائي في خطابه، فكان ابن طاووس ولائياً مدافعاً عن ولاية أجداده وإمامتهم، وداعياً لهم، محتسباً رضا الله جلّ جلاله يوم الورد، روي عن الإمام جعفر الصادق عن أبيه الباقر عليه السلام، قال: «من أعاننا بلسانه على عدونا أنطقه الله بحجّته يوم موقفه بين يديه ﷻ»^(١).

لقد أنضج ابن طاووس الحليّ الخطاب الأخلاقيّ بلحاظ أنّ الاخلاق والعلم يتوصّل إليهما بالجهد الاستكشافي نفسه، ويستدلّ عليهما بالطرائق البرهانية نفسها، بل «إذا ارتكب شخص فعلاً لا أخلاقياً فهو جاهل بالمعنى نفسه الذي يكون به الشخص الذي يرتكب أخطاءً في الهندسة جاهلاً»^(٢).

ومما ورد من حجابه أنّ الخليفة المستنصر لم يكف عن مناشدته لتولي منصب الإفتاء ونقابة الطالبين، إلّا أنّه أبى الموافقة أو القبول ممّا اضطره إلى الاستعانة بأحد المقربين

(١) أمالي الشيخ المفيد: ٣٣ رقم ٧.

(٢) نشأة الفلسفة العلمية: ٦٣.

الفصل الرابع

لـ(رضي الدين ابن طاووس) وخلصائه لإقناعه بالقبول، وجرت بين الاثنين محاورة دلّت على قدرة بالغة، و محاجة قلّ نظيرها في الاعتذار تشهد لـ(ابن طاووس) بعلوّ كعبه في المحاجة، والمجادلة والنقاش اذ وازن بينه وبين الشريفين الرضيّ والمرضى اللذين تولّيا نقابة الطالبين حين قال له صديقه: إمّا أن تقول أنّ الرضيّ والمرضى كانا ظالمين أو تعذرهما فتدخل في مثل ما دخلا فيه، فلم يوافقهما رضيّ الدين بأن قال: «أولئك كان زمانهم زمان بني بويه والملوك شيعة وهم مشغولون بالخلفاء والخلفاء بهم مشغولون، فتمّ للرضيّ والمرضى ما أرادا من رضاء الله عزّ وجلّ»^(١).

لاحظ معنا القدرة البالغة، وحسن الاعتذار الذي اقتضته التقية التي كان يؤثّرهما في مثل هذه المواقف؛ إذ قال بعد ذلك: «إني قلتُ بذلك على سبيل التأدب معهما وإلاّ فلستُ براضٍ عليهما، ولا على فعلهما، وليسا معصومين حتّى يكون فعلهما حجةً، فهما داخلان تحت من يُردّ عليه مثل هذه الأفعال»^(٢)، ويمكن استعراض أصناف الحجج، وأشكالها التي تزخر بها النصوص الأخلاقية الطاوسية، ومنها:

أوّلاً: قياس التمثيل:

استعمل ابن طاووس هذا الشكل من الحجاج لتقريب الصورة وإيضاح الفكرة، ويقصد به «إلحاق أحد الشئيين بالآخر، وذلك بأن يقيس المستدل الأمر الذي يدّعيه على أمر معروف عند من يخاطب، أو على أمر بديهي لا تنكره العقول ويبيّن الجهة الجامعة بينهما»^(٣)، فمن ذلك ما ورد في حجاجه مع فقيه من فقهاء المستنصرية، يقول: «قُلْتُ له يا فلان ما تقول لو أنّ فرساً لك ضاعت منك وتوصلت في ردّها إليّ أو فرسًا لي ضاعت

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ١١٢.

(٢) ينظر: والسراج الوهاج: ٣١.

(٣) مناهج الجدل في القرآن: ٧٢.

مني وتوصلت في ردّها إليك أمّا كان ذلك حسناً أو واجباً فقال بلى، فقلت له: قد ضاع الهدى إمّا مني وإمّا منك والمصلحة أن ننصف من أنفسنا وننظر ممّن ضاع الهدى فنرده عليه، فقال نعم: فقلت له: لا أحتجّ بما ينقله أصحابي؛ لأنّهم متهمون عندك ولا تحتجّ بما ينقله أصحابك؛ لأنّهم متهمون عندي أو على عقيدتي، ولكن نحتجّ بالقرآن، أو بالمجمع عليه من أصحابي وأصحابك، أو بما رواه أصحابي لك وبما رواه أصحابك لي، فقال: هذا إنصاف...^(١)، ومن حجاجه التمثيلي للتقريب التداوليّ قوله: «إنّ من دخل بستاناً لا يقدر على التّطواف في سائر أقطاره والأكل من جميع أثماره فجاءه الفارس من كلّ شجرة بثمره وبعض أغصانها النضرة فيكون قد خفّف عنه من تعب التطواف وأكرمه بما جمع بين يديه من الثمار والأطراف»^(٢).

ومّا ورد على هذه الشاكلة من الحجاج قوله في اثبات غيبة الإمام الحجة عليه السلام: «وقلت لهم: وأمّا ما أخذتم عليه من طول غيبة المهدي عليه السلام فأنتم تعلمون أنّه لو حضر رجل وقال: أمشي على الماء ببغداد فإنّه يجتمع لمشاهدته لعلّ كلّ من يقدر على ذلك منهم فإذا مشى على الماء وتعجّب الناس منه فجاء آخر قبل أن يتفرّقوا وقال أيضاً: أنا أمشي على الماء فإنّ التعجب منه يكون أقلّ من ذلك فمشى على الماء فإنّ بعض الحاضرين ربّما يتفرّقون ويقلّ تعجبهم فإذا جاء ثالث وقال: أنا أيضاً أمشي على الماء فربّما لا يقف للنظر إليه إلّا قليل فإذا مشى على الماء سقط التعجب من ذلك، فإن جاء رابع وذكر أنّه يمشي أيضاً على الماء فربّما لا يبقى أحد ينظر إليه ولا يتعجب منه، وهذه حالة المهدي عليه السلام لأنكم رويتم أنّ إدريس حي موجود في السماء منذ زمانه إلى الآن، ورويتم أنّ الخضر حيّ موجود منذ زمان موسى عليه السلام أو قبله إلى الآن، ورويتم أنّ عيسى حيّ موجود في السماء

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ٧٦.

(٢) سعد السعود: ٤.

الفصل الرابع

وأنه يرجع إلى الأرض مع المهدي عليه السلام، فهذه ثلاثة نفر من البشر قد طالت أعمارهم، وسقط التعجبُ بهم من طول أعمارهم فهلاً كان لمحمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وآله أسوةً بواحدٍ منهم أن يكون من عترته آية الله عليه السلام في أمته يطول عمر واحد من ذريته» ^(١).

ومن الصور الحجاجية التمثيلية التي باشرها ابن طاووس الحلي استعماله أمثلة مشهورة من أجل الوصول إلى أقصى غايات التقريب التداولي وملاطفته، من ذلك استعماله مثل (إياك أعني واسمعي يا جاره) ^(٢) ففي معرض تفسيره قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ١، ٢] قال: «ولعل المراد معاتبة مَنْ كان على الصفة التي تضمَّنْها السورة على معنى (إياك أعني واسمعي يا جاره) وعلى معنى قوله تعالى في آيات كثيرة يخاطب به النبي، والمراد بها أمته دون أن تكون هذه المعاتبة للنبي عليه السلام؛ لأن النبي إنما كان يدعو المشرك بالله بأمر الله إلى طاعة الله وإنَّما كان يعبس لأجل ما يمنعه من طاعة الله وأين تقع المعاتبة على من هذه صفته وإلا فأين وصف النبي الكامل من قول الله عليه السلام: ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ٥ - ١٠]؟ فهل هذا أقيم عنه تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤] وهل كان النبي أبداً يتصدى للأغنياء ويتلهَّى عن أهل الخشية من الفقراء والله تعالى يقول عنه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]» ^(٣).

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٥.

(٢) عجز بيت شعري أجري مجرى المثل من قول الشاعر في مجمع الأمثال للميداني: ١/ ٥٠.

يابنت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك أعني واسمعي يا جاره

(٣) سعد السعود: ٢٤٩.

ثانيًا: حجة المقارنة

واستعمل ابن طاووس هذا الشكل من الحجاج، لإلزام معارضيه بحجته، ويُقصد بها «الاحتجاج لشيء أو لشخص أو لقيمة أو لرأي، باعتماد أفضليته على طرف ثان من جنسه أو قبيله»^(١)، ومن ذلك قوله «وقلت لبعض الحنابلة أيُّا أفضل آبؤك وسلفك الذين كانوا قبل أحمد بن حنبل إلى عهد النبي ﷺ أو آبؤك وسلفك الذين كانوا بعد أحمد بن حنبل، فإنه لا بُدَّ أن يقول أن سلفه المتقدمين على أحمد بن حنبل أفضل لأجل قربهم إلى الصدر الأوَّل ومن عهد النبي ﷺ فقلت: إذا كان سلفك الذين كانوا قبل أحمد بن حنبل، أفضل فلأي حال عدلت عن عقائدهم وعوائدهم إلى سلفك المتأخرين عن أحمد بن حنبل وما كان الأوائل حنابلة؛ لأنَّ أحمد بن حنبل ما كان قد ولد ولا كان مذكورًا عندهم فلزمته الحجة وانكشفت له المحجة، والحمد لله ربَّ العالمين»^(٢).

ثالثًا: حجة التعريف

استعمل ابن طاووس هذه الوسيلة من وسائل الإقناع وتقوم على التعريف بنسبه الشريف لإلقاء الحجة، قال: «ثم حضرت عند صديق لنا وكان أستاذ دار وقلت له: تستأذن لي الخليفة في أن اخرج أنا وآخرون ونأخذ معنا من يعرف لغة التتار ونلقاهم ونحدثهم... لعلَّ الله ﷻ يدفعهم بقول أو فعل أو حيلة عن هذه الديار، فقال: نخاف تكسرون حرمة الديوان ويعتقدون إنكم رسل من عندنا، فقلت: أرسلوا معنا مَنْ تختارون، ومتى ذكرناكم أو قلنا إننا عنكم حملوا رؤوسنا إليكم وأنجاكم ذلك وأنتم معذورون، ونحن إننا نقول: إننا أولاد هذه الدعوة النبويَّة والمملكة المحمديَّة، وقد جئنا نحدثكم عن ملتنا وديننا فإن قبلتم وإلا فقد أعذرنا... فقام وأجلسني في موضع منفرد وأشار إليه، وظاهر الحال أنه أنهى ذلك إلى المستنصر... ثم أطل وطلبني من

(١) دراسات في الحجاج: ١٢٣.

(٢) كشف المحجة لثمره المهجة: ٨٢.

الفصل الرابع

الموضع المنفرد وقال ما معناه: إذا دعت الحاجة إلى مثل هذا أذنا لكم؛ لأنّ القوم الذين قد أغاروا ما لهم مُتقدّم تقصدونه وتخطّبونه، وهؤلاء سرايا متفرقة وغارات غير متفقة^(١)، ومّا يظهر في عبارات ابن طاووس أنّه كان رابط الجأش ساكنًا في خطابه متمهلاً في كلامه هادئًا في منطقته، ممّا تولدت لديه الثقة والثبات فضلًا عن ذلك تلفظ سليم ووعيّ بالأفعال الكلاميّة، كلّ هذه الإضاءات والشذرات وإقامة الحجّة جعلت التتار يستجيبون ويذعنون.

رابعًا: الحجاج الترجيحي (إلزام الحجّة)

استعمل ابن طاووس هذا الشكل من الحجاج لإلزام معارضيه بحجّته، والغاية من هذا المسلك اختيار أفضل الاحتمالين، سواء تعلق الأمر به، أو بغيره، بعد إجراء الموازنة التي أساسها القيم وما تتفاضل بها الأشياء بحسب الغاية والنتيجة المتوخاة^(٢)، قال: «وحضري يا ولدي محمد حفظك الله ﷺ لصلاح آبائك وأطال في بقائك نقيبا، أتى رجلاً حنبلياً وقال هذا صديقنا ويجب أن يكون على مذهبنا فحدثه، فقلت: ما تقول إذا حضرت القيامة وقال: لك محمد ﷺ، لأيّ حالٍ تركت كافة علماء الإسلام، واخترت أحمد بن حنبل إماماً من دونهم هل معك آية من كتاب الله بذلك أو خبر عني بذلك، فإن كان المسلمون ما كانوا يعرفون الصحيح حتّى جاء أحمد ابن حنبل وصار إماماً فعمّن روى أحمد بن حنبل عقيدته وعلمه، وإن كانوا يعرفون الصحيح وهم أصل عقيدة أحمد ابن حنبل فهلاً كان السلف قبله أئمة لك وله؟، فقال: هذا لا جواب لي عنه لمحمد ﷺ فقلت له إذا كان لا بدّ لك من عالم من الأئمة تقلده فالزم أهل بيت نبيك ﷺ فإنّ أهل كلّ أحدٍ أعرف بعقيدته وأسراره من الأجانب فتاب، ورجع»^(٣).

(١) كشف المحجة لثمرّة المهجة: ١٤٧، ١٤٨.

(٢) ينظر: المنطق الفطريّ في القرآن الكريم: ١٠٧.

(٣) كشف المحجة لثمرّة المهجة: ٥٥.

خامسًا: الحجة الخبرية (الحجة النقلية)

في ضوء استقراء تراث ابن طاووس الحلي نجد أنه قد أفاد من القصص والوقائع من أجل التقريب التداولي، فضلاً عن ذلك ربط المقدمات بالتناجج والعلل بالمعلولات، وهذا مبدأ مهم في التواصل والتحاور، واستعمل ابن طاووس شكلاً آخر من أشكال الحجاج وهو ما يُدعى بالحجة الخبرية (الحجة النقلية)، قال ابن وهب الكوفي (ت ٣٣٥هـ): «وأما الأمثال والقصص فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزلوا يضربون الأمثال ويبينون للناس تعرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبًا، وأقرب مذهبًا، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الاسراء: ٨٩] (...) وإنما فعلت العلماء ذلك؛ لأنّ الخبر في نفسه إذا كان ممكنًا فهو يحتاج إلى ما يدلّ على صحته والمثل مقرون بالحجة، ولذلك جعلته القدماء أكثر آدابًا وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على السنة الطير والوحش، وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها»^(١).

تستند هذه الحجة إلى الأحداث التاريخية المشتركة بين أشخاص عدة أو بين جميع الناس، ليتخذ منها - ابن طاووس - دليلًا لما يدعيه المتكلم من أطروحات، وهي بذلك تركز على بنيات ووقائع خارجية، واقعة في الماضي بما يختزنه من تجارب إنسانية وأحداث تاريخية، ذات قيم مجتمعية، تحظى باحترام الأفراد واهتماماتهم^(٢).

ويبدو أنّ ابن طاووس قد سعى جاهدًا من أجل تقريب المجالات التداولية للحصول على أكبر قدر من تفاعلات التواصل والإبلاغ بينه وبين متلقيه، فقد وصف أهل الكهف أنّهم ممالك قال: «واعلم يا ولدي محمد حفظك الله ﷻ عن الخذلان

(١) البرهان في وجوه البيان: ١٤٥، ١٤٦.

(٢) ينظر: عندما نتواصل تتغير - مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج: ٩٤.

الفصل الرابع

وصانك بخلع الإحسان والأمان أن أهل الكهف كانوا ممالك لا يفقهون وسحرة
فرعون كانوا سكارى بالكفر ما يعتقد ناظرهم أنهم كانوا يفيقون فتداركهم الله ﷻ
برحمة من رحماته الجميلة؛ فأمسوا عارفين به مخلصين من أهل المقامات الجليلة وقد
عرف كل خير أن امرأة فرعون ومريم بنت عمران وأم موسى ﷺ نساء ذوات
ضعف عن الكشف توليهن الله ﷻ بيد اللطف والعطف حتى فارقت زوجة فرعون
ملك زوجها ودولته وحقرته وهونت عقوبته وبلغت مريم إلى كرامات وسعادات حتى
أن النبي المعظم في وقتها زكريا يدخل عليها في المحراب فيجد عندها طعاماً يأتيها من
سلطان يوم الحساب بغير حساب، ويفهم من صورة الحال أن زكريا ما كان يأتيه مثل
ذلك الطعام؛ لأنه ﷺ قال: (أتى لك هذا؟) على سبيل التعجب والاستفهام، وهو أقرب
منها إلى صفات الكمال، وهذه أم موسى يوحى الله تعالى إليها بغير واسطة من الرجال
حتى يهون عليها رمي ولدها ومهجة فؤادها في البحر والأهوال»^(١).

وقد استعمل ابن طاووس هذه الحجة من أجل التقريب التداولي، وترسيخ الصور
والمشاهدات بوصفها أدوات قريبة للحس والعقل، قال ابن طاووس: «وكفى سلفك
الطاهرين حجة على المخالفين وحجة للموافقين التابعين عليهم يوم المباهلة مباهلة
المسلمين للكافرين وكان ذلك اليوم من أعظم الأيام عند جدك محمد سيّد المرسلين
صلوات الله عليه وآله، (ومعجزاته) وكشف الحجة للسامعين ولمن يبلغهم إلى يوم
الدين، فإن كل من عرف تلك الأصول عرف عدد الاثني عشر على اليقين وهل
كان كمال صفات رب العالمين وكمال صفات رسول المفضل على الأولين والآخرين
أن يكون نوابها غير كاملين معصومين؟ وهما يريدان أن يحفظوا أسرارهما وشريعتهما
ويقوموا بأمور الدنيا والآخرة قياماً مستمراً بغير تهوين ولا توهين»^(٢).

(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ٧٣، ٧٤.

(٢) م. ن: ٥٢.

الخطبة الأولى في رُبْعِهَا التَّوَلِيَّةِ

فأراد ابن طاووس أن ينتفع المخاطبون بالذكريات، وأن يفيدوا من العظات «فإنّ لنا تاريخاً إنسانياً حافلاً فيه لكلّ عظمة ذكرى، ولكلّ مُلَمَّةٍ تجربة، وإنّ لنا دستوراً إلهياً كاملاً فيه لكلّ مُضِلَّةٍ هُدًى، ولكلّ قضيةٍ بَيِّنَة، فإذا التمسنا دليلنا من روح السلف، واقتبسنا هدايا من وحيّ الله استقمنا على الطريق التي نهجها الرسول ﷺ فتوافينا معاً على الغاية، وانتهينا جميعاً عندها إلى الوحدة»^(١).

صرّح ابن طاووس بظهور الحُجَّة، والنكت في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، قال: «اعلم أنّ هذه الآية من أقوى الآيات الباهرات على صدق النبي ﷺ، وهي كالمباهلة التي جرت مع نصارى نجران كالتّحدّي بالقرآن، بل ربّما كانت أظهر في الحُجَّة والنكت؛ لأنّ بعضهم عند التّحدّي التّجأ إلى البهت وقال لو نشاء لقلنا مثل هذا ولم ينقل ناقل، وما ادّعى عارف فاضل أنّهم تمنّوا الموت وباهتوه بذلك عند نزول هذه الآيات»^(٢).

وقد فطن ابن طاووس الحليّ إلى أمر لافت، وهو أنّ الخطاب القرآنيّ في الآية المباركة جاء من أقوى الآيات على صدق النبي ﷺ مستوحياً حادثة المباهلة المباركة فضلاً عن ذلك آيات التّحدّي في القرآن الكريم مقارنة معها، بل قد تكون دلالة الآية أظهر حُجَّة، ولم يكتفِ بذلك بل أشار إلى أنّها لو وُظِّفَتْ توظيفاً صادقاً وصحيحاً في الاحتجاج بها على الكافرين، فضلاً عن آية المباهلة التي عجز الأعداء عنها؛ لكان ذلك أقرب مخرجاً، وأوضح منهجاً، وأسرع إلى فهم القلوب والآليات، وأقطع لتأويل أهل الإرتياب^(٣).

(١) وحي الرسالة: ٢١٢.

(٢) سعد السعود: ٢٤٦.

(٣) م. ن: ٢٤٧.

الفصل الرابع

نخلص أن ابن طاووس قدّم لنا احتجاجاً باستشراف واستثمار واقعة تاريخيّة نستخلص العبر منها، ذات بناء سرديّ يتلاءم مع مقصد النص القرآنيّ فضلاً عن ذلك أراد تذكير المخاطبين عن طريق النمط الحجاجيّ القصصيّ القائم على النمط البرهانيّ باستيحاء معطيات هذه الحادثة العظيمة (المباهلة)، ومقاربتها تداولياً للواقع المعيش فيه.

واستلهم ابن طاووس من أخبار الأمم الماضية والقرون السالفة الكثير من الحقائق والعبر في ردد خطابيه الأخلاقيّ، ومدّه بها، وقد صرّح بهذه الحقيقة، قال: «ومن وقف على أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية عرف أن الضلال كان الأكثرون داخلين فيه، وأن الأقلّ هم الذين ظفروا بطاعة الله ﷻ ومراضيه؛ وقد صدق القرآن في كثير من الآيات: إِنَّ الْهَالِكَ الْأَكْثَرَ وَإِنَّ الْنَاجِيَ الْأَقْلَّ الْأَصْبَرَ، حتّى قال ﷻ في ذم الأكثر ممّن ذكره من القرون: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وأخبر ﷻ أن الآيات والنذر لا تنفع مع قوم ينكرون في قوله ﷻ: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]»^(١)، ومّا يلحق بهذه الفقرة، ويلزمها أن نذكر أن ابن طاووس قد نقل رسالة للسيد زيد بن علي بن الحسين عليه السلام - زيد الشهيد - (حليف القرآن)، في (الكثرة والقلة في القرآن الكريم) في مصنفه النافع الماتع (سعد السعود)، وقد ضمّنها زيد الشهيد عليه السلام آياتٍ منتقاة مختارات من كتاب الله ﷻ في الكثرة والقلة، تعدّ من تباشير التفسير الموضوعيّ وبداياته في البحث التفسيريّ الإسلاميّ^(٢).

(١) اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة المؤمنين: ١٢٠.

(٢) سعد السعود: ٥٢٢، ٥٢٩.

الخطاب الإلهي وأبعاده التكوينية

سادساً: احتجاج التقريب:

ففي بيان دلالة (عهد الله) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أٰتٰى اِبْرٰهٖمَ رُبُّهُ بِكَلِمَةٍ فَاتَمَمَّهٗنَّ قَالَ اِنِّىْ جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ اِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِيْ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِيْ الظَّالِمِيْنَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال ابن طاووس راداً على مَنْ قال: إذا كان العهد الإمامة، فقد نالها معاوية بن أبي سفيان ويزيد، وبنو أمية وهم ظالمون، والجواب: «إِنَّ عَهْدَ اللَّهِ ﷻ وإمامته ما نالها ظالم ابداً، وليس من كان ملكاً بالتغلب يكون قد نال عهد الله فَإِنَّ ملوك الأكاسرة والقيصرة وغيرهم من الكفار، وقد ملكوا أكثر مما ملك كثير من أئمة المسلمين وهم في مقام منازعين لله تعالى ومحاربين فكذا كُلُّ ظالم يكون عهد الله وإمامته ممنوعة منه منزّهة عنه وفيه إشارة ظاهرة إلى أَنَّ الإمامة تكون من اختيار الله تعالى دون اختيار العباد؛ لِأَنَّ العباد إِنَّمَا يختارون على ظاهر الحال ولعلَّ باطن مَنْ يختارونه يكون فيه ظلمٌ وكثير من سوء الأعمال فإذا كان الظالم مطلقاً مانعاً من عهد الله تعالى وإمامته فلم يبقَ طريق إلى معرفة التي ينال عهد الله تعالى إِلَّا بِمَنْ يَطَّلِع على سريرته أو يطلعه الله تعالى على سلامته من الظلم في سره وعلايته»^(١).

لا يخفى أَنَّ ابن طاووس استعمل طريقةً مِنْ طرائق البيان الحجاجي، باستجلاب حجةٍ تقريرية تؤكّد المعنى للأوّل، فقد ثبتت إمامة الكفرة (الأكاسرة والقيصرة) وغيرهم، فمن باب أولى تثبت إمامة معاوية بن أبي سفيان ويزيد، فهي إمامة دنيوية باختيار العباد لا يلتفت إليها، مصيرها السقوط والتهافت في ميزان العدل الإلهي، والقسطاس الرباني، إِنَّمَا الاعتبار والارتكاز في الإمامة الحقيقية التي بَشَّرَ اللَّهُ ﷻ بها، (لا ينال عهدي الظالمين)، الإمامة التي ينالها من وصفوا في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخْرِجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَةً أَعْيُنٌ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (٧٤) بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا نَجَاةً وَسَلَامًا﴾ (٧٥) خَلِّدِينَ فِيهَا حَسَنَتٌ مُّسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٣ - ٧٦].

(١) سعد السعود: ٤٢٦.

الفصل الرابع

وهذه دلالة واضحة على أنّ الله ﷻ قادر على إنفاة الإمامة الحقيقية بمن هو أحق بها، ونقدح بتقنية الإقناع التي وظّفها ابن طاووس في بيانه استحقاق الإمامة لأهلها الحقيقيين، وهي: «أن تأتي بمعنى ثم تؤكد، بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأوّل والحجّة على صحته»^(١).

سابعًا: المناظرة المتخيلة:

توسّل ابن طاووس بوسائل مختلفة في الحجّاج من أجل تقريب الدلالات وجعلها واضحة في ذهن المخاطب، للوصول إلى الوظيفة التداولية التي ينشدها المخاطب (المتكلّم)، وقد تنوّعت على هيئة صور منها:

أ. السؤال والجواب: وتتمثّل هذه الصورة في ظلّ طرح السؤال والإجابة عنه من أجل شدّ المخاطب وإيقاظه وإشراكه في الخطاب، وهي تقنية من تقنيات الحجّاج التي ترشّحت من الخطاب الأخلاقيّ الطاوسيّ، وتظهر في جوابه عن سؤال ابتدعه من بنات أفكاره، ونسج خياله ضاربًا في أعماق المنظومة الأخلاقيّة الإنسانيّة الصحيحة التي تستمدّ من إهداء الحمد والشكر للخالق العظيم ﷻ قال ابن طاووس: «إذا أنعم الله ﷻ بكسوة عليك فأخل بنفسك مع ربك ﷻ وطهر جسدك وقلبك من الآثام، ووسخ الذنوب بالتوبة واغسل التوبة وما يزال به دنس العيوب، وقم قائمًا بين يدي المطلع عليك وخذ الثياب من يد حال وجوده ومن لسان حال كرمه وجوده»^(٢)، كأنّ ابن طاووس يسأل: ماذا تقول لو أنعم الله ﷻ عليك بكسوة؟، فيأتي الجواب بباقة من التشكرات، وطاقة من الاعترافات بحقّ المنعم والمعطي ﷻ، فجاءت على هيئة جمل أمرية: (أخلّ بنفسك، طهر جسدك، وسخ الذنوب، اغسل التوبة، قم قائمًا، خذ الثياب) وهي أفعال كلاميّة مباشرة تتمثّل في الوجوب على سبيل الحتم والإلزام.

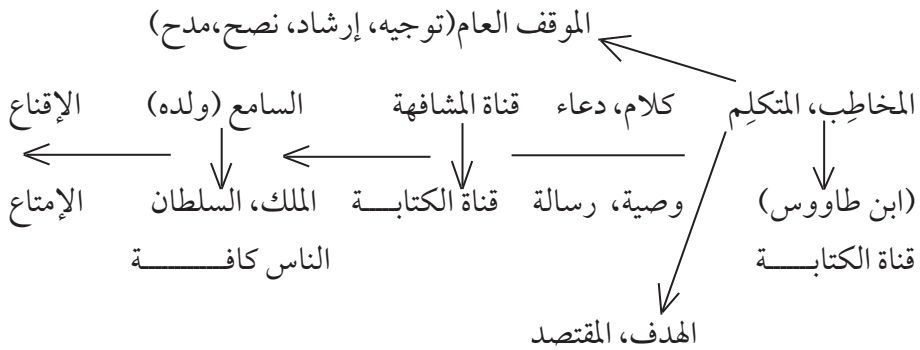
(١) كتاب الصناعتين: ٤٣٤.

(٢) كشف المحجة لثمره المهجة: ٩٦.

الخطبة الأخلاقية والتداليفية

وتتعالى هذه التقنية (السؤال والجواب)، فتناغم مشاعر ابن طاووس وأحاسيسه فيوجه السؤال لعقله وقلبه فيجعلهما عاقلين يسمعان كلامه ويعيان ما يقوله، قال ابن طاووس: «فلما رأيت عقلي وقلبي يغفلان وينسيان من حيث لا أدري، ويحصل بذلك ضري وكسري، وجدتهما لأجل ذلك لا يصلحان للاهتمام والاعتناء، وسألتهما بلسان الحال من أين يعرض لهما حصول الداء؟ فقالا: لا ندري ولا طريق لنا إلى مأمول كمال الشفاء إلا من جانب يعرف من أين طرأ علينا أصل هذا البلاء، فاجمع رأيي ورأيها على مدّ كف السؤال بلسان الحال إلى كعبة كرم منشئ العقول والقلوب، ومالك الآمال في أن يدخلنا في ظلّ حمى حمايته ويؤهلنا لما هو جَلِيلٌ من رحمته، وجدنا منه جَلِيلٌ كما أردناه، وزيادات على ما رجونا، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]»^(١).

ومجمل القول إنّ الحجاج الأخلاقيّ التداليفيّ عند ابن طاووس في ضوء ما عرضناه لا يقف عند حدود الإفهام فقط، بل مؤسساً على الإقناع، فهو مبنيّ على عناصر ثلاثة وهي: وسائل الإقناع أو البراهين، والأسلوب والبناء اللغوي، وترتيب أجزاء القول، ثمّ هناك عنصر الإلقاء الذي اعتبره الدارسون للخطابة بعد أرسطو ومنهم البلاغيون العرب عنصراً مستقلاً، ويتضمن الحركة والصوت^(٢)، وفي أدناه مخطط يوضح العلاقة بين هذه العناصر:



(١) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٢٢، ٢٣.

(٢) فن الخطابة: ١٨١.

الفصل الرابع

ب: أسلوب الفنقلة (الحوار):

من الوسائل التي توسّل بها ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ من أجل توسيع دائرة البحث، والإحاطة بمدياته وتحومه (أسلوب الفنقلة)، وهيأته: فإن قلت: قلنا، فإن قلت: قالوا، فإن قلنا: قالوا... وغيرها، وهذا الضرب من الحجاج يقصد به كذلك البيان والإيضاح وتقريب الصور إلى الإفهام تقريباً تداولياً.

تأمّل معنا خطابه الأخلاقيّ في وصف رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ونقاء قلب الحاج لصاحب البيت ﷺ، قال: «وأما الحج إلى الله ﷻ بقصد بيته الحرام أكرمك الله ﷻ يا ولدي بالحجّ على التمام إن شاء الله تعالى، فاعلم: أن كلّ مَنْ قصد الحج لأجل سواه فقد ضاع قصده وفسد مسراه وإنّما يقصد كلّ مقصود بالله ﷻ ولأجل الله ﷻ ولقد كنّا مرّة يا ولدي في طريق مشهد الحسين ﷺ؟ وكنا متيمين فنحتاج أن نصلي بالنوافل والفرائض بحسب ما هدانا الله ﷻ إليه فصار الرفقاء يستعجلون فقلت لهم: نحن نقصد الحسين ﷺ لأجل الله ﷻ؟، أو نقصد الله ﷻ لأجل الحسين ﷺ فقالوا: بل نقصد الحسين لأجل الله تعالى. فقلت لهم: فإذا ضيعنا في طريق الله ﷻ الذي نقصد الحسين ﷻ لأجله فكيف حالنا عند الحسين ﷻ وبأي وجه يلقانا هو ويلقانا الله ﷻ عند الحسين ﷻ إذا تعرضنا لفضله؟ فعرفوا أنّهم غالطون»^(١).

ويستبين هذا الأسلوب الحجاجي (الفنقلة) في ضوء حكاية ابن طاووس لسؤال طرحه عليه أحد الفقهاء، قال: «ولقد قال لي قائل من الفقهاء: كانت الأئمة ﷺ يدخلون على الملوك والخلفاء، فقلت له: ما معناه إنّهم صلوات الله عليهم كانوا يدخلون والقلوب معرضة عمّن دخلوا عليه ساخطة عليه بقدر ما أراد الله ﷻ من سخطه وإعراضه عنهم، قلت: فهل تجد من نفسك هكذا إذا قضوا لك حاجة أو قربوك

(١) كشف المحجة لثمرّة المهجة: ١٤٥.

أو وقع إحسان إليك منهم؟ قال: لا، واعترف بتفاوت الحال وإن دخول الضعفاء ما هو مثل دخول أهل الكمال»^(١).

السلام الحجاجية

تطرح هذه التقنية تصورًا لعمل المحاجبة من حيث هو تلازم بين قبول الحجّة ونتيجتها، فالغرض من تدرّج الحجج وترابيتها ملء الفجوات التي تشكل مجالًا لتسرب الشك وعدم الاطمئنان، فالتركيز على مبدأ التدرج الحجاجي في ضوء هذه السلام يعطي إيماءً بقوة الحجج وضعفها في الأساس، ولا ترتبط بالمحتوى وإحالة هذا المحتوى على مرجع محدّد^(٢).

ونلمح في الخطاب الأخلاقي الطاوسي تقنية السلام الحجاجية، وقوانين التفاضل والتقابل، وتظهر في تدرّج العبارات وانتظامها من أجل التساند الحجاجي كافة.

ومن لواحق السلام الحجاجية ولوازمها (الروابط الحجاجية) التي تقوي الترابط الحاصل بين البنى النصية، وهي الضمان لوحدة الكل، التي تحقّق الوظيفة الحجاجية والترابط داخل النص الحجاجي، وقد تمثّلت بعناصر نحوية في طبيعتها، مثل: الواو، والفاء، ولام التعليل، ولكن، وإذن، وحتى^(٣)، وتتمثّل أيضًا بجملّة من الأساليب المتضمنة داخل المفوّه الحجاجي كالنفي، والحرص... وغيرها، وتشرق السلام الحجاجية وتثير في بيان أخلاقية السفر والرحلة، في الخطاب الطاوسي فجاء بأسلوب واضح يبدو فيه أثر القوة والجمال وحسن تقرير المعنى في الإفهام منه في ملاطفة التداولية ومغازلتها، القائمة على الإبلاغ والتواصل، ولاسيما استعماله الروابط

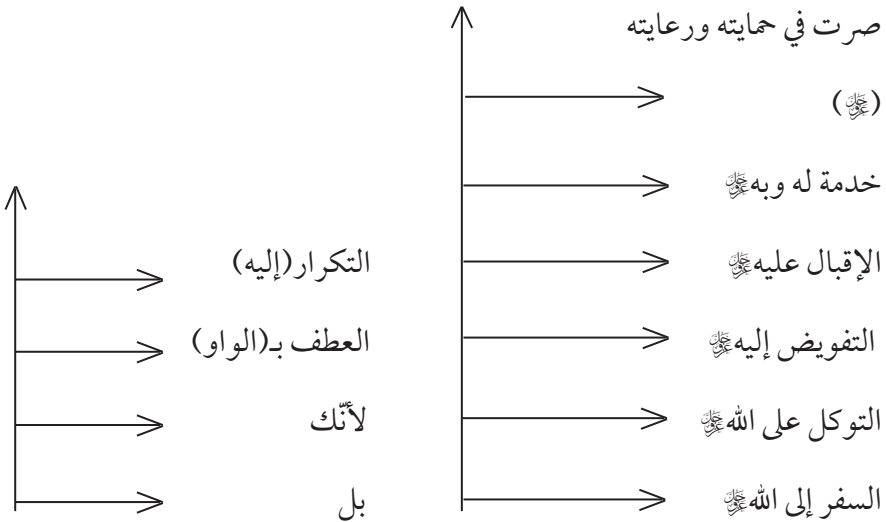
(١) كشف المحجة لثمره المهجة: ١٤٧.

(٢) الخطاب الأدبي ورهانات التأويل قراءات نصية تداولية حجاجية: ١٦٥.

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية: ١٦٥، واللغة والحجاج: ٧٣، والتداولية والحجاج مداخل ونصوص: ٢٦، ٢٧.

الفصل الرابع

الحِجَاجِيَّةُ التي تؤكد أنَّ النصَّ شبكة من الصلات والعلاقات بين النسقية، وليس مجرد عناصر تتوزع تلقائياً، نحو (بَلْ، لَأَنَّكَ، واو العطف) فضلاً عن التكرار (إليه)، قال: «وإنَّ احتجت إلى سفر يا ولدي كان الله ﷻ لك حافظاً في سفرك وجميع ما أحسن به إليك وخلفاً لك في كلِّ ما تغيب عنه، ممَّا أنعم به عليك فلا تسافر بالطبع والغفلة والأطماع الدنيويَّة فتكون مخاطراً مع الله ﷻ ومهونا لجلالته الإلهية ومضيعةً زمان أسفارك في غير ما ينفعك لدار قرارك بل يكون قصدك أنَّك تتوجه من الله ﷻ؛ لأنَّك حيث كنت فأنت بين يديه، وإلى الله ﷻ بالتوكل عليه وبالله ﷻ بالتفويض إليه وإليه ﷻ بالإقبال عليه فيكون سفرك خدمة له وبه وسفراً إليه وتصير في حماية ورعاية وكفاية ذلك الإخلاص له والتقرب إليه»^(١)، فترقي المداخل الحِجَاجِيَّة وسلامها في العبارات اليومية بنتيجة إيجابية يقصد منها تقارب تداوليٍّ من أجل إقناع المتلقي، والدخول في دائرة الصواب والتقوى، فإنَّما الدنيا جدارٌ يريدُ أنْ ينقُصَ، وفي أدناه مخطط بالسلم الحِجَاجِيَّ للعبارات، والروابط الحِجَاجِيَّة:



(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٢٠.

العبارات الروابط الحجاجية

ومن الروابط الحجاجية التي تُسهم في توثيق العلامة السُّلمية التفاضلية بين الملفوظات (أنّ) التي تستثمر استثماراً حجاجياً من أجل التساند والتعاقب للوصول إلى النتائج، وقمع الخصوم ففي قوله تعالى في وصف حال أصحاب الكهف (الماليك) الذين عرفوا الله ﷻ حق معرفته، وانطوا على القيم والمبادئ الإنسانية الأخلاقية السماوية السامية، حينما تركوا الدنيا وفروا إلى السعادة الإلهية، قال تعالى: ﴿وَحَسْبُهُمْ أَيْقَاطُ وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]

قال ابن طاووس: «قل: بعث أصحاب الكهف بعد موتهم الطويل... فإنه قد قدم هذا أنه بعثهم من الرقدة، والقرآن الشريف يتضمن تصريحاً بأنه: ﴿وَحَسْبُهُمْ أَيْقَاطُ وَهُمْ رُقُودٌ﴾ ومن آيات الله تعالى في بقائهم بغير طعام ولا شراب ولا تغير الأجساد، ولا مرض، ولا تأثير الأرض فهم مع قلبهم ذات اليمين، وذات الشمال؛ لأن كثرة التقلب في مثل تلك المرة إذا لم تكن بقدرة القادر لذاته؛ لا بُدَّ أن يؤثر في الأجساد الترابية، وهو حجة على منكري البعث»^(١). ولا ريب أنّ الرابط الحجاجي (أنّ) قد استمدّ من السياق القرآني قوله تعالى: ﴿وَحَسْبُهُمْ أَيْقَاطُ وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩] وهو يمثل نقطة الارتكاز في الخطاب الطاوسي.

ومن التقنيات الحجاجية التي أشرنا لها من قبل (السلام الحجاجية) ويظهر ذلك في صورة (التعاند الحجاجي)؛ فإنّ الملفوظات المتضمنة في العبارات تنظم انتظاماً سليماً بنوياً إلا أنّها تنساق في تيار عكسي وهو ما يسمى بـ(التعاند الحجاجي) الزوج العنادي الذي يؤول إلى نتيجة سالبة، نحو: زيد ذكي لكنّه غير مؤتمن، فالتعاند الحجاجي

(١) سعد السعود: ٣٢٩.

الفصل الرابع

يولد نتيجة سالبة، ونحو: الجو جميل لكن الوقت متأخر، ففي قوله تعالى: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] قال ابن طاووس: «إنَّ هذه الآية إذا حملناها على ظاهر ما ذكرتم وأنَّ الضمير راجع على القرآن الشريف، فهو أيضًا خلاف دعواكم، وخلاف عقيدتكم؛ لأنكم تزعمون أنَّ الضلال من الله تعالى بغير واسطة القرآن، ولا واسطة من غيره، ومتى جعلتم لغير الله تعالى شركة أو أصلًا في الضلال فقد نقضتم من أنَّ الله تعالى فاعل لجميع أفعال العباد، ولكلِّ ما وقع منهم من الضلال والفساد»^(١). والضمير عائد على (مثلاً) وهو قول الفراء والزمخشري وغيرهما^(٢).

ولا يخفى أن ابن طاووس الحليّ يرد على أهل الجبر (الجبرية) الذين يزعمون أنَّ الله ﷻ أجبر العباد على المعاصي وعاقبهم عليها، وينسون أنَّهم ظلموا الله ﷻ في حكمه، وقد ردَّ الله تعالى عليهم قال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤] فمرجعية الضمير بحسب قول المجبِّرة تأسيسًا على ظاهر كلامهم هي خلاف أصولهم القائمة على أنَّ الله ﷻ قد أجبر العباد على ارتكاب المعاصي، زد على ذلك أنَّ حجَّتهم الواهية هذه تعود إلى حجة أو هي، وهي أنَّ عود الضمير إليه يقتضي الشركة معه، ومن هنا فقد تعاندت الحجتان، وتأسيسًا على ذلك يمكننا أن نجزم بأن النتيجة سالبة، وأن تنجح دعوتكم أن الله ﷻ مجبر عباده على المعاصي^(٣).

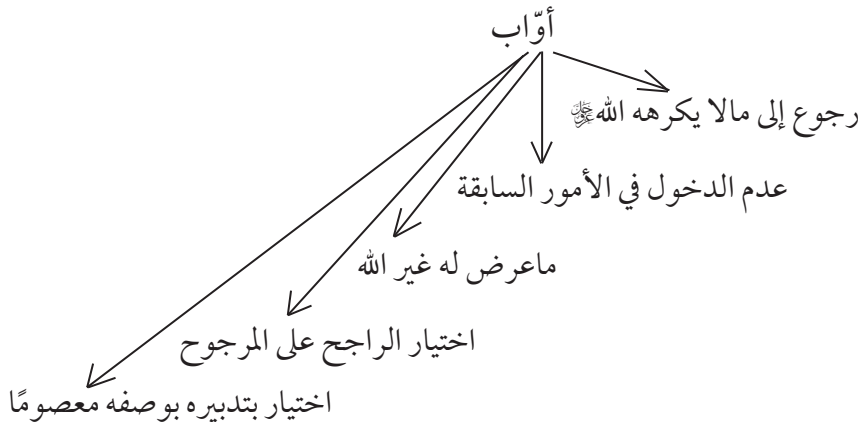
(١) سعد السعود: ٥٧.

(٢) ينظر: معاني القرآن: ٢٣ / ١، والكشاف: ١ / ١٤٦.

(٣) ينظر: تحف العقول عن آل الرسول: ٣٣٨-٣٤٠، والاحتجاج: ٢ / ٤٨٧-٤٨٨.

الخطاب الاختلافي والبعاء التداولي

ومن المواضع التي شكّل الرابط الحجاجي (واو العطف) مزية إيجابية في التأثير والإقناع فضلاً عن التقريب التداولي بيانه دلالة لفظ (أواب) في قوله تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، قال: «إن قيل إن (أواب) معناه كثير الرجوع، وقد قال في تفسيره رجّاع عن كلّ ما يكرهه الله إلى ما يحبّ فهو يتطرق من هذا ما يؤخذ على داوود، والجواب: أن كلّ مَنْ قِيلَ عنه: إنّه رجع عن شيء مما يلزم أنّه دخل فيه فإنّ الرجوع الذي يتضمّنه المدح لداوود يقتضي أن يكون معصوماً منزهاً عن الدخول فيما يكرهه الله أبداً - ولو كان رجّاعاً - بمعنى كثير الرجوع عمّا دخل فيه، لكان ذلك متناقضاً لمراد الله ﷻ بمدحه وجواب آخر لعلّ معناه: أنّه ما عرض له غير الله إلّا تركه ورجع إلى الله والعوارض لا تُخصى للإنسان، وجواب آخر: لعلّ ما عورض له مندوبان أحدهما أرجح من الآخر إلّا ترك المرجوح ورجع إلى الراجح، وجواب آخر لعلّ المراد أنّ داوود لما رأى أنّ الله ﷻ لما انفرد بتدبيره قبل أن يجعل لداوود اختياراً كان التدبير مُحْكَمًا، وداوود سليم من وجوه المعاتبات»^(١)، إنّ هذه الأجوبة المعطوفات بحرف العطف تعبّر عن تقويّات معيارية موجبة مادحة، فورودها في الخطاب غالباً ما يكون مصحوباً بقصد حجاجي، ويمكن بيان هذه الأجوبة الطاووسية بالمخطط السلمي الحجاجي:



(١) سعد السعود: ٢٥٤، ٢٥٥.

الفصل الرابع

وبهذه العبارات التي وظفت من أجلاء استجلاء الأبعاد التداولية في الخطاب الأخلاقي الطاووسي، نختم فقرات الفصل خاصة، والدراسة عامة.

وإننا نشني على ابن طاووس الحلي في تراثه الأصيل، وأدبه الوافر الذي جعلنا نكتب في خطابه الأخلاقي ومظاهره التداولية، وهي حسنة طيبة لـ (ابن طاووس الحلي) أجرها وثوابها عند الله عز وجل، وتعدّ من حسنات تفكيره واستقرائه وإبداعه العقلي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الخاتمة

آن أو أن قطف ثمار هذه المسيرة الأخلاقية في خطاب علم من أعلام الأخلاق في العالم الإسلامي عامة، والعراق (مدينة الحلة الفيحاء) خاصة، السيد رضي الدين بن طاووس الحلي، وقد توصلت الدراسة في هذا الموضوع الجديد الطريف إلى جملة من النتائج، نخالها نافعة وماتعة وناجعة، وهي:

أولاً: ظهر أن مدينة الحلة - محضن الأنبياء والأئمة والأولياء والصالحين - السهم الأوفر، والقدح الممل في ظهور عدد غير قليل من العلماء والفقهاء ومنهم ابن طاووس الحلي، فالمكان كان وما يزال يضطلع بأثر مهم في تكوين هوية الكيان الجماعي، وفي التعبير عن المقومات الثقافية، وقد أثرت العوامل البيئية والفضاءات المكانية السامية في المفاهيم الأخلاقية والجمالية الطاووسية، فضلاً عن اكتساب الخطاب الأخلاقي الطاووسي قيمة أخلاقية خاصة قلما نجد نظيراً لها في الثقافة الإنسانية بله الثقافة العربية، فليس ابن طاووس - مهما قيل في تراثه وأدبه - رجل العراق والحلة فحسب، ولكنه رجل الأخلاقية الإنسانية جمعاء.

ثانياً: أفاد ابن طاووس من المرويات الصادرة عن أهل البيت (عليه السلام)؛ لأنهم يمثلون معدن الحكمة، ومعدل الإيمان، ومغرس العطاء.

ثالثاً: نرى أن الخطاب الأخلاقي وأبعاده التداولية قد حاز قدراً واسعاً في التراث الشيعي؛ لاتصاله بكتاب الله (جل جلاله) وسنة نبيه الأخلاقي العظيم محمد (صلى الله عليه وآله) وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) وتعاليمهم، فترى الإشارات الأخلاقية العالية المضمون، والقبسات

الخطب الأخلاقيَّة في وِزْءِ التَّوَلِيَّةِ

الإرشادية والوعظية والنفحات العرفانية، وهذا ما وجدناه جلياً في خطاب ابن طاووس الأخلاقي في مصنَّفاتِه المختلفة، ولاسيَّما في أدعيته ووصاياه ورسائله وغيرها.

رابعاً: ظهر في ضوء الجذور الأخلاقيَّة التي استمدَّ ابن طاووس الحليَّ أهم مرتكزات خطابه الأخلاقيِّ، فضلاً عن القرآن الكريم، ومرويات أهل البيت (عليه السلام) أنَّه أفاد من الخطابات الأخلاقيَّة التي سبقته ولاسيَّما الخطاب الأخلاقي الطوسيَّ نسبة إلى الشيخ أبي جعفر الطوسيِّ، صاحب مجموعة (مُصباح المتَّهجد)، والخطاب الأخلاقيِّ الوراميَّ نسبة إلى الشيخ الزاهد ورَّام بن أبي فراس الأشثري الحليِّ، صاحب المجموعة الأخلاقيَّة المعروفة بـ (مجموعة ورَّام) = (تنبيه الخواطر ونُزْهة النواظر).

خامساً: يُعدّ الخطاب الأخلاقيُّ لدى ابن طاووس الحليَّ خطاباً نظريّاً، فهو عندما يذكر الصفات الخلقية الرديئة يعدها عوارض للنفس المريضة أو أعراض مرضها، فضلاً عن بعد صاحبها عن الساحة الإلهية العظيمة.

سادساً: تبيَّن لنا في ظلّ فتوى ابن طاووس الشهيرة التي فضّل فيها الكافر العادل على المسلم الجائر أنَّه قد أعطى للقيمة الأخلاقيَّة بعدها التداوليَّ، ومراقبتها الإنسانيَّة، فالناس يتفاضلون بأخلاقهم ومبادئهم الإنسانيَّة، ويبدو أنَّ جوهر هذه الفتوى، وروحها من القرآن الكريم الذي انتصر للقيم الأخلاقيَّة أيَّما انتصار، وهذا دليل على ذوبان ابن طاووس في كتاب الله (القرآن الكريم) حفظاً وتدبراً وفهماً.

سابعاً: اعتمد ابن طاووس العقل والاستدلال، وطريقة الذوق والحال، وأراد أن يجعل أسلوبه، وخطابه الأخلاقيَّ روضة تزهر لذوي الألباب والعقول، وكأنَّها الرتاج العظيم للوصول إلى المحصول، وقد اتَّخذ في كتبه طابعاً منهجياً دقيقاً، ظهر فيه خطيباً أخلاقياً، وتداولياً منهجياً.

الخاتمة

ثامناً: ظهر أن التداوليين الذين انبروا لدراسة مبادئ التداولية وأبعادها قد ركزوا في الجانب التبليغي في الخطاب، وتناسوا قوانين أخرى اجتماعية وأخلاقية ولم يلتفتوا إلى الجانب التهذيبي والإرشادي الذي نقطع أنه الأصل في خروج العبارات عن إفادة المعاني الحقيقية والمباشرة، وهذا ما وجدناه في أدب ابن طاووس الحلي ولا سيما خطابه الأخلاقي الذي جاء مشحوناً بالمعاني الحقيقية المباشرة، والمعاني غير الحقيقية (غير المباشرة) التي تنتظم في سياقات إنتاجية.

تاسعاً: قدّم الخطاب الأخلاقي - عند ابن طاووس - زاداً تأويلياً للمتلقي ذا قيمة عالية فيه مجموعة من النصائح والفضائل الأخلاقية لا تصدر إلا من عارف كبير، وذو خلق كريم.

عاشراً: كان ابن طاووس متجهاً نحو وضع أسس وركائز ثابتة للتواصل والتحاور بوصفها مقاربتين تداوليتين خاصتين للخطاب المملووظ، يُمرّر معرفةً بين المتكلم والسامع ويطمح إلى استكشاف الطرائق التي يشتغل بها الخطاب في كليته من أجل تمرير هذه المعرفة التي يحملها.

الحادية عشرة: يبدو في ظل نظرنا للخطاب الطاووسي أنه خلط بين الأخلاق والتربية في المعالجات التي وقفنا عليها، وفي موارد معينة يمتد الخلط ليشمل الآداب أيضاً، وقد اعتنى عنايةً بالغةً في الأخلاق الأسرية إذ حظيت بمراقبة عالية في كتابه (كشف المحجة لثمره المهجة).

الثانية عشرة: ظهر أن أول أثر للإيمان هو أنه سند للأخلاق، أي أن الأخلاق وهي بحد ذاتها من رؤوس الأموال الكبيرة في الحياة، لا يكون لها أساس، وقاعدة بغير الإيمان، إن أساس جميع الجذور الأخلاقية ومنطلقها، بل إن سلسلة المعنويات برمتها مبنية على الإيمان الديني، أي الإيمان بالله والاعتقاد بوجوده، فكل الفضائل والصفات

الخطب الأخلاقية وأبعادها التداولية

التي يقدسها الأفراد والجماعات والشعوب كافة، ويدّعيها حتى الذي لا يملكها مبنية جميعاً على مبدأ الإيمان.

الثالثة عشرة: ظهر أن ابن طاووس الحليّ من المؤسسين لفقه (الأخلاق) في ضوء ما وقفنا على خطاباته الأخلاقية المبثوثة في كتبه، فقد أعطى للعبادات والمعاملات مدياتها وتخومها الرحاب، كاشفاً النقاب عن أسرارها ودقائقها.

الرابعة عشرة: أراد ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ التبليغ والتواصل والتراحم من أجل محاكاة الواقع، وتقريب الصور وملاطفة المجالات التداولية ومغازلتها، فعناصر التواصل والتفاعل والإبلاغ حاضرة في أفعاله وأقواله، ولا بدّ من تسويد القيم الأخلاقية الإنسانية، وغرس الفضائل والشائلك الإسلامية الإنسانية السامية في أنحاء الحياة ومفاصلها كافة.

الخامسة عشرة: ظهر أن لابن طاووس آراءً حصيفةً في أخلاقية السياسة، وأخلاقية الجهاد، نرجو أن تتاح المناسبة لتسجيلها أنصافاً لهذا الأخلاقيّ الكبير والتربويّ العظيم.

السادسة عشرة: لا غرو أن ابن طاووس الحليّ قد أبعد قسماً من العلوم ولم يبوّرها تلك المنزلة الرفيعة التي تستأهلها، ويبدو أن ذلك الابتعاد تحركه دوافع تمجيد كلام أهل البيت (عليه السلام)، وأدعيتهم، فكان انتصاراً لجلال الدعاء والوصايا الذي يعلو على جلال علم الكلام، والفقه من أجل نشدان الحقيقة الكونية، وتحقيقاً لمقاصد الترغيب والترهيب.

السابعة عشرة: تحصّل أن دراسة الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ ومظاهره التداولية تجربة فريدة في التأليف في هذا الجانب، مبيّن أسرار هذا الخطاب، والمظاهر التداولية المتعانة والمتساندة في خطاب ابن طاووس الأخلاقيّ، وفي بحثه عن الحقيقة اليقينية بعقله وقلبه.

الخاتمة

الثامنة عشرة: ظهر أنّ الخطاب الأخلاقيّ الطاوسيّ كان ناجحاً تواصلياً وإبلاغياً وإقناعياً، ويبدو أنّ الشروط المؤسساتية (إنّ صحّ التعبير) بوصفه أباً عظيماً فقد أنفذ وصاياه لأولاده، وأهل بيته أجمع من جهة، وبوصفه نقيباً للطالبيين أصبح فعله كلامياً فعّالاً منجزاً.

التاسعة عشرة: لا جرم أنّ المخلصين من علماء العرب عامة وعلماء العراق والحلّة خاصة أقدروا على دراسة تراث هذه المدينة المباركة (مدينة الحلّة)، متى ما أنضجوا الرأي، وأجمعوا الكلمة من أجل إظهار الصور الحقيقية لها.

التوصيات:

أولاً: الدعوة إلى دراسة الخطابات الإخلاقيّة عند علماء المسلمين ولاسيّما علماء أتباع أهل البيت (عليه السلام)؛ لما تضمّنه من عمق في المادة والمعنى، ورؤية ثاقبة في فلسفة الأخلاق؛ لكونها مستقاة من النهر المادّ، والبحر الزخار كتاب العربية الأكبر القرآن الكريم، ومنابع الخلق والحكمة الثقل الأصغر، المصطفى (عليه السلام) وأهل بيته الأطهار.

ثانياً: تبصرة المجتمع الإنسانيّ والمؤسسات التربويّة والتعليميّة والاجتماعيّة بلزوم انطوائها على المنظومة الأخلاقيّة المتكاملة والمثالية فالملاك في صحة ما تقوم به من أدوار ونشاطات وممارسات كلّها تكون في خدمة الأخلاق، وتعمل على ترسيخ الفضائل والشائيل في المجتمع.

ثالثاً: لزوم دراسة الخطاب الأخلاقيّ عند الشيخ أبي جعفر الطوسيّ ولاسيّما في مجموعته (مصباح المتجهد)، والشيخ الزاهد ورّام بن أبي فراس الحلّيّ في ضوء مجموعته الأخلاقيّة المعروفة بـ (مجموعة ورّام) = (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر)، فقد اشتملتا على خطابات أخلاقيّة عظيمة المضمون، عالية البيان.

الخطب الأخلاقية وأربعاء التذلُّولِ

رابعاً: دعوة الهيئات والمراكز الثقافية عامة، والباحثين الأكارم إلى مدّ مدينة الحلّة الفيحاء- بما تستطيع -من آثار السيّد ابن طاووس الحليّ؛ لتشارك بذلك في إحياء ذكره ونشر الثقافة الإنسانيّة من جهة، ولزوم عمل موسوعة تضمّ تراثه وأدبه تسمى بـ(موسوعة ابن طاووس الحليّ).

خامساً: دعوة المختصين في وزارتي التربية والتعليم العاليّ إلى تضمين بعض من أقوال ابن طاووس الأخلاقيّة ووصاياه وآرائه التربويّة في المناهج الدراسيّة؛ لما له الأثر البالغ في نشر القيم الأصيلة والمثل العليا في مجتمعنا وغرس الفضائل والشّائل الإسلاميّة الإنسانيّة السامية في أنحاء الحياة ومفاصلها كافة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمّد رسولهِ المصطفى، وآله المبتعثين لغرس المحامد، ودرء المفاصد، ورعي المصالح، وسعادة الغادي والرائح.

كُتِبَ بِحِلَّةِ أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام)

ومدينة ولده البكر الإمام الحسن المجتبيّ (عليه السلام)

في أواخر شهر جمادى الآخر من سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بعد الألف

من الهجرة المباركة الشريفة، صلوات الله ﷺ على صادعيها ومُهاجريها.



الفهارسُ الْفَنِيَّةُ

الفهارسُ الْفَنِيةُ

فَهْرَسُ آيَاتٍ

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ...﴾	البقرة	٢٦	٢٠٩
﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا...﴾	البقرة	٥٠	١٤٣
﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كَذَبٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ...﴾	البقرة	٨٩	٤٥
﴿وَإِذْ أَبْلَى إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَّهَنَّ قَالَ...﴾	البقرة	١٢٤	٢٠٢
﴿لَيْتَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ...﴾	البقرة	١٥٠	١٨٩
﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾	البقرة	١٨٨	٣٣
﴿وَمِنْهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكُمُ هُنَّ أُمُّ الْكَيْبِ وَأُخْرُ...﴾	آل عمران	٧	١٠١
﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ﴾	آل عمران	٦١	١٩٠
﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ﴾	آل عمران	١٤٠	٣٤
﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا...﴾	آل عمران	١٥٩	١٩٠
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾	النساء	١	٤٨
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾	النساء	٥٩	١٨٦
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ...﴾	النساء	١٣٥	٩١
﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ...﴾	النساء	١٥٧	٥١
﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ...﴾	المائدة	٥٥	١٠٢

الخطب الإخلاقيَّة والعبادة التَّكْوِينِيَّة

١٠٢	٣	المائدة	﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾
٤٥	٢٨-٢٧	الأنعام	﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ...﴾
١٩٠	٨٠	الأنعام	﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ﴾
١٨٩	١٤٩	الأنعام	﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾
١٨٠	١٦٠	الأنعام	﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا...﴾
٥٠،	٤٣	الأعراف	﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِئُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ
٢٠٤			مِنْهُ﴾
٤٩	٥٦	الأعراف	﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾
٤٨	٩٧	الأعراف	﴿أَفَأَمِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا...﴾
٤٨	٩٨	الأعراف	﴿أَوْأَمِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى...﴾
٤٨	١٢٢، ١٢١	الأعراف	﴿قَالُوا أَمْ آتَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ﴾
١٠٨	١٥٧	الأعراف	﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾
١٤٨،	٢	الأنفال	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ...﴾
١٤٩			
١٤٩	٧٤	الأنفال	﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾
١٧٩	٦٨	التوبة	﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ...﴾
٧٨	١٢٢	التوبة	﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَفْقَهُوا...﴾
١٩٥	١٢٨	التوبة	﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَحِيمٌ﴾
١٤٥	٢٦	يونس	﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

الفهارسُ الْفَنِيةُ

٢٠٩	٤٤	يونس	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ﴾
٥٠	٩٨	يونس	﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنْتَ فَفَعَلَهَا إِيْمَنُهَا...﴾
٢٠١	١٠١	يونس	﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
١٣٧، ١٥٣	٤٤	هود	﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْخَمَاءِ أَقْلِي...﴾
٥٠	٤٩	هود	﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِيبِ﴾
٩٦	٧٥، ٧٤	هود	﴿يُجَدِّدُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ...﴾
٥٣	٣	يوسف	﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ...﴾
٥٣	٤	يوسف	﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ...﴾
٤٧	٨٧	يوسف	﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحٍ...﴾
٥١	١٠٠	يوسف	﴿وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا...﴾
١٣٩	١٠٠	يوسف	﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي...﴾
٢٠١	١٠٦	يوسف	﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾
١٠٢	٧	الرعد	﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾
١٨٣	٣١	الرعد	﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ...﴾
١٦	٢٥، ٢٤	إبراهيم	﴿كَشَجَرٍ قَوَّ طَبِيبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا﴾
٤٧	٥٦	الحجر	﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ..﴾
٤٨	٣٧-٣٨	الحجر	﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ...﴾

الخطب الإلهامية في رباعية التذلولة

٧٦	٢٦	النحل	﴿قِيلَ لَهُمُ فَاقِ اللَّهَ بُنَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ﴾
٤٤	٥٣	النحل	﴿وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾
١٩٠	١٢٥	النحل	﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾
١٩٠	٨٩	الإسراء	﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى...﴾
٢٠٨	١٨	الكهف	﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيُّكَ أَظْلَمُ وَهُمْ رُفُودٌ وَقُلُوبُهُمْ ذَاتَ...﴾
٢٠٨	١٩	الكهف	﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ...﴾
١٣٦	٢٨	الكهف	﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشَى...﴾
٢٠٩	٤٩	الكهف	﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾
٥٢	٨٢	الكهف	﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ...﴾
٥١	٤٠	طه	﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى...﴾
٥٤	١٣٢	طه	﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا...﴾
٨٤	٢٦	الأنبياء	﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾
٥١	٨٧	الأنبياء	﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا...﴾
٥١	٨٣ - ٨٤	الأنبياء	﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ: إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾
٢٠٩	١٠	الحج	﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾
٥٢	٣٨	الحج	﴿لَئِنْ اللَّهُ يَذْفِقُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
١٨٢	٥٢	الحج	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾

الفهارسُ الْفَنِيةُ

٢٩	٦٧	الحج	﴿إِنَّكَ لَمَلَكٌ هُدًى مُسْتَقِيمٌ﴾
٢٤	٢٧	المؤمنون	﴿وَلَا تَخْطِطُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾
١٣٩	٦١	المؤمنون	﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَا سَافِقُونَ﴾
٤٤، ٤٣	٢١	النور	﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ﴾
٤٤	٣٩	النور	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ﴾
١٨٤	٣٩	النور	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ﴾
٧٦	٤٠	النور	﴿ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ...﴾
١٦٤	٢٣	الفرقان	﴿وَقَدْ مَنَّا عَلَى مَاعِمْلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً...﴾
٢٤	٦٣	الفرقان	﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾
٨٥، ١١٨	٧٧	الفرقان	﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ...﴾
١٠٢	٧٦-٧٣	الفرقان	﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَذْكُرُوا بَاعَدَتْ رَبَّهُمْ لَمْ يَكْرُؤْ أَعْلَيْهَا...﴾
٤٤	١٤	النمل	﴿وَحَدِّدْ بِهَا وَاسْتَفِيقْنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا...﴾
٤٩	١٩	النمل	﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ...﴾
٤٨	٦٢	النمل	﴿أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾
٢٩	٧٩	النمل	﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾
١٤٠	٢٦	العنكبوت	﴿فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ...﴾
١٩٠	٤٦	العنكبوت	﴿وَلَا تُجْدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
٤٥	٦٩	العنكبوت	﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾
٤٢	٣٠	الروم	﴿فَاقْمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتُ اللَّهِ﴾

الخطب الاخلاقي وبعائده التلاوة

٤٢ ١٩١	٢٤	سبأ	﴿وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾
٩١	٣٩	فاطر	﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾
٤٨	٢٧	يس	﴿يَمَّا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾
٤١	١٤٧	الصفات	﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾
٢٢١	١٧	ص	﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ...﴾
٢٤	٢٠	ص	﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَنَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾
٥١	٤٤	ص	﴿وَحُذِّدَكَ ضَعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ...﴾
٥٩	٦٨-٦٧	ص	﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾
١٠٥	١٨	الزمر	﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾
٨٥ ١١٩	٦٠	غافر	﴿رَبُّكُمْ أَدْعُوهُ اسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ...﴾
٥٣	٤٢	فصلت	﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ...﴾
١٨٩	١٥	الشورى	﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾
١٨٩	١٦	الشورى	﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ...﴾
٢٩	٤٣	الزخرف	﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
١٠٥	٢٣	الجاثية	﴿أَفَرَأَيْتَ مِمَّنْ آخَذَ اللَّهُ هُونَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ...﴾
٦٢	١٦	الأحقاف	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا...﴾
٥٨	٢-١	الفتح	﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ...﴾
٤٣	٦	الفتح	﴿الطَّائِفِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوَاءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَاءِ...﴾

الفهارسُ الْفَنِيةُ

١٠٥	٧	الحجرات	﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾
٤٣	١٧	الحجرات	﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ﴾
١٤٥	١٤ - ١٠	الذاريات	﴿قُلِ الْخَرَصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍوسَاهُونَ﴾
١٩٥	٤ - ٣	النجم	﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ...﴾
٣٣	٧	الحشر	﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾
٩٦	٨	المتحنة	﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾
٢٠٠	٦	الجمعة	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ﴾
٥٢	٨	التحریم	﴿لَا يُخْرِجُ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ...﴾
٢٩، ٥٧، ١٥٠	٤	القلم	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾
٧٧	٤٤ - ٤٧	الحاقة	﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا...﴾
٥٩	٣ - ١	النبا	﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيَّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي...﴾
٢٤	٣٧	النبا	﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾
١٩٥	٢ - ١	عبس	﴿نَذْكُرُهُ عِبْسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾
١٩٥	١٠ - ٥	عبس	﴿فَأَنْتَ لَهُ نَصْدَى ﴿٥﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ...﴾
٧٦	١٠ - ٩	الشمس	﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا...﴾
٦٢	٢	الزلزلة	﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾

الفَهَارِسُ الْفَنِيَّةُ

فَهْرَسُ الْأَحَادِيثِ

الصفحة	القائل	الحديث والأثر
١٥٠	النبي محمد ﷺ	((اذهبوا فانتم الطلقاء))
٩٦	النبي محمد ﷺ	((أصنع الخير الى اهله وإلى غير أهله))
١٣٤	الإمام الصادق عليه السلام	((أقول: ومن حيث انقرض ملك بني العباس))
١١٨، ٨٥	الإمام الصادق عليه السلام	((إن عند الله منزلة لاتنال الا بمسألة...))
٦١	الإمام علي عليه السلام	((أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم...))
٦١	الإمام علي عليه السلام	((أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني،...))
٧٥	الإمام الهادي عليه السلام	((لا تلتفتوا إلى هؤلاء الخدّاعين...))
٩٦	النبي محمد ﷺ	((اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون))
٦٣	الإمام السجاد عليه السلام	((اللهم افلّ بذلك عدوهم،...))
٦٧	الإمام علي عليه السلام	((مَنْ اختلف إلى المسجد، أصاب إحدى الثمان...))
١٩٢	الإمام الصادق عليه السلام	((من أعاننا بلسانه على عدونا أنطقه الله بحجته...))
٦٧	الإمام الصادق عليه السلام	((مَنْ دهمه أمر من سلطان، أو مَنْ عدو...))

الخطب الإخلاقيَّة وأربعاء التَّكْوِينِ

- ٩١ الإمام الصادق عليه السلام ((من نكد العيش السلطان))
- ٩٦ الإمام علي عليه السلام ((وأشعر قلبك الرحمة للرعية))
- ٥٩ الإمام علي عليه السلام ((والله لو وجدته قد تزَّوج به النساء، وملك به (...))

الفَهَارِسُ الْفَنِيَّةُ

فَهْرَسُ الْمُعْصُومِينَ (عليهم السلام)

الصفحة	اسم المعصوم
١٣، ٢٩، ٣٩، ٤٥، ٤٦، ٥٢، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ٧٨، ٨٦، ٩١، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٨، ١١١، ١١٩، ١٢٠، ١٣٥، ١٣٦، ١٥٠، ١٦١، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨، ١٨٠، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٣، ٢١٧.	النبي محمد ﷺ
٢٣، ٢٤، ٥٧، ٧٠، ٧٣، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٨٦.	الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)
٦٨	فاطمة (عليها السلام)
٢١٨	الإمام الحسن بن علي (عليه السلام)
١١، ١٥، ١٥١، ٢٠٥.	الإمام الحسين بن علي (عليه السلام)
٣٩، ٦٣	الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) = زين العابدين
٥٩، ٧٥	الإمام علي الهادي (عليه السلام)
٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٠	الإمام المهدي (عليه السلام)

الفَهَارِسُ الْفَنِيَّةُ

فَهْرَسُ الْأَعْلَامِ

١٤٠	إبراهيم، النبي
٧٦	أبو سفيان
٢٨	أبو علي مسكويه
١٩	أبو القاسم الخوئي
٧٥	أبو هاشم الجعفري
١١٣	أبو هلال العسكري
٧٠	أبن الاثير
٩١	ابن الطقطقي
٢٣	ابن الفوطي
٤٢	ابن عبّاس
١٨٩، ١٢١	ابن فارس
١٩٨	ابن وهب الكوفي
٧٤	أبي عبيدة الحذاء
٦٨، ٢٠	أبي علي الحسن بن محمّد الطوسي، الشيخ المفيد
١٩٨، ١٩٧، ١٩٦	أحمد بن حنبل
١١	أحمد رحيم المنصوري
١١	أحمد الصافي، السيّد
١٩٤	إدريس النبي ﷺ
١٢٨	إدريس هاني

الخطب الإخلاقيّة وأبعاد التّلاويّة

٧٣	آدم
١٦٤، ١٤٩، ١٣٣، ١٣٢، ١٣١، ٣٢	أوستين
٢٢، ١٩	البحراني
٢٥	بدر الزركشي
٥٨	البلخي
١٤٦، ١٤٥، ١٣٩، ٥٤	الجبائي، أبي علي
٤٣	حاتم الجواد
٢٣	حسن الصدر
٢٠	حسين أحمد السوراوي، الشيخ
٧٥	الحسين بن أبي الخطاب
١١٠	حسين جمعة
١١	حيدر وتوت الحسيني، السيّد
١٩٤	الخضر
٧٠	الخوانساري
٢١٠، ٢٥	داوود، النبي
١٩١	ديكرو
١٨٩	الراغب الأصفهانيّ
١٨٥، ١٨٣، ١٤٦	الرماني
١٩٩، ١٥٩	زكريا النبي ﷺ
٢٠٩، ١٨٧، ١٨٦	الزّمخشريّ

الفَهَارِسُ الْفَنِيَّةُ

٢٠١	زيد بن علي بن الحسين (ع) = زيد الشهيد
١٣٧	سعد كموني
١٧٨	السكاكيّ
١٦٤، ١٣٣، ١٣١، ٣٢	سيرل
٣٢، ٩	شارل موريس
١٩٣	الشريف الرضي
١٩٣	الشريف المرتضى
٧٦، ٢٩	الشيرازيّ = الملا صدرا
١٩٠	صابر الحباشة، دكتور
١٧	صاحب عمدة الطالب = ابن عنبه
٤١	صبحي الصالح
١٨٢، ١٢٨، ٣٤، ٢٦	طه عبد الرحمن
٤٦	الطهراني
٧٤	عاصم الخياط
١٤٨	عبد الجبار
١٧٨	عبد القاهر الجرجاني
٢٠	عبد الكريم بن طاووس، السيّد
٦٨	عربي بن مسافر العبادي
٩٤	عزرائيل (ع)
٢٠، ١٨	العلامة الحليّ

الخط الاخلاقي وبعائده التداولية

٢٧	العلامة المصطفوي
١٢١	العلوي
١١	علي الأعرجي، الدكتور
١٣، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٣، ٨٥، ٩١، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢١، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٧١، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦	علي بن طاووس الحلي، رضي الدين
٢٠	علي بن عيسى الإريلي
١١	عمار الهلالي، الشيخ
١١	عياد حمزة الويساوي، الدكتور
١٤٩، ٥١	عيسى، النبي
٢٩	الفخر الرازي
٢٠٩، ١٨٠، ١٤٥، ١٤٣، ١٠١، ٤١	الفراء

الفَهَارِسُ الْفَنِيَّةُ

١٩٩، ١٤٣، ٥٠، ٤٧	فرعون
١٣٢	القزويني، الخطيب
٩٣	قشتمر، الأمير
١٩١، ١٨١، ١٧٥، ١٧٤، ١٣١، ٣٢	كرايس
٧١	الكفعمي، الشيخ
٧٠	مالك الأشر النخعي
١٨	المحدث القمي
٤٣	المحدث النوري
٦١	محمد السند، الشيخ
١٧	محمد الطاووس، أبي عبدالله
١٠٠	محمد باقر الداماد
٦٨	محمد بن أبي القاسم الطبري
٢٠، ٢٩، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٧، ٢١٤، ٢١٧	محمد بن الحسن الطوسي، أبو جعفر = الشيخ الطوسي = شيخ الطائفة
٢٠	محمد بن القاسم الطبري
٦٦	محمد بن بابويه، أبو جعفر
١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١٤، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٥، ١٦١، ١٦٣، ١٩٧، ٢٠٧	محمد بن علي ابن طاووس
٦٦	محمد بن محمد النعمان، المفيد
١٩	محمد بن نما، الشيخ

الخطب الإخلاقيَّة وأبعاد التَّلاوِنة

٦٦	محمَّد بن يعقوب الكليني، الشيخ
١١	محمَّد حليم الكروي، الدكتور
٧٦، ٧٣	محمَّد رضا المظفر، الشيخ
٣٥، ٢٨	محمَّد عابد الجابري
٥٧	محمَّد مهدي النراقي
٧٠	محمود الحمصي، سديد الدين
٦٧	المرتضى
١٩٩، ١٥٩	مريم، السيدة = مريم بنت عمران
١٩٢، ٩٤، ٩٣	المستنصر بالله، الخليفة
٢٠٢، ٧٦	معاوية
١٩	موسى بن جعفر بن محمَّد ابن أحمد بن الطاووس = والد رضي الدين
١٩٤، ١٤٤، ٥١	موسى، النبي
٧٣	نوح، النبي
١٢٨	نيتشه
١٩٩	أم موسى ﷺ
٢١٧، ٢١٤، ٧٣، ٧٢، ٧١، ٧٠، ١٩	ورام بن ابي فراس المالكي، الشيخ = جد
٢١٨	رضي الدين
٣٩	الوليد بن المغيرة

الفهارسُ الفنيّة

٢٠٢،٧٦

يزيد

٥١،٥٠

يعقوب عليه السلام، النبي

١٣٩،٥١،٥٠

يوسف عليه السلام، النبي

٥١

يونس عليه السلام، النبي

الفهارسُ الْفَنِّيَّة

فهرسُ الْمُؤَلَّفَاتِ

٧٤، ٢١	الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزنة
٩٥، ٨٧، ٦٩، ٦٥، ٢١	الإقبال بالأعمال الحسنة
٤٦	إنجيل لوقا
٤٦	إنجيل متي
٤٦	إنجيل مرقس
٤٦	إنجيل يوحنا
٤٦	الإنجيل
١٠٣، ٢١	التحصين في أسرار ما زاد على كتاب اليقين
٢١٤، ٧٣، ٧١، ٧٠، ٢٠	تنبيه الخواطر ونزهة الناظر = مجموعة ورام
١٢٠	تهذيب النفس
٤٦	التوراة
٧٣	جامع السعادات للنراقي
١٢٤، ٨٧، ٦٦، ٦٥، ٢٢	جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع
١٢٣، ٨٧، ٦٦، ٦٥، ٢٢	الدروع الواقية من الأخطار
٦٥، ٥٤، ٢٢، ١٣	سعد السعود
١٩	شعراء الحلّة
٧٧	غياث سلطان الورى لسكان الشرى
٢٢	فتح الأبواب بين ذوي الألباب ورب الأرباب
٨٧، ٦٦، ٦٥، ٦٠، ٢٢	فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة
١٢٠	كتاب الأزمنة
٢٠	كتاب اليقين
٢١٥، ٦٥، ٢٢، ١٨	كشف المحجة لثمره المهجة

الخط الأخلاقي ورعاية التذكية

٧١،٢٢	محاسبة النفس = محاسبة الملائكة الكرام آخر كل يوم
١٩	المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي
٧٠	مسألة في المواسعة والمضايقة
٦٨،٦٥	المصباح الكبير
٦٩،٦٥	مصباح المتهجد
١١٥،٦٥،٢٢	مهج الدعوات ومنهج العنايات
٧٠،٦٥	المهمات والتمتات
١٠٣،٢٢	اليقين باختصاص مولانا علي أمير المؤمنين عليه السلام بإمرة المؤمنين

الفَهَارِسُ الْفَنِّيَّةُ

فَهْرَسُ الْأَمَاكِنِ وَالْبُلْدَانِ

٢٣	باب المشهد
١٩٤، ٩٣، ٢٣، ١٧	بغداد
٩٣	بلاد خراسان
١١٩	بيت المقدس
١٣، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٣، ٧٠	الحلّة
٢١٣، ٢١٧، ٢١٨	
١٧، ٩١، ٢١٣، ٢١٧	العراق
٢٣	غرفة التجارة
١٧	مدينة سورا
٢٣	مرقد أمير المؤمنين (ع)
٩٠، ١٩٣	المستنصرية
٩٣، ٥٠، ١١٩، ١٥٠	المسجد الحرام = مكة
٧٥، ١١٩	مسجد النبيّ
٢٠٠	نجران
١٩	النجف الأشرف
٢٣	وادي السلام

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

❖ الاتصال اللساني وآلياته التداوليّة في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، سامية بن يامن، ط ١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١٢م.

❖ الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي (من علماء القرن السادس الهجري) تحقيق: إبراهيم البهادري ومحمد هادي، ط ٣، دار الأسرة، إيران، ١٤٢٤ هـ.

❖ الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الأمدي (ت ٦٣١هـ)، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، (د.ت).

❖ أحلام اليقظة مع فيلسوف المتألهين، محمد رضا المظفر، تحقيق: الدكتور محمد جواد الطريحي، ط ١، دار الضياء، النجف الأشرف، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٩م.

❖ إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ط ١، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

❖ الأخلاق، عبدالله شبر (ت ١٢٤٢هـ)، ط ١، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، (د.ت).

❖ أخلاقنا في حاجة إلى فلسفة أخلاق بديلة: إدريس هاني، ط ١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٩م.

الخطاب الأخلاقي ورعاية التداوُلِ

- ❖ أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م.
- ❖ استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري، ط ١، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤ م.
- ❖ الاستلزام الحواريّ في التداول اللسانيّ، العياشي أدراوي، ط ١، دار الأمان، المغرب، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
- ❖ الاستلزام الحواريّ في سورة البقرة (دراسة وصفية تحليلية تداولية)، حَجَر نورما وحيدة، جامعة مولانا مالك إبراهيم، مالانج، أندونيسيا، ٢٠١٠ م.
- ❖ أصول الكافي، أبو جعفر محمّد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٨ هـ)، ط ١، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.
- ❖ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢ م.
- ❖ الأفعال الإنجازيّة في العربية المعاصرة، (دراسة دلالية ومعجم سياقي)، عليّ محمود حجّي الصّراف، ط ١، مكتبة الآداب، ٢٠١٠ م.
- ❖ الأفعال الكلاميّة في سورة الكهف (دراسة تداوليّة)، آمنة لعور، جامعة قسنطينة، الجزائر، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، ٢٠١٤ م.
- ❖ الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة بالسنة، رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤ هـ)، تحقيق جواد الفيومي الأصفهانيّ، مكتب الإعلام الإسلاميّ، ط ١، ١٤١٤ هـ.

المصادر والمراجع

- ❖ الأمالي، الشيخ المفيد الإمام أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ)، دار المفيد، (د. ت).
- ❖ الأمان من أخطار الأسفار والأزمان، رضي الدين علي بن موسى بن جعفر ابن طاووس، النجف، المطبعة الحيدرية، ١٣٧٠هـ.
- ❖ الأمر والنهي في اللغة العربية، نعيمة الزهري الأنصاري، مؤسسة الثقليين لإحياء التراث الإسلامي، ط ١، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
- ❖ الأنوار الساطعة في المائة السابعة، محمد محسن المعروف بآغا بزرك الطهراني (ت ١٣٨٩هـ)، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢م.
- ❖ الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق: الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء علوم التراث، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
- ❖ بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، (١١١١هـ)، ط ٢، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٩٩٨م.
- ❖ البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي (ت ٧٧٢هـ)، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ❖ البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب (ت ٣٣٥هـ)، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحديثي، بغداد، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧.
- ❖ البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، محمد صلاح زكي، ط ١، غزة، ٢٠٠٧م.
- ❖ تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

الخط الاخلاقي وبعائه التداولية

- ❖ تأصيل النص قراءة في أيديولوجيا التناص، الدكتور مشتاق عباس مَعْن، ط ١، مركز عبادي للدراسات، صنعاء، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ❖ تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمّد الحسن بن عليّ بن شعبة الحرانيّ (من أعلام القرن الرابع الهجري)، ط ١، منشورات الأعلميّ، بيروت، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- ❖ التحقيق في كلمات القرآن الكريم، العلامة المصطفويّ، ط ٣، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٩ م.
- ❖ التداولية (البعد الثالث من سميوطيقا موريس حتّى اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة)، الدكتور عبد بليغ، المجمع الثلاثي المصري، ط ١، القاهرة، ٢٠١٦ م.
- ❖ التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، صابر الحبّاشة، ط ١، مطبعة صفحات، دمشق، ٢٠٠٨ م.
- ❖ التداولية اليوم، آن ومرشلار جاك، ترجمة سيف الدين دغفوساميكو، ومحمّد الشيباني، ط ١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣ م.
- ❖ تفسير القرآن الكريم، صدر الدين الشيرازي (ملا صدرا)، تحقيق: بيدافر، ط ٣، دار المعارف، بيروت، ١٤١٥ هـ.
- ❖ تفسير أمومة الولاية والمحكمات للقرآن الكريم، الشيخ محمّد السند، تقرير الشيخ محسن الجصاني، ط ١، المطبعة شريعة، قم، ١٤٣٦ هـ.
- ❖ التفكير الناقد في القضايا الأخلاقية، تومس وول، ترجمة د. نجيب الحصادي، ط ١، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٤ م.

المصادر والمراجع

- ❖ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام)، أبو الحسين ورّام بن أبي فراس (ت ٦٠٥هـ)، تحقيق: باسم محمّد مال الله الأسدي، ط ١، العتبة الحسينيّة المقدّسة، كربلاء، ٢٠١٣م.
- ❖ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبو علي أحمد بن محمّد بن يعقوب مسكويه (ت ٤٢١هـ)، تحقيق: ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، ط ١، (د. ت).
- ❖ الثقافة العربيّة والمراجعيات المستعارة، د. عبدالله إبراهيم، ط ١، الدار العربيّة للعلوم، بالاشتراك مع دار الأمان، الرباط، ٢٠١٠م.
- ❖ جامع السعادات، محمّد مهدي النراقي، ط ١، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ❖ الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحويّة هامة، محمود صافي، دار الرشيد - مؤسسة الإيمان، ١٩٩٥م.
- ❖ جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع، السيّد علي بن موسى بن طاووس، جواد قيومي الأصفهاني، مؤسسة الآفاق، ط ١، ١٣٧١هـ.
- ❖ الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة، عبدالله صوّلة، ط ١، منشورات كلية الآداب، بمنويّة، الجزائر، ٢٠٠١م.
- ❖ الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظريّة وتطبيقية في البلاغة الجديدة، حافظ اسماعيل علوي، ط ١، دار الكتب الحديث، أربد، الأردن، ٢٠١٠م.
- ❖ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة المنسوب لابن الفوطي، طبع بعناية مصطفى جواد، بغداد، مطبعة الفرات، ١٣١٥هـ.

الخطب الأخرى في رباعية التذليل

- ❖ خاتمة مستدرك الوسائل، الميرزا حسين الطبرسي النوري (ت ١٣٢٠هـ)، قم، مطبعة ستارة، ١٤١٥ هـ.
- ❖ الخطاب الأدبي ورهانات التأويل (قراءات نصية تداولية حجاجية): نعمان بوقرة، ط ١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٢ م.
- ❖ الخطاب الإسلامي إلى أين؟ حوارات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبدالرحمن)، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- ❖ الخطاب القرآني (القرآن مرجعيته)، الدكتور سعد كموني، المركز الثقافي العربي، ط ١، بيروت، ٢٠٠٨ م.
- ❖ دراسات في الحجاج، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، أريد، الأردن، ط ١، ٢٠٠٩ م.
- ❖ دراسات في الفكر التربوي عند الإمام الحسن، الأستاذ يوسف مدن، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية، دار البرهان، بيروت، ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.
- ❖ دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمان الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، ط ٥، الشركة الدولية للطباعة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- ❖ الدين والعلم مطارحات في دينة العلم، مجموعة من الباحثين، محمد حسن زراقط، ط ١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٨ م.
- ❖ السراج الوهاج لدفع عجاج قاطعة اللجاج، الفاضل القطيفي (ت ٩٠٥ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، ١٤١٣ هـ.
- ❖ سعد السعود، ابن طاووس، منشورات الرضي، مطبعة أمير، قم، ١٣٦٣ هـ.

المصادر والمراجع

- ❖ سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، عباس بن محمد القمي (ت ١٣٥٩هـ) ط ٣، دار الأسوة، إيران، ١٤٢٧هـ.
- ❖ السيرة النبوية (سيرة ابن هشام)، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٣هـ)، تحقيق الشيخ أحمد جاد، ط ١، دار الغد الجديد، المنصورة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ❖ شرح إحقاق الحق، السيّد المرعشي، منشورات كلية المرعشي النجفي، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ❖ شروح في علم الأصول (شرح الآخوند للكفاية بقلم تلميذه الخوئيني) ترجمة: الشيخ محمد شقير، ط ١، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ❖ الصحيفة السجادية الكاملة، الإمام زين العابدين، ط ١، بيروت، ١٣٨٧ - ١٩٦٧م.
- ❖ طبقات أعلام الشيعة: آغا برزك الطهراني، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت ١٤٣٠هـ.
- ❖ العُدّة في أصول الفقه، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: محمد رضا الأنصاري القمي، ط ١، ستاره، قم، ١٤١٧هـ.
- ❖ عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، جمال الدين أحمد بن علي بن الحسين، ابن عنبه (ت ٨٢٨هـ)، تحقيق: محمد حسن الطالقاني، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦١م.
- ❖ عندما نتواصل نتغير - مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦م.
- ❖ فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين رب الأرباب في الاستخارات، رضي الدين ابن طاووس الحلي، تحقيق: حامد الخفاف، ط ١، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

الخط الأخلاق في رباعية التذلّولية

❖ الفخريّ في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة، محمّد بن عليّ بن طباطبا بن الطقطقيّ (ت ٧٠٩هـ)، مراجعة: محمّد عوض إبراهيم وعلي الجارم، مطبعة المعارف، مصر، ١٩٢٣ م، ١٩٣٨ م.

❖ فقه الأخلاق، محمّد صادق الصدر، دار البصائر، بيروت، ١٤٣٣ - ٢٠١٢ م.

❖ فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة، رضي الدين علي بن موسى ابن جعفر الحسنيّ، ابن طاووس، تحقيق غلام حسين المجيدي، دار جواد الأئمة عليهم السلام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٢ - ٢٠١٢ م.

❖ فلسفة الأخلاق في الإسلام، محمّد جواد مغنية، دار الجواد، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤ م.

❖ فلسفة مرجعية القرآن المعرفيّة في إنتاج المعرفة الدينيّة، نجف علي ميرزائي، ترجمة: د. دلال عبّاس، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ (سلسلة الدراسات القرآنية)، بيروت، ٢٠٠٨ م.

❖ فن البلاغة، د. عبدالقادر حسين، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

❖ الكامل في التاريخ، عزّ الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيبانيّ (ابن الأثير) (ت ٦٣٠هـ)، مراجعة: الدكتور سمير شمس، دار صادر، بيروت، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٩ م.

❖ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمّد علي التهانويّ، تحقيق: الدكتور علي دحروج، ط ١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦ م.

❖ الكشف، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ط ٢، دار إحياء التراث، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

المصادر والمراجع

- ❖ كشف الغطاء عن وجوه مراسم الاهتداء (في علم الأخلاق)، محمد حسن القزويني، ط ١، دار الحوراء، بيروت، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- ❖ كشف المحجة لثمرة المهجة، رضي الدين ابن طاووس، تحقيق: الشيخ محمد الحسون، ط ٣، ١٤٣٠ هـ.
- ❖ الكليات، أبو البقاء الحسين الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، ط ٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨ م.
- ❖ اللاهوت الديني وأصول العنف الديني، يوسف زيدان، ط ٣، دار الشروق، مصر، ٢٠١٠ م.
- ❖ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، ط ٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ.
- ❖ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، ط ١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٨ م.
- ❖ اللغة والحجاج، الدكتور أبو بكر العزاوي، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦ م.
- ❖ لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث، يوسف بن أحمد البحراني (ت ١١٨٦ هـ)، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم، مطبعة النعمان، النجف الأشرف.
- ❖ متشابه القرآن، القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني (ت ٤١٥ هـ)، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، ط ١، مطبعة الثقافة الدينية، ٢٠٠٩ م.
- ❖ مجمع الأمثال، للميداني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ❖ مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)، ط ٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

الخطب الأخلاقية والوعائى التداولىة

❖ محاسبة الملائكة الكرام، للسيد ابن طاووس، تحقيق الشيخ هادي القيسي، مجلة تراثنا، العددان الأول والثاني، ٤٥ و ٤٦، السنة الثانية عشرة، محرم - جمادى الآخرة، ١٤١٧هـ.

❖ محاسبة النفس، تقي الدين إبراهيم عليّ الكفعمي (ت ٩٠٥هـ)، مؤسسة قائم آل محمد ﷺ، قم المقدسة، إيران، ط ١، ١٤١٣هـ.

❖ محاضرات في الدين والاجتماع، مرتضى المطهري، ط ١، قم، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
❖ المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي دراسة منهجية في المصادر والاتجاهات، مجموعة مؤلفين، تعريب: عبد الحسن بهبهاني بور، ط ١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠١٢م.

❖ مستدرك سفينة النجاة، النمازي، ط ٣، المركز الإسلامي، قم، إيران، د. ت.
❖ مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ترجمة وتقديم: سيزا قاسم (ضمن جماليات المكان)، ط ٢، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٨م.

❖ مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي (ت ٦٢٦هـ)، باديس لهويميل، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ط ١، عالم الكتب، الأردن، ٢٠١٤م.

❖ معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، ط ٣، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

❖ معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو، ترجمة عبدالقادر المهيري، وحمادي صمود، مراجعة صلاح الدين الشريف، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨م.

❖ معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: د. سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٨٥.

المصادر والمراجع

- ❖ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.
- ❖ مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، ط ١، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ١٩٨٢ م.
- ❖ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ(الراغب الأصفهاني) (ت ٥٠٢)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط ١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م.
- ❖ مقاربات في فهم الدين، الدكتور حبيب فياض، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٨ م.
- ❖ مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٩٩هـ.
- ❖ مقدمة في علم الأخلاق، السيد كمال الحيدري، ط ١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥ م.
- ❖ مكتبة آل طاووس، علي عبد الرضا عوض، دار الفرات للثقافة والإعلام في الحلة، ٢٠١٥ م.
- ❖ المنطق، محمد رضا المظفر، (ت ١٣٨٣هـ)، دار التعارف، بيروت، ط ٣، ١٩٩٠ م.
- ❖ المنطق الفطري في القرآن الكريم، محمود يعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د. ت).

❖ منهاج الصّلاح في اختصار المصباح، أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف ابن المطهر الحليّ (ت ٧٢٦هـ)، بإشراف مكتبة العلامة المجلسي، تحقيق: عبد المجيد الميرد أمادي، قم، ١٣٨٨هـ.

❖ مهج الدعوات ومنهج العناية، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر ابن محمّد بن طاووس الحسيني (٦٦٤ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

❖ موسوعة عالم السياسة (تعريف شامل بالسياسة فكرًا وممارسة)، أسعد مفرّج، ط ١، دار نوبلس، بيروت، ٢٠١١ م.

❖ نزّهة أهل الحرمين في عمارة المشهدين، السيّد حسن الصدر الكاظمي، ١٣٥٤ هـ، تحقيق: السيّد مهدي الرجائي، ط ١ ستارة، قم، ١٤٣١ هـ.

❖ نشأة الفلسفة العلميّة، هانس رايشيناخ، تحقيق: فؤاد زكريا، دار الوفاء، الإسكندريّة، (د. ت)

❖ نقد العقل العربي (العقل الأخلاقيّ العربي)، د. محمّد عابد الجابري، ط ٥، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ٢٠١٢ م.

❖ النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن عليّ بن عيسى الرمانيّ (ت ٣٨٤ هـ)، مطبوع ضمن (ثلاث رسائل في الإعجاز)، تحقيق: محمّد خلف الله، ومحمّد زغلول سلام، ط ٥، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٨ م.

❖ نهاية المرام في علم الكلام، الحسن بن يوسف الحليّ، تحقيق: فاضل العرفان، ط ١، مؤسسة الإمام الصادق (ع)، ١٤٢٩ هـ.

المصادر والمراجع

❖ نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ)، وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي، ضبط نصه وابتكر فهرسه العلميّة: الدكتور صبحي صالح، منشورات دار الهجرة، (د. ت).

❖ الهندسة المعرفيّة لعلم الكلام الجديد، أحمد قراملكي، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٢ م
❖ وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع)، أحمد حسن الزيّات، ط ٨، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٣ م.

❖ اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة المؤمنين، والتحصيل لأسرار ما زاد من أخبار اليقين، بتحقيق الأستاذين: محمّد باقر الأنصاري، محمّد صادق الأنصاري، ط ١، مؤسسة الثقلين لإحياء التراث الإسلامي، بيروت، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م.

البحوث والدراسات

❖ أسرة آل طاووس ومساهماتها في الحركة العلميّة في الحِلّة، الدكتور حسن عيسى الحكيم، مجلة أوراق فراثية، ع ٢، ص ٥، ٢٠١٤ م.

❖ البعد التداولي للمبني للمجهول في القرآن الكريم، الدكتور حسين علي حسين الفتلي، مجلة دواة، ع ٧، ص ٢، العتبة الحسينيّة المقدّسة، شباط، ٢٠١٦ م.

❖ تداولية قبل التداوليّة (هي تداولية قروسطية عربية إسلاميّة)، بيار لارشي، ترجمة الدكتور عز الدين المجدوب، منشور في (إطلالات على النظريات اللسانية والدلاليّة في النصف الثاني من القرن العشرين) (مختارات معرّبة)، ط ١، بيت الحكمة، قرطاج - تونس، ٢٠١٢ م.

❖ السبيل إلى البلاغة الباتوسيّة الأرسطية، محمّد الوليّ، مجلة الحجاج، ج ٢، ٢٠٠٨ م.

الخطب الأخلاقية والوعائى التدرؤلىة

- ❖ السياقات الإنتاجية للخطاب الإنشائى فى نهج البلاغة (أسلوب النداء أنموذجا) الدكتور رحيم كريم الشريفي، والدكتور حسين علي المحنا، مجلة دواة، ع ٣، م ١، العتبة الحسينية المقدسة، شباط، ٢٠١٥ م.
- ❖ السيد علي آل طاووس: حياته، مؤلفاته، خزانة كتبه، محمد حسن آل ياسين، مجلة المجمع العلمي العراقي، م ١٢، ١٩٦٥ م.
- ❖ القرآنية فى نهج البلاغة، م. م. علي ذياب محبي العبادي، مجلة العميد، ع ٦، م ٤، العتبة العباسية المقدسة، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.
- ❖ اللغة العربية والعولمة فى ضوء النحو العربي والمنطق الرياضي، الدكتورة مها خير بك ناصر، مجلة التراث العربي، العدد (١٠٨٤)، ٢٠٠٧ م.
- ❖ مفهوم التخاطب بين مقتضى التبليغ ومقتضى التهذيب، طه عبدالرحمن، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، ع ١، ١٩٩٤ م.

فَهْرُسُ الْمَحْتَوَيَاتِ

٧	الإهداء
٩	كلمة المركز
١٣	المقدمة
١٧	التمهيد
١٧	أولاً: لمحة من حياة رضي الدين علي ابن طاووس الحلّي
١٧	اسمه و نسبه الشريف
١٨	ولادته
١٨	أقوال العلماء فيه
١٩	شيوخه وتلامذته
٢٠	مؤلّفات
٢٢	وفاته ومدفنه
٢٤	ثانياً: الخطاب الأخلاقي (تعريفاً) بوصفه مركباً وصفيّاً
٢٤	الخطاب في اللغة
٢٥	الخطاب في الاصطلاح
٢٦	الأخلاق في اللغة

٣٠	الأخلاق في الاصطلاح
٣١	ثالثاً: التداولية
٣٢	التداولية في الاصطلاح
٣٣	التداولية في القرآن
٣٧	الفصل الأول: جذور الخطاب الأخلاقي عند ابن طاووس الحلي
٣٩	المبحث الأول: القرآن في الخطاب الأخلاقي لابن طاووس
٤٧	أولاً: القرآنية المباشرة (النصية)
٤٨	ثانياً: القرآنية غير المباشرة (غير النصية)
٤٩	ثالثاً: القرآنية المتضمنة (المعاني والدلالات)
٥٧	المبحث الثاني: أقوال الرسول ﷺ والأئمة المعصومين عليه السلام
٦٥	المبحث الثالث: أقوال العلماء الذين سبقوه
٦٥	أولاً: الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)
٧٠	ثانياً: الشيخ ورام
٧٩	الفصل الثاني: سمات الخطاب الأخلاقي عند ابن طاووس الحلي
٨٣	المبحث الأول: الدعاء والمناجاة
٨٩	المبحث الثاني: الشمولية
٩٩	المبحث الثالث: العقلانية

فهرس المحتويات

١٠٧	المبحث الرابع: تعقيب الخطابات الإنشائية
١١٣	المبحث الخامس: تحيّر الألفاظ
١١٧	المبحث السادس: مزية الفضاء (الزمكانيّ)
١٢١	المبحث السابع: التقابلات الدلالية
١٢٥	الفصل الثالث: الأفعال الكلامية في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس
١٣١	المبحث الأول: الأفعال الكلامية المباشرة
١٤٣	المبحث الثاني: الأفعال الكلامية غير المباشرة
١٤٩	أوّلاً: الأمر
١٥٤	ثانياً: النهي
١٥٧	ثالثاً: الاستفهام
١٦٢	رابعاً: النداء
١٦٤	تقسيمات سيرل
١٦٤	أوّلاً: التعبيرات
١٦٥	ثانياً: التنبيهات
١٦٦	ثالثاً: التوجيهات (التحذيرات)
١٦٧	رابعاً: الإخباريات (التقارير)
١٦٩	الفصل الرابع: الاستلزام الحواريّ والحجّاج في الخطاب الأخلاقيّ

١٧٣	المبحث الأول: الاستلزام الحواريّ
١٨٩	المبحث الثاني: الحجاج
١٩٣	أولاً: قياس التمثيل
١٩٦	ثانياً: حجّة المقارنة
١٩٦	ثالثاً: حجّة التعريف
١٩٧	رابعاً: الحجاج الترجيحي (إلزام الحجة)
١٩٨	خامساً: الحجّة الخبرية (الحجة النقلية)
٢٠٢	سادساً: احتجاج التقريب
٢٠٣	سابعاً: المناظرة المتخيلة
٢٠٣	أ. السؤال والجواب
٢٠٥	ب. أسلوب الفتيلة (الحوار)
٢٠٦	السلام الحجاجية
٢٠٨	العبارات الروابط الحجاجية
٢١٣	الخاتمة
٢١٩	الفهارس الفنية
٢٤٧	المصادر والمراجع

منشوراتنا

تشرفَ مركزُ تراثِ الحِلَّةِ التابع لقسم المعارف الإسلامية والإنسانية في العتبة العباسية المقدسة بتحقيق ومراجعة وضبط ونشر الكتب الآتية:

١. معاني أفعال الصلاة وأقوالها.
- تأليف: الشيخ أحمد ابن فهد الحليّ (ت ٨٤١هـ).
- تحقيق وتعليق وضبط: مركزُ تراثِ الحِلَّةِ.
٢. مختصر المراسم العلوية، تأليف: المحقّق الحليّ، جعفر بن الحسن الهذليّ (ت ٦٧٦هـ).
- تحقيق: أحمد عليّ مجيد الحليّ.
٣. التأصيل والتجديد في مدرسة الحِلَّةِ العلميّة - دراسة تحليليّة.
- تأليف: د. جبار كاظم الملا.
٤. مدرسة الحِلَّةِ وتراجم علمائها، من النشوء إلى القمّة.
- تأليف: السيّد حيدر السيّد موسى وتوت الحسينيّ.
٥. المنهج التاريخيّ في كتابيّ العلامة الحليّ (ت ٧٢٦هـ) وابن داوود (حيّاً سنة ٧٠٧هـ) في علم الرجال.
- تأليف: أ.م.د. سامي حمود الحاج جاسم.
٦. التراث الحليّ في مجلّة فقه أهل البيت (عليه السلام).
- أعدّه وضبطه: مركزُ تراثِ الحِلَّةِ.
٧. شرح شواهد قطر الندى

- تأليف: السيّد صادق الفحّام (ت ١٢٠٥ هـ).
- دراسة وتحقيق: أ.م.د. ناصر عبد الإله دوش.
٨. مرصد التدقيق ومقاصد التحقيق.
- تأليف: الحسن بن يوسف بن عليّ بن المُطهر، العلّامة الحليّ (ت ٧٢٦ هـ).
- تحقيق: د. الشيخ محمد غفوري نژاد.
٩. درر الكلام ويواقيت النظام.
- تأليف: السيّد حسين بن كمال الدين بن الأبرار الحسينيّ الحليّ (بعد ١٠٦٣ هـ).
- تحقيق: السيّد جعفر الحسينيّ الأشكوريّ.
١٠. موسوعة تراث الحِلّة المصوّرة.
- إعداد: وحدة الإعلام. مركز تراث الحِلّة.
١١. فقهاء الفيحاء وتطوّر الحركة الفكرية في الحِلّة. (بجزئين)
- تأليف: السيّد هادي حمد آل كمال الدين الحسينيّ (ت ١٤٠٥ هـ).
- دراسة وتحقيق: أ.د. عليّ عبّاس الأعرجيّ.
١٢. الموسوعة الرجالية للعلّامة الحليّ (ت ٧٢٦ هـ).
- وتشتمل: تحقيق كتاب (خلاصة الأقوال)، مع إضافة حواشي كلّ من: الشهيد الثاني رحمته الله، والشيخ حسن صاحب المعالم رحمته الله، والشيخ البهائيّ رحمته الله، وتحقيق كتاب (إيضاح الاشتباه)، وتأليف كتاب بعنوان: (المباني الرجالية للعلّامة الحليّ في كتبه الأخرى).
- تحقيق: الشيخ محمد باقر ملكيان.
١٣. كشف المخفيّ من مناقب المهديّ عليه السلام للحافظ ابن البطريق الحليّ (نسخة مستخرجة).
- استخرجها وحققها: السيّد محمد رضا الجلاليّ.
١٤. مسائل متفرقة لفخر المحققين.

- تحقيق: الشيخ قاسم إبراهيم الخاقاني.
١٥. تدوين السيرة الذاتية في تراث السيّد رضيّ الدين ابن طاووس الحليّ.
- السيّد حيدر موسى الحسيني.
١٦. ديوان الشيخ حسن مصبّح الحليّ.
- دراسة وتحقيق: د. مضر سليمان الحليّ.
١٧. خلاصة الأقوال في معرفة الرجال (فاكس ميل).
- إعداد وتقديم: ميثم سويدان الحميريّ الحليّ.
١٨. رسائل الشيخ حسين الحليّ.
- تحقيق وتعليق ومراجعة وضبط: مركز تراث الحلة.
١٩. خمس رسائل لفخر المحقّقين.
- تحقيق وتعليق ومراجعة وضبط: مركز تراث الحلة.
٢٠. منهج القصّاد في شرح بانة سعاد.
- تأليف: أحمد بن محمّد ابن الحدّاد البجليّ الحليّ (بعد ٧٤٥ هـ).
- تحقيق: أ.د. عليّ عبّاس الأعرجي.
٢١. مزارات الحلة الفيحاء ومراقدة علمائها.
- تأليف: السيّد حيدر السيّد موسى وتوت الحسيني.
٢٢. أجوبة المسائل المهنايّة.
- تحقيق: الشيخ حسين الوائليّ.
٢٣. بغية الطالبين لما وصل إلينا من إجازات فخر المحقّقين.
- جمع وتحقيق: ميثم سويدان الحميريّ.
٢٤. اختبار العارف ونهل الغارف (ديوان الشيخ حمّادي نوح الكعبي).

تحقيق وتعليق: الدكتور مضر سليمان الحليّ.

٢٥. الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التداوليّة عند السيّد رضيّ الدين عليّ بن طاووس الحليّ. تأليف:

أ.د. رحيم كريم الشريفيّ، و أ.م. د. حسين عليّ حسين الفتليّ.

وسيصدر قريباً (بمراجعة وضبط مركز تراث الحلة)

١. إيضاح المصباح لأهل الصلاح. للسيّد بهاء الدين عليّ بن عبد الكريم النيّليّ النجفيّ.

دراسة وتحقيق مركز تراث الحلة.

٢. الدرس النحويّ في الحلة. تأليف: د. قاسم رحيم حسن.

٣. موسوعة اللّغويّين الحليّين. تأليف: أ.د. هاشم جعفر حسين الموسويّ.

٤. العلّامة الحليّ (ت ٧٢٦هـ). تأليف: د. محمّد مفيد آل ياسين.

٥. بحوث ودراسات حليّة مترجمة، العلّامة الحليّ (١). ترجمة: أيّوب الفاضليّ. مراجعة

وضبط وتعليق: أ.د. عليّ عبّاس الأعرجيّ.

ومن الأعمال التي قيد التحقيق، بمراجعة وضبط مركز تراث الحلة

١. الإجازة الكبيرة. تأليف: الحسن بن يوسف بن عليّ بن المطهر العلّامة الحليّ (ت ٧٢٦هـ).

تحقيق: المرحوم كاظم عبود الفتلاويّ.

٢. حاشية إرشاد الأذهان. تأليف: الشيخ ظهير الدين عليّ بن يوسف النيّليّ (حيّاً سنة

٧٧٧هـ). تحقيق: السيّد حسين الموسويّ البروجرديّ.

٣. الفوائد الحليّة، تأليف: أحمد عليّ مجيد الحليّ.

٤. كشف الخفا في شرح الشفا. تأليف: الحسن بن يوسف ابن المطهر، العلّامة الحليّ

(ت ٧٢٦هـ). تحقيق: الشيخ مجيد هادي زاده.

٥. المختار من حديث المختار. تأليف: أحمد بن محمّد ابن الحدّاد البجليّ الحليّ (بعد ٧٤٥هـ).

تحقيق: مركز تراث الحلة.

٦. كافيّة ذوي الإرب في شرح الخطب. تأليف: الشيخ ظهير الدين عليّ بن يوسف النيليّ (كان حيّاً سنة ٧٧٧هـ). تحقيق: مركز تراث الحِلّة.
٧. منتهى السؤل في شرح معرب الفصول. تأليف: الشيخ ظهير الدين عليّ بن يوسف النيليّ (حيّاً سنة ٧٧٧هـ). تحقيق: مركز تراث الحِلّة.
٨. موصل الطالبين إلى شرح نهج المسترشدين. تأليف: الشيخ نصير الدين عليّ بن محمّد القاشيّ الحليّ (ت ٧٥٥هـ). تحقيق: مركز تراث الحِلّة.
٩. نهج البلاغة، يُطبع بالفاكس ميل على نسخة كتبها تلميذ العلامة الحليّ سنة (٦٧٧هـ) في مقام صاحب الزمان (عليه السلام) في الحِلّة.
١٠. نهج المسترشدين. تأليف: العلامة الحليّ الحسن بن يوسف ابن المطهر الحليّ (ت ٧٢٦هـ).
١١. إرشاد المسترشدين وهداية الطالبين، تأليف: فخر المحقّقين. تحقيق: ميثم سويدان الحميريّ.
١٢. تفسير الإيضاح للعلامة الحليّ بين المنهج العقليّ والمبنى الكلاميّ. تأليف: أ.د. حكمت الخفاجيّ.
١٣. الشيخ حسين الحليّ وآراؤه الفقهيّة في مستحدثات المسائل. تأليف: رياض أحمد محمّد تركيّ.
١٤. الإجازة العلميّة عند علماء الحِلّة حتّى نهاية القرن الثامن الهجريّ. تأليف: محمّد جساب عزّوز.
١٥. معجم النساخ الحليّين. تأليف: م.م. حيدر محمّد الخفاجيّ.
١٦. الفرائد المحمّديّة في شرح الفوائد الصمدية. تأليف: محمّد رضا ابن الحسن الحسينيّ الحليّ الأعرجيّ تحقيق: أ.د. عليّ عبّاس الأعرجيّ.

١٧ . التحقيق المبين في شرح نهج المسترشدين . تأليف: الشيخ خضر بن محمد الحبلرودي الحليّ
(ت ٨٥٠هـ). تحقيق: مركز تراث الحلة.

